موسوعة التاريخ الإسلامي

# عصر النبوة

عبد الحكيم الكعبي



دار أسامة

موسوعة

# التاريخ الإسلامي

## عصر النبوة وما قبله

تأليف

الدكتور عبد الحكيم الكعبي

دار أسامة للنشر والتوزيع

الأردن – عمان

الناشر

دار أسامة للنشر والتوزيع

الأردن – عمان

هاتف: ٥٦٥٨٢٥٣- ٤٦٤٧٤٤٧ فاكس: ٥٦٥٨٢٥٤

ص. ب: ١٤١٧٨١، البيادر



رقم الإيداع لدى دائرة
المكتبة الوطنية
(٢٠٠٣/٥/٨٩٣)

٩٥٦,٢
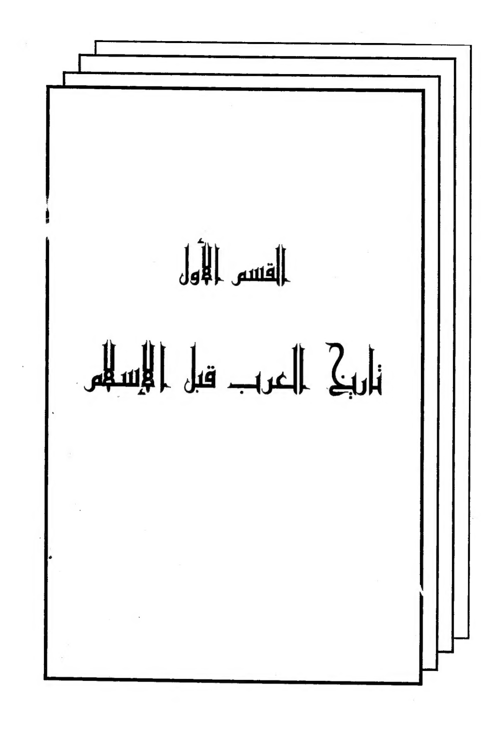
موس موسوعة التاريخ الإسلامي في عصر النبوة / جمع إعداد عبد الحكيم الكعبي عمان دار أسامة للنشر ٢٠٠٣

( )ص

ر.إ : ٢٠٠٣/٥/٨٩٣

الواصفات: /التاريخ الإسلامي// الإسلام // الموسوعات/

❖ تم إعداد بيانات الفهرسة والتصنيف الأولية من قبل دائرة المكتبة الوطنية


القسم الأول
تاريخ العرب قبل الإسلام

# الفصل الأول

## تمهيد

## جغرافية بلاد العرب وسكانها

**المبحث الأول: طبيعة بلاد العرب**

- الموقع.
- المناخ.
- المياه.
- نباتات الجزيرة العربية وحيواناتها.
- أقسام جزيرة العرب.

**المبحث الثاني: السكان**

- العرب: أصل التسمية.
- أصل العرب.
- طبقات العرب.

# المبحث الأول

# طبيعة بلاد العرب

للجزيرة العربية أهمية خاصة عند دارسي تاريخ العرب والإسلام، ولا سيما الجزء الغربي منها، فهي الأرض التي نشأ فيها الرسول الكريم ﷺ طفلاً، والمهد الذي نبتت فيه دعوته وترعرعت وبلغت أشدها لتنطلق إلى الآفاق، إليها يحج الملايين كل عام، وتتطلع أبصار المسلمين في المشارق والمغارب.

لقد عرفت هذه البلاد عند مؤرخي العرب وجغرافييهم باسم "جزيرة العرب"، وهذه التسمية ليست صحيحة تماماً لأن الماء لا يحيط بها من جميع جهاتها، فهي شبه جزيرة، ولكن العرب كانوا يسمون شبه الجزيرة "جزيرة"، فهم يسمون شبه جزيرة أيبريا "جزيرة الأندلس"، ويسمون ما بين النهرين في العراق بجزيرة آقور أو الجزيرة الفراتية.

ويعلل الجغرافيون العرب تسميتها بالجزيرة بقولهم "لإحاطة الأنهار والبحار بها من جميع أطرافها وأقطارها فصاروا فيها في مثل الجزيرة من جزائر البحر، وذلك لأن الفرات يقبل من بلاد الروم ماراً ببلدة قنسرين ثم ينحط على أطراف الجزيرة وسواد العراق حتى إذا قارب البصرة اتحد بدجلة وصبّا معاً في خليج عمان من بحر الهند، ويأخذ البحر في ذلك الوضع مضرباً طائفاً ببلاد العرب متعطفاً عليها إلى بلاد عمان والشجر وحضرموت إلى تهائم اليمن ويمضي إلى ساحل مكة وساحل المدينة ثم ساحل الطور وخليج أيلة وخليج القلزم

والنيل حتى بحر الروم الذي تقع عليه سواحل قنسرين وهي الناحية التي أقبل منها الفرات منحطاً إلى أعالي أطراف الجزيرة وسواد العراق[1]...".

وللجزيرة شكل رباعي غير منتظم يبلغ طوله من الشمال الغربي حتى الجنوب الشرقي ٢٢٠٠كم، ويبلغ عرضه ١٢٠٠كم، وهذا الشكل الرباعي غير المتوازي الأضلاع تعترضه في الشرق مرتفعات عمان، بينما يحده من الغرب والجنوب والشرق حدود مائية هي البحر الأحمر وخليج عدن وبحر العرب وخليج عمان والخليج العربي، أما من ناحية الشمال فالحدود مع بلاد الشام غير متفق عليها بين الجغرافيين، وكثيراً ما قام الخلاف حول أين تنتهي حدود الجزيرة وأين تبدأ حدود الشام. ولكن أغلب الجغرافيين العرب يمدون تلك الحدود إلى حد نهر الفرات الذي يدخل بلاد العرب عند مدينة بالس في شمال بلاد الشام ويتجه جنوباً نحو أرض العراق حتى مدينة البصرة ليصب في الخليج العربي.

ويمكننا أن نصف بلاد العرب بأنها هضبة مرتفعة لا يقل ارتفاع أي جزء فيها عن ١٥٠٠ قدم عن سطح البحر، وهذه الهضبة تنحدر انحدارين أحدهما نحو الغرب والآخر نحو الشرق.

ويبدأ الانحدارات من سلسلة جبال السراة التي تقع في غرب شبه الجزيرة وتمتد من أقصى الشمال إلى أقصى الجنوب حيث تصل إلى أعلى ارتفاعها وهو عشرة آلاف قدم (أو أكثر من ٣٠٠٠م)، وانحدار الأرض من هذه القمم الشامخة إلى الشرق تدريجي ويمتد إلى مدى بعيد، أما الانحدار الغربي فهو شديد، وتحصر سلسلة الجبال فيما بينها وبين ساحل البحر الأحمر وادياً ضيقاً

---

(١) الهمداني، صفة جزيرة العرب ص٤٧، ياقوت الحموي ج٢ ص١٣٧.

متوسطاً عرضه خمسة عشر ميلاً وأقصى اتساع له ثلاثون ميلاً وتتخلله عدة وديان لا يستفاد منها بل كثيراً ما تعوق سير القوافل.

وفي الجنوب الشرقي تبرز سلسلة من الجبال في عمان وهي السلسلة المعروفة باسم الجبل الأخضر، ويبلغ ارتفاعها نحو عشرة آلاف قدم أيضاً.

ويحيط بأطراف الجزيرة الغربية حيث يتراجع البحر عند الساحل بمعدل اثنتين وسبعين قدماً في العام، أغوار واسعة تعرف بتهامة.

ويبلغ متوسط ارتفاع نجد، وهي الهضبة الوسطى الشمالية نحو ٢٥٠٠ قدم وفي سلسلة جبالها المعروفة بـ "شمّر" قمة من حجر الغرانيت الأحمر اسمها "أجا" يبلغ ارتفاعها ٥٥٠٠ قدماً.

وإذا استثنينا اليمن وعمان وبعض الوديان الواقعة في سلسلة الجبال الغربية وفي نجد والإحساء، فإن الجزيرة في الغالب صحارى ودارات.

وكثبان الرمال في جزيرة العرب لها أشكال متعددة منها نجمي الشكل ومنها على شكل هلال أو قبة. والكثبان الهلالية الشكل تتراوح أحجامها بين المتر والمئتي كيلومتر في الارتفاع ويصل امتدادها في بعض الأحيان إلى عدة كيلومترات، وأغلب كثبان الرمال في الجزيرة تتألف من الرمال الصافية التي لا تتخللها قطع الصخور أو غيرها. ويختلف لون الرمال وتركيبها من منطقة إلى أخرى، ويكون اللون في الداخل قريباً إلى الحمرة.

تقع أغلب المناطق الرملية في جزيرة العرب في المنطقة الرسوبية الموجودة في الشمال الشرقي، والشرق والجنوب الشرقي، وأكبر الصحاري فيها اثنتان: النفود الكبرى التي تبلغ مساحتها ٧٠ ألف كم٢، والربع الخالي التي تبلغ مساحتها في نصف مليون كم٢، وصحراء الربع الخالي هي أكبر مساحة رملية

متصلة في العالم كله. وتتصل هاتان الصحراوتان بقوس طويل ضيق اسمه الدهناء يقع شرقي طويق العَرمة. وهناك قوس صحراوي آخر يصل النفوذ بالربع الخالي ويقع غربي طويق، ولكن هذا القوس ليس مستمراً كالقوس الأول بل كثيراً ما يغيب ويعود للظهور ثانية. ويبدأ هذا القوس الثاني عند عرق المظهور الذي يترك صحراء النفوذ جنوبي النقطة التي تفترق فيها الدهناء عن النفوذ وينقسم إلى ثلاث سلاسل رملية متوازية هي من الشرق إلى الغرب: نفوذ الثُويْرات، نفوذ السر، والشقيقة. ويسمى الامتداد المتوسط للثُويرات باسم نفوذ البلادين، ويتصل بنفوذ السر نفوذ قنفيذة، وفي جنوب قنفيذة يغيب القوس الرملي، ثم يعود للظهور ثانية عند عرض الدحي الذي ينهي شمال وادي الدواسر.

ويلاحظ أن الرمال في النفوذ تتحرك دوماً باتجاه الجنوب أو بكلمات أخرى أن رمال صحراء النفوذ تتحرك دوما باتجاه الربع الخالي. وتعرف في كتب اللغة بالبادية وأحياناً بالدهناء، مع أنَّ النفوذ جافة إلا في واحاتها القليلة فإنه يصيبها في بعض السنين أمطار تساعد على نمو الأعشاب التي ترعاها الإبل والمواشي.

أما الربع الخالي، فعلى الرغم من أنها تظهر على الخريطة ولها ذراعان طويلان يمتدان باتجاه الشمال فإن الذراع الغربي المسمى بالجافورة يعده العرب صحراء مستقلة لا علاقة لها بالربع الخالي، ويفصلها عن هذه الصحراء حوض الجوب وكذلك الذراع الشرقي فإنه يعد منطقة مستقلة لا علاقة لها بالربع الخالي وتمتد حتى شاطئ الخليج العربي[1].

---

(١) المصدر سابق ص١٣٦ وما بعدها، الاصطخري، المسالك والممالك ص٢٧، دائرة المعارف الإسلامية، مادة "جزيرة العرب".

ومن المناطق الطبيعية الجديرة بالذكر المنطقة الحرة، وهـي أرض مـن الحجارة الرملية تعلو سطحها حمم البراكين القديمة، وتكثر هذه المناطق البركانيـة في بقاع الجزيرة الغربية والوسطى وتمتد شمالاً حتى حوران الشـرقية، ويذكـر "ياقوت الحموي" في معجم البلدان ما لا يقل عن ثلاثيـن حـرة أشـهرها حـرة المدينة[١].

## الموقـــــــع:

تقع شبه جزيرة العرب وسط سلسلة من الصحراوات التي تمتد كـالحزام حول العالم القديم، نحو الغرب عبر النيل في الشـمال الأفريقـي فيمـا يعـرف بالصحراء الكبرى، ونحو الشرق عبر سهول دجلة والفـرات وخـلال الهضبـة الإيرانية إلى بلاد التركستان وصحراوات آسيا الوسطى في التبت وغوبي، وهـذا الأمر له أهميته فيما يتعلق بتاريخ العرب والإسلام، إذ على أساسه فسر بعـض الباحثين طبيعة التوسع العربي في القرنين السابع والثامن الميلاديين، فـي شـكل أفقي من أسبانيا إلى التركستان، بمعنى أن العرب توسعوا خـلال هـذا الحـزام الأرضي لأنه لا يختلف كثيراً في طبيعته الجغرافية عن بلادهم، أي البلاد التـي ألفوا الحياة فيها، ونفس الملاحظة يمكن أن تكون صالحة بالنسبة لعلاقات العـرب بمن جاورهم من البلاد والشعوب قبل الإسلام، وبذلـك تتضـح أهميـة دراسـة الجغرافيا بالنسبة لتفسير حركة التاريخ خلال العصور.

---

(١) ياقوت الحموي، ج٢ ص١٣٧.

هكذا يمكن القول أن بلاد العرب بفضل موقعها المتوسط من العالم القديم، تمثل همزة الوصل بين قارتي آسيا وأفريقيا مما يسمح بنسبتها إلى القارتين، فهي بطبيعتها الإقليمية جزء من صحراوات أفريقيا الشمالية، على الرغم من وجود البحر الأحمر الذي يعد موصلاً أكثر منه فاصلاً بين سواحل مصر والحجاز، وبين سواحل اليمن والحبشة والصومال، حيث المضيق بشكل خاص، ويؤيد ذلك ما يسجله الجغرافيون العرب من أن طريق القوافل بين سواحل عمان وبين تهامة غرباً، وبين سواحل عُمان والبحرين شرقاً كانت من الصعوبة بحيث كان طريق المواصلات فيما بينها هو الطريق البحري(١).

أما عن برزخ السويس فكان البوابة الكبرى لعبور الهجرات من جزيرة العرب ومن آسيا إلى مصر والمغرب، وعلى هذا الأساس يمكن اعتبار شبه الجزيرة العربية من أفريقيا.

ومثل هذا يقال عن صلات العرب بآسيا فإذا كان الخليج العربي يفصلهما في الجنوب والشرق عن إيران، فإنه كان موصلاً جيداً بين الساحل العربي والساحل الفارسي، انتقلت عبره الجماعات في كل من الجانبين، خلال العصور، وكذلك كان الأمر بالنسبة لسهول دجلة والفرات موصلاً بين بلاد العرب والهضبة الإيرانية التي تعد البداية الطبيعية للقارة الآسيوية، ومن هذا الوجه تعد بلاد العرب من آسيا.

---

(١) الأصطخري، ص٦٣.

## المنــــــــاخ:

يسود الجفاف شبه جزيرة العرب بوجه عام، والمطـــر ينـــدر ســـقوطه، ولذلك فإن أكثر أراضي جزيرة العرب صحراوية، ومع ذلك فهناك أودية كثـــيرة تسيل فيها المياه في موسم الأمطار، وهي أودية شديدة الانحدار تصب في البحـــر الأحمر أو في بحر العرب، والأمطار تسقط في الخريف والشتاء فـــي الشـــمال، بينما تسقط في الصيف في بلاد اليمن، وإذا سقط المطر في البادية فإنـــه يتســـبب في إنبات عشب وشيك ينمو سريعاً ثم يذوي سريعاً، ولذلك فإن الحياة في الباديـــة هي التي أملت على البدوي الترحال والانتقال إلى حيث موارد المياه والعشب.

وتهب على الجزيرة رياح تختلف بـــاختلاف المنـــاطق والبحـــار التـــي تجاورها، ففي الجزء الشرقي من الجزيرة تهب رياح شرقية تتحول إلى شـــمالية في بعض الأحيان، أما نجد فتهب عليها رياح شديدة جداً من مختلـــف الجـــهات وكثيراً ما يتحول اتجاه الريح فيها كل نصف ساعة، أما الرياح الموســـمية التـــي تهب من المحيط الهندي فتصل إلى المناطق الجنوبية من الجزيـــرة ولـــها تـــأثير كبير على حياة السكان هناك.

ويذكر المسعودي[1] أن الرياح أربعة: إحداها تهب من جهـــة المشـــرق، وهي القبول، والثانية تهب من المغرب، وهي الدبور، والثالثة من التيمـــن وهـــي الجنوب، والرابعة من التيسر، وهي الشمال.

---

(١) مروج الذهب ومعادن الجوهر ج٢ ص٢٣٣.

أما رياح القبول فهي التي يسمونها ريح الصبا، وهي ريح طيبة مقبولة النفس تصبو إليها، وأكثر هبوبها على إقليم نجد، وكان العرب يفضلون هذه الريح لرقتها ولأنها تجيء بالسحاب والمطر وفيها الري والخصب، وهي عندهم اليمانية، وريح الشمال عادة ريح باردة وتهب على الحجاز بعد أن تكون قد اجتازت هضاب الأناضول المغطاة بالثلوج ومرتفعات سورية، ولذلك عرفت بالشامية، وكانت مكروهة لما يصحبها من برد ولأنها تذهب بالغيم والخصب، وتعرف أيضاً بالحدواء لأنها تحدو السحاب أي تسوقه.

ولما كانت معظم بلاد العرب صحراء فقد اعتمدوا على الأمطار في الرعي وفي الزراعة، ولذلك السبب اهتم العرب بتمييز أنواع السحب الممطرة وبرعوا في التنبؤ بسقوط المطر، وسموا السحاب الذي يرجى منه المطر "الخلق" وسموا السحابة التي يدوم مطرها بالسحابة الداجنة.

وتسقط الأمطار على جبال اليمن بغزارة في فصل الصيف، وينزل في تهامة اليمن في الشتاء أحياناً، ويبلغ تأثير الرياح الموسمية حتى الطائف، ففيها تنزل الأمطار في أواخر الصيف، أما في فصل الشتاء فتسقط الأمطار في شمال بلاد العرب وفي وسطها، والأمطار في بعض الأحيان تشح وقد تنقطع وينتج عن ذلك جدب وقحط يطول أمده وفي ذلك يقول الشاعر:

إذا سنة طالت وطال طوالها　　　وأقحط عنها القطر وأبيّض عودها

ومن هنا أ"لق العرب على السنوات التي لا ينزل فيها مطر بالسنين البيض أو السنيات البيض، وأحياناً يسمونها السنوات الشهباء، وإذا شح المطر

ينتقل البدو من مضاربهم وينتجعون مواضع القطر أو الغيث، ويعد ذلــك إيذانــاً بالهجرة نحو الشمال.

وفي بعض السنوات تنزل الأمطار بغزارة فتحدث السيول وتتعرض البـلاد للأخطار، فتتساقط المنازل والدور وتطيح السيول بالزروع، وقد بادت بالســيول والفيضانات شعوب وأمم عربية، مثل شعب سبأ الذي باد على أثر سيل العرم.

أما في حالة الأمطار المعتدلة فالنــاس يشــربون ويســقون حيواناتــهم، ويروون مزروعاتهم وتمتلئ الآباء والغــدران والخزانــات والــدارات بالميــاه، والدارة رمل أبيض مستدير، في وسطه فجوة مستديرة، وغالباً ما تكون الــدارات محاطة بالجبال، وتكثر فيها الزراعة، وقد أحصى "ياقوت" من دارات العرب نحو ستين دارة[1].

## الميـــــاه:

على الرغم من أنه لا يوجد في الجزيرة العربية نهر كبير دائم الجريــان، فإن بعض أجزاء الوديان في الجنوب تظل ممتلئة بالماء طوال السنة وذلك بسـبب وقوعها في منطقة الرياح الموسمية التي تجلب الأمطار الموسمية الغزيرة.

ومن أشهر وديان شبه جزيرة العرب "وادي الســرحان"، ويبلــغ طولــه ٣٠٠كم تقريبا وعرضه ٥٠-٧٠كم وتصب فيه وديان صغيرة على طول مجراه.

وهناك واد آخر اسمه وادي الحَمْضَ يصب في البحر الأحمــر وترفــده روافد من الشرق تنبع من حرات خيبر، وبعد مسافة قصيرة باتجاه الشــرق يقــع

---

(١) معجم البلدان ج٥ ص٤٢٤ "مادة دارات".

منبع "وادي الرُمة" الذي يصب القسم الأسفل منه المعروف باسم الباطن في الخليج العربي قرب البصرة. وتتحدر من جبال السراة ثلاثة وديان كبيرة هي: رَنْيَة وبيشة وتثليث وتقترب من وادي الدواسر هذا أن تغيب في رمال الربع الخالي. وهناك واد آخر معروف حالياً باسم "حَبَوْنا" ويسميه الهمداني باسم "حَبَوْنَن"،ويسير هذا الوادي ووادياً آخر اسمه "وادي نجران" باتجاه الشرق ليغيب في الرمال التي تقع جنوب "طويق" ومن مرتفعات اليمن ينبع وادٍ اسمه "وادي الخارد" ليصب في حوض الجوف "جوف بن ناصر" الذي كان مقر المعينيين.

ومن جبال اليمن تسيل وديان كثيرة باتجاه الجنوب حتى تصل إلى الشاطئ المجاور لعدن ومن بينها وادي "تُبان" وبني وغيره، ومن المرتفعات الجنوبية لمنطقة "الجَوْل" ينبع "وادي ميفعة" و"وادي حجر" ووادي حجر هذا هو النهر الوحيد الدائم الجريان في الجزيرة العربية، ولكن هذا النهر لا يعد من الأنهر الطويلة إذ أن طوله لا يزيد عن مئة كيلومتر.

وهناك وديان كثيرة أخرى في الجنوب أهمها وادي حضرموت الذي تغذيه وديان صغيرة كثيرة تنبع من شمال وجنوب "الجَوْل"، ووادي سمائل الذي يصب في خليج عمان، ووديان الباطنة وغيرها. أما في الشمال فتوجد مجموعة من الوديان تسير نحو الشمال الشرقي وتصب في نهر الفرات، وأهم هذه الوديان "وادي تُبل" و"وادي عرعر" و"وادي الخر". وفي نجد عدد من الوديان الفرعية التي تسيل بين وادي الرمة ووادي الدواسر وأهمها: وادي العَتك ووادي حنيفة، ووادي العقمي وغيرها.

إلى جانب هذه الوديان يوجد في شبه جزيرة العرب عدد من البحيرات يقع أهمها في مناطق الخرج والأفلاج، وتتشكل هذه البحيرات أيضاً في بعض

الواحات كواحة الحسا بنتيجة تجمع مياه السقاية، وليس كل هذه البحيرات مليئـــاً بالماء، فبعضها جافة ولا تمتلئ بالماء إلا في الفترات التي تتساقط فيها الأمطار.

أما المصدر الثالث للمياه في شبه الجزيرة العربية فهو العيون التي توجد في الواحات والتي تقوم حولها في العادة حياة مستقرة. وفـــي بعـض الواحـات الكبيرة تقوم عدة قرى تحيطها في الغالب أشجار النخيل، وتبلغ مساحات بعـــض هذه الواحات الكبيرة عشرات أو مئات الكيلومترات المربعة، وأهم هذه الواحـــات "الحسا" وفيها مدينتان كبيرتان هما: "الهفوف" و"المُبرِّز" وواحة بيشه وأهم مدنـــها: "الروشن" و"نمران".

والمصدر الرابع والأخير للمياه في الجزيرة هو الآبار التي توجـد عـدد كبير منها في الصحاري بما فيها الربع الخالي التي يستقي منـــها البـدو، ويبلـغ متوسط عمق أغلبها حوالي ٧٠م وقد يصل عمق بعضها إلى ١٧٠م، وليست كـــل الآبار في الجزيرة معروفة عند السكان، فالكثير منـــها يكتشـفونه صدفـة ودون سابق معرفة، علماً بأن مياه بعض هذه الآباء مالحة ولا تصلح لشرب الإنســـان، وتسمى هذه الآبار باسم "خور- وجمعها خـيران" وهـي لا تصلـح إلا لشـرب الجمال[1].

## نباتات الجزيرة العربية وحيواناتها:

إن طبيعة المناخ الجاف وشحة المياه وملوحة التربة يؤثران بدرجة كبيرة في نوعية النباتات ونموها، وأشهر المزروعات في الحجاز النخيل، أمـــا المقـح

---

(١) دائرة المعارف الإسلامية مادة "جزيرة العرب".

فيزرع في اليمن وفي بعض الواحات كما يزرع الشعير والذرة في بعض المناطق والأرز في عمان والحسا. وفي الهضاب المحاذية للساحل الجنوبي يعيش شجر اللبان ولا سيما في مهرة. وقد كان للبان دور هام في تجارة اليمن والجنوب بشكل عام منذ القديم، وينبت الصمغ العربي في منطقة عسير، أما شجرة البن فقد اشتهرت بها اليمن.

وقد دخلت أشجار الكروم إلى الجزيرة في حوالي القرن الرابع الميلادي، وأشهر مناطق زراعتها في الطائف، ويستخرج منها الشراب المعروف بنبيذ الزبيب، وأما الخمرة التي يرد ذكرها في الشعر الجاهلي فقد كانت تستورد من سورية والعراق.

وكانت الواحات الخصبة تنتج الفواكه والرمان والمشمش واللوز وقصب السكر والبطيخ والبرتقال وغير ذلك. والمرجح أن اليهود هم الذين أدخلوا زراعة هذه الفواكه إلى الجزيرة[1].

أما أشهر الحيوانات البرية التي تعيش في الجزيرة العربية هي النمر والضبع والذهب والثعلب والضب، أما الأسد الذي تكثر الإشارة إليه في الشعر القديم فقد انقرض الآن ولم يعد له وجود.

ومن الحشرات السامة الثعبان والعقرب والرتيلاء، ويكثر الجراد في الصحراء ويسبب آفات كثيرة ويعده البدوي طعاماً شهياً إذا شوي وملّح.

أما الحيوانات الأليفة فأشهر ما يوجد منها في الجزيرة الإبل والخيل والشياه والماعز والحمير والبقر والبغال والقردة والنسانيس والكلاب. ومن

---

(١) السيوطي، حسن المحاضرة ج٢ ص٢٥٤.

الطيور الكواسر في الجزيرة العقاب والبازي والصقر والبوم، هذا إلى جانب الهدهد والقبّرة والعندليب والحمام والقطا والجمل والغراب والبجع وغير ذلك.

## أقسام جزيرة العرب:

يقسم العرب بلادهم إلى خمسة أقسام كبرى هي اليمن والحجاز وتهامة (وتسمى أيضاً الغور) ونجد واليمامة (وتسمى أيضاً العروض). ويضيف بعضهم قسماً سادساً هو البحرين (وتسمى أيضاً هجر) ويعده بعض الكتاب جزءاً من اليمامة بينما يعده آخرون جزءاً من العراق.

**١ـ اليمن:**

سميت اليمن يمناً لأنها على حد قول بعضهم تقع على يمين الكعبة، أو لأنها الخير واليمن والبركة على حد قول الآخرين، وكان القدماء يسمونها بلاد العرب السعيدة أو اليمن الخضراء، ويقول الهمداني: "سميت اليمن الخضراء لكثرة أشجارها وثمارها وزروعها"، وتمتد اليمن على سواحل بحر العرب ويحدها الحجاز من الشمال والبحر الأحمر من الغرب، وتتكون من عدة أقسام أهمها: حضرموت وشحر وعمان ونجران، وأهم مدنها صنعاء، وتشتهر شحر بإنتاج البخور. شهرة اليمن قديمة جداً ويذكر "سترابو" أن شهرة اليمن وغناها بالخيرات أغرت الإسكندر المقدوني بغزوها، ولكنه أجل مشروعه هذا لما بعد عودته من الهند، وما لبث أن عاجلته المنية ولم ينفذ رغبته.

### ٢_ الحجاز:

وسمي بالحجاز لأنه يقف كالحاجز بين نجد وتهامة، ويقال أيضاً أنه سمي بهذا الاسم لأنه يحجر بين اليمن والشام وفيه سلسلة جبال السراة التي تمتد من اليمن إلى الشام، والأرجح التعليل الأول، وهو أن جبل السراة المعروف بجبل الحجاز "حجر بين الغور، وهو تهامة، وهو هابط، وبين نجد وهو ظاهر، فصار ما خلف ذلك الجبل في غربيه إلى أسياف البحر من بلاد الأشعريين وعك وكنانة وغيرها، ودونها إلى ذات عرف والحجفة وما صاقبها، وغار من أرضها الغور غور تهامة، وتهامة تجمع ذلك كله، وصار ما دون ذلك الجبل في شرقيه من صحاري نجد إلى أطراف العراق والسماوة وما يليها نجداً، ونجد تجمع ذلك كله، وصار الجبل نفسه وهو سراته، وهو الحجاز وما احتجز به في شرقيه من الجبال وأنحاز إلى ناحية فيد والجبلين إلى المدينة، ومن بلاد مذحج تثليث وما دونها إلى ناحية فيد حجازاً، والعرب تسميه نجداً وجلسا وحجازاً والحجاز يجمع ذلك كله..."[1].

وأهم مدن الحجاز مكة والمدنية (يثرب) والطائف وخيبر وفدك والجار وتيماء. (ولن نطيل الحديث عن أهمية مكة والمدينة وعن الحجاز بشكل عام بل سنعود إليه في فصول قادمة).

### ٣_ تهامة:

تشمل المنطقة الساحلية الضيقة الموازية لامتداد البحر الأحمر من اليمن جنوباً إلى العقبة شمالاً، ويحجزها عن داخل شبه الجزيرة سلسلة جبال السراة

---

(١) ياقوت الحموي ج٢ ص٢١٩ مادة "حجاز".

أعظم جبال العرب، وقد سميت تهامة بذلك الاسم من التهم، وهـــو شـــدة الحـــر وركود الريح، لشدة حرها وركود ريحها، وقيل سميت كذلك لتغير هوائها، وقيـــل أن التهمة هي الأرض المنصوبة نحو البحر، ولانخفاض أرض تهامـــة ســـميت الغور[1].

ويتألف إقليم تهامة من عدة تهائم، منها ما يدخل في اليمن، ومنـــها مـــا يدخل في الحجاز، وتمتد تهامة شمالاً حتى حدود مكـــة، وجنوبـــاً حتـــى حـــدود صنعاء. وتهامة اليمن سهل خصب تنحدر إليه الأودية من الجبـــال وتكـــثر فيـــه الأشجار والزروع، ومن مدنه الساحلية الحديدة ومخا وقنفذة، ومن مدنـــه زبيـــد قصبة التهائم، وفرضتها على البحر علافقة، ومن مؤرخي العرب من يجعل مكـــة من تهامة، ومن تهامة أيضاً ينبع وهي مدينة صغيرة تقع قريباً من البحر، ومنـــها أيضاً جدة فرضة مكة وكانت عامرة بالتجارة، ومن تهامة كذلك الحديبية وتبـــول وهي واحدة تقع بين الحجر وبين أول الشام[2].

**٤_ نجد:**

وتشمل المنطقة التي تقع شرق الحجاز وتمتد حتى الخليج العربي، وهـــي هضبة مرتفعة وسط شبه جزيرة العرب، تقع بين باديـــة الســـماوة فـــي المـــال والدهناء في الجنوب وأطراف العراق شرقاً والحجاز غرباً، وهي أوســـع أقـــاليم شبه جزيرة العرب، وتتخللها أودية كثيرة منـــها وادي الرمـــة وروافـــده، ووادي

---

(١) المصدر السابق: ج٤ ص٢١٧.

(٢) الهمداني ص٤٧ وما بعدها.

حنيفة، وكان يسمى فلجا، ووادي عاقل، ولذلك كانت نجد أطيب أراضي الجزيرة العربية، فترنم الشعراء برباها ورياضها.

وقسمها العرب إلى قسمين: نجد السافلة ونجد العالية، فالسافلة ما ولي العراق، والعالية ولي الحجاز وتهامة. وبنجد جبلان مشهوران صعبا الارتقاء هما جبلا أجأ وسلمى المنسوبان إلى طي، وبأدنى جبل أجأ مدينة حائل، وعلى سفح جبل سلمى بليدة فيد، الواقعة على طريق الحج العراقي، وتصور الكثير من الناس أن نجداً قاحلة تماماً، وهذا خطأ إذ أن نجد تشتهر بمراعيها التي تربى فيها أشهر الخيول العربية.

### ٥ _ العروض:

وتعرف باليمامة، وتشمل اليمامة والبحرين وما والاهما، وقد سميت عروضاً لأنها تعترض بين اليمن ونجد والعراق، وكانت اليمامة تسمى قديما "جوا" وذلك عندما نزلتها طسم وجديس، فعرفت باليمامة، نسبة إلى اليمامة بنت سهم بن طسم، وقاعدة اليمامة في القديم مدينة حجر، أما البحرين فإقليم فسيح قريب من الخليج العربي، وكانت قاعدتها هجر، وقصبة هجر الإحساء(١).

هذه هي أقسام بلاد العرب في نظر جغرافييهم القدماء، ويتضح من هذا الوصف أن العرب أطلقوا على أقاليم بلادهم المختلفة أسماء معبرة عن حالة هذه الأقاليم الطبيعية، مما ينم عن دقة في الملاحظة ومعرفة بخصائص البيئة، فالحجاز من الفعل حجز واحتجز بمعنى فصل، فهو الجبل الفاصل، وعرفت جبال الحجاز باسم جبل السراة تشبيها بسراة الفرس، بمعنى المرتفع المستوي

---

(١) ياقوت الحموي، ج٤ ص١١٢ "مادة عروض" وج٥ ص٤٤٢ مادة "يمامة".

حيث تنتشر القرى وواحات النخيل على ظهره، أما نجد فهي من الفعل أنجد بمعنى ارتفع (ومنها المرتفع) أو صعد (ومنها الصعيد في مصر). أما الإحساء فأغلب الظن أنها من حسو الماء –الموجود قريباً من سطح الأرض هناك– بمعنى ارتشاقه بعد استنباطه، فكأنها بمعنى النبط الذي يقال أنه الماء.

أما الدهناء فهي الحمراء والنفوذ تعني التلول، وفيما يتعلق باليمن الذي يرى بعضهم أنه من الخير والنماء والبركة، نميل إلى أن نأخذه بمعنى الاتجاه اليمني الذي يقصد به الجنوب على عكس الشام الذي يعني الشمال.

### بلاد العرب في نظر الجغرافيين القدامى:

لم تكن كل أقسام الجزيرة العربية معروفة عند الجغرافيين القدامى (اليونان والرومان). وفيما عدا الجزء الجنوبي الغربي حيث بلاد اليمن، والجزء الشمالي المتاخم للشام ومصر، كانت بلاد العرب مجهولة تماماً لدى القدماء ولم تطأها أقدامهم، وتعصمها الصحارى والبحار المحيطة بها من غزو الأجانب، وقد قسم القدماء بلاد العرب إلى ثلاثة أقسام:

**١- بلاد العرب الصخرية (Arabia Petrix Or Arabia Petraea):**

وهي عبارة عن المثلث المحصور بين خليجي البحر (شبه جزيرة سيناء) والمنطقة التي تليه إلى الشمال والشمال الشرقي، وعاصمتها مدينة البتراء Petra وقد سميت بهذا الاسم نسبة إلى طبيعة المنطقة الصخرية.

**٢- العرب الصحراوية (Arabia Deserta):**

وكانت تطلق على بادية الشام، ثم شمل اسمها البادية الواسعة والمناطق الصحراوية التي كانت تسكنها القبائل المتبدية في شبه جزيرة العرب كلها.

### ٣- بلاد العرب السعيدة (Arabia Felix):

وتشمل الجزء الجنوبي الغربي حيث اليمن التي قامت فيـــها حضـــارات عريقة وهي الأرض الخضراء.

# المبحث الثاني

# السكـــــــــــان

## العـــــرب: أصل التسمية

المقصود بالعرب هم أهل البلاد الذين أعطوها اسمهم، فصـــــارت بــلاد العرب والذين اشتهروا في التاريخ العالمي منذ كونوا دولتهم الإسلامية وجــاوروا الصينيين الذين سموهم بالتاشي (أي التاجر على ما يعتقد)، كما ســماهم الفرنــج بالسراسيين Saracens أو المور Maures وهي الأسماء اليونانيـــة والرومانيــة القديمة، فالأول يمكن أن يكون نسبة إلى الشرق، والثــاني ينســب إلـى ولايــة موريتانية في المغرب.

وردت لفظة "عرب" بكثرة في الوثائق الآشورية والبابليـــة منــذ القــرن الثامن قبل الميلاد في صيغ متعددة منها Arbi, Urbi, Aribi بمعنـــى الباديــة الواقعة إلى الغرب من بلاد الرافدين وهي بادية العراق، ثم ظهرت لفظة عربابيـــة Arbaya فيما يقرب من سنة ٥٣٠ق.م لأول مرة في النصوص الفارسية بمعنــى البادية الفاصلة بين العراق والشام بما فيها شبه جزيـــرة ســيناء، كذلــك وردت اللفظة في الأسفار القديمة من التوراة بمعنى البدو، في حين كان السكان الحضــر يسمون بأسماء قبائلهم أو بأسماء المواضع فيها، ثم أخذ اليونان يذكـــرون لفظــة عرب في أواخر القرن الخامس قبل الميلاد فذكرها اسكيلوس سنة ٥٤٦ق.م عنــد

الإشارة إلى قائد عربي كان معروفاً في جيش احشويرش، ثم ذكرها هيرودوت في منتصف القرن الخامس قبل الميلاد وقصد بها سكان شبه جزيرة العرب كلها بما فيها صحراء مصر الشرقية بين النيل والبحر الأحمر، وأصبح هذا اللفظ مألوفاً بعد ذلك عند جميع الكتاب اليونان، ولم يرد هذا اللفظ في المصادر العربية الأثرية إلا متأخراً فقد جاء في النقوش السبئية المتأخرة التي لا يرجع تاريخها إلى أبعد من القرن الأول قبل الميلاد[١].

### ولكن ما أصل كلمة "عرب" ومن أين جاءت؟

إن أصل كلمة "عرب" غير معروف بالتحديد على الرغم من التفاسير التي يقدمها علماء اللغة والفيلولوجيا[٢]. فيقول بعضهم أن الكلمة مشتقة من أصل سامي معناه "الغرب" وأن سكان ما بين النهرين كانوا أول من أطلقها على الأقوام التي تسكن غربي منطقة وادي الفرات. على أن هذا القول صعب الإثبات وتقوم حجج كثيرة ضده، أهمها الاعتراض الذي قد يثار من أنه ليس معقولا أن يسمي شعب نفسه باسم مشتق من موقعه بالنسبة لشعب آخر، ولعل محاولات ربط أصل الكلمة بقضية حياة البداوة التي هي من صفات هذا الشعب في تاريخه السحيق أجدى وأقرب إلى الواقعية.

الكتّاب العرب الأوائل ومن نقل عنهم من المتأخرين التزموا بالمنهج التقليدي في علم الأنساب لتفسير هذه التسمية، وهذا المنهج يرجع -عادة- أسماء البلاد والشعوب إلى الجدود القدماء أو الأبطال الأسطوريين، فلقد قالوا عن

(١) جواد علي، المفصل ج١ ص١٧١.

(٢) الفيولوجيا: فقه اللغة.

"الترك" إنهم أبناء ترك بن يافث بن نوح، وأن "الخزر" هم أبناء الخزريين يافث وأن "الفرس" أبناء فارس بن لاوذ بن سام، وأن "النبط" هم أبناء نبيط بن ماش بن ارم، وأن السريان هم أبناء سريان بن نبط، أو كما قالوا إن إسبانيا نسبة إلى الملك أشبان، أو أن أفريقيا نسبة إلى الملك أفريقش (ملك اليمن الحميري)، أو للملكة أفريقية، أو أن مصر نسبة إلى مصر أو مصرايم بن حام. وهم في بعض ذلك قد تأثروا بالتقاليد اليهودية المعروفة بالإسرائيليات، التي تضع شعوب العالم من شجرة نسب واحدة أصلها: آدم أبو الإنسانية الأول ثم نوح الأب الثاني لها[١].

في إطار هذه التقاليد نسب عبيد بن شرية الجرهمي[٢] (وتبعه المؤرخون في ذلك) اسم العرب إلى جدهم يعرب، وهو ابن قحطان بن عابر (هود) الذي كان أول من تكلم باللغة العربية، وعن طريقة تعلمها أخوته وبنو عمومته الذين تركوا بابل ليقيموا بجواره في اليمن، من: عاد وثمود وجديس وعمليق وطسم وجرهم وغيرهم من المعروفين بالعرب البائدة أي الهالكة.

وفي رأي فريق من العلماء أن كلمة عرب ذات صلة بكلمة A, rabha "عرابا" العبرية التي تعني "الأرض المظلمة" أو "السهوب" أو بكلمة Erebh "يعريب" العبرية أيضاً التي تدل على الحياة "الفوضى" أو "غير المنظمة" التي هي عكس "الحياة المنظمة" التي يحياها السكان الحضريون، هذه الحياة التي يرفضها البدو ويحتقرونها، أو من كلمة A,bhar "عابر" وتعني بالعبرية "تحرك" أو "عبر" ومنها اشتق اسم اللغة العبرية.

---

(١) أنظر: البطري ج١ ص٢٠٤-٢٠٥.

(٢)أخبار عبيد بن شريه ص٣١٤-٣١٩.

إن الربط بين كلمة "عرب" وحياة البداوة والتنقل أمر ليس بالبعيد الاحتمال، لأن العرب أنفسهم (بما في ذلك القرآن الكريم) استعملوا كلمة "أعراب" للدلالة على البدو الذين تعتمد حياتهم على النجعة والارتحال بعكس سكان المدينة في الجزيرة الذين كانوا مستقرين ويمارسون الزراعة والتجارة وغيرها من أعمال الحضر. ومن هنا جاء التفريق بين "عرب" و"أعراب". إذ يقول القرآن الكريم "ولتجدن الأعراب أشد كفراً ونفاقا"[1]، والأعراب تستعمل هنا بمعنى البدو، حسبما جاء في كل التفاسير.

وتعد النقوش من جنوب الجزيرة العربية أقدم الإشارات العربية المكتوبة، إلى كلمتي "عربي" و"عرب" ففي هذه النقوش التي هي من مخلفات الحضارات العريقة التي قامت على أرض اليمن التي أبدعها فرع عرب الجنوب في الحقبة الواقعة بين القرن القليلة السابقة على ظهور السيد المسيح، والقرون القليلة التالية لظهوره تجد أن كلمة "عربي" تستعمل بمعنى "بدوي" أو "غازي" وتصف الإنسان المرتحل تمييزاً له عن ساكن الحواضر المستقر. أما أقدم ذكر للعرب في نقوش مستخرجه من شمال الجزيرة العربية فيقع في النقش المعروف باسم "نقش النمارة" الذي يعود للقرن الرابع قبل الميلاد، وفيه نقرأ اسم امرئ القيس "ملك جميع العرب"، وهذا النقش مكتوب على طريقة الكتابة النبطية الآرامية.

وحين قام الإسلام في القرن السابع الميلادي استمرت الصلة الواضحة بين كلمة "عرب" ومعنى البداوة، فالقرآن الكريم كما أشرنا آنفاً، يطلق كلمة "الأعراب" على البدو تفريقا لهم عن السكان الحضر الذين كانوا يعيشون في

---

(١) سورة التوبة: ٩٧.

المدن كمكة ويثرب والطائف وغيرها. ويسمى القرآن الكريم اللغة التي يتكلمـــها سكان هذه المدن بالعربية.

## أصـــل العرب:

لا يسمح لنا المقام هنا أن نستعرض جميع النظريات التي تبحث قضيـــة أصل الإنسان الذي سكن الجزيرة العربية، ويكفي أن نقول أن القرائن والدلائـــل المتوفرة لدينا الآن تشير إلى أن سكان المناطق المرتفعة من اليمـــن هـــم أقـــرب الناس من حيث الصفات العرقية إلى من يسميهم علماء الأقـــوام بعـــرق البحـــر الأبيض المتوسط، وفي شرق مرتفعات اليمن التي يسكنها الناس الذين وصفنـــاهم بأنهم أقرب الناس عرقاً إلى عرق البحر الأبيض المتوسط يتغنى السكان بأغنيـــات وأشعار قريبة جداً من أغنيات عرق الصيادين الذي كان يسكن في غابات ســيلان في الماضي، وتظهر هذه الأغنيات والأشعار بشكل خـــاص عنـــد قبيلـــة مـــهرة والقبائل الأخرى التي تسكن في الجنوب، هذه القبائل التي تتكلم لغة سامية خاصـــة بها، وتختلف في كثير من التفاصيل مع اللغة العربية. وقد استنتج العلماء من هذه الأغاني والأشعار ذات الصلة بأغنيات عرق الصيادين الذي سكن ســـيلان فـــي الماضي (واسمه Veddah) بأن هناك صلة عرقية بين سكان الجزيرة وســـكان سيلان وربما الهند، وبدو الشمال الذين هم في نظر علمـــاء الغـــرب الممثلـــون الحقيقيون للعنصر العربي يشتركون في كثير من الصفـــات مـــع عـــرق البحـــر الأبيض المتوسط ولكن سكان مرتفعات اليمن يظلون الممثلين الحقيقييـــن لعـــرق المتوسط هذا.

إن المسائل العرقية وما يتفرع عنها من نظريات وحلـــول تـــهم علمـــاء الأقوام والآثار أكثر مما تهم تلامذة التاريخ العربي، وربما كان من المهم لنا نحـــن

في دراستنا للتاريخ العربي الإسلامي أن نتعرف وجهة نظر المؤرخين والنسابين العرب في أصل جنسهم، ووجهة النظر هذه فيها الكثير من الصحة والدقة التي ترضي علماء الأقوام المحدثون.

إن أصول وجهة النظر العربية تعود إلى الحقبة القديمة من تاريخ الأمم العربية ولكننا لا نستطيع تحديدها بالضبط لأن المصادر التي نستقي منها معلوماتنا متأخرة نسبياً وكل ما يمكننا أن نقوله أن العرب قبل ظهور الإسلام كان عندهم آراء ونظريات تشرح أصلهم وتبين نسبهم، وقبل أن نبدأ بشرح وجهة النظر العربية يجب أن ننبه إلى أن كافة معلوماتنا عن العصور التي سبقت ظهور الإسلام مستقاة من مصادر إسلامية متأخرة دوّنت بعد مدة طويلة من الحوادث نفسها وأن المؤرخين المسلمين نظروا إلى الكثير مما يتعلق بعصر ما قبل الإسلام من خلال إيمانهم الجديد وربما عدلوه بما يتفق مع نظرتهم التي اصطبغت بالصيغة الإسلامية، وهكذا لابد لنا من التحفظ في استعمالنا للمعلومات الواردة في المصادر الإسلامية عن عصر ما قبل الإسلام، هذا فضلاً عن أن وجهة النظر العربية في أصل العرب دخلها التعديل في زمن الرسول ﷺ والعصور التي تلت، وأخيراً فإن الإسلام وما دعا إليه من فكرة الإخاء بين جميع المسلمين بقطع النظر عن عرقهم، والتساوي بين العرب وغير العرب، قد زعزع الكثير من الأركان التي كانت تقوم عليها وجهة النظر العربية في أصل العرب، ولم تعهد نظرية العرق الصافي المنحدر من جد واحد هي الأساس الذي يقوم عليه المجتمع.

لقد وضع النسابون العرب نظاماً مفصلاً دقيقاً يشرح أصل أمتهم، وعلى الرغم من كل ما في هذا النظام من بعض النقاط الضعيفة أو الغامضة،

والفجوات التي لا يمكن سدها والمتناقضات التي لا يتم معها انسجام النظام لا سيما بالنسبة للعصور القديمة من تاريخ الأمة العربية، فإن النظام بمجموعة يبدو متماسكاً ومقبولاً، ولا تأتي قيمة هذا النظام من كونه نظرية وضعها علماء الأنساب العرب وعلينا نحن تلامذة التاريخ العربي في الوقت الحاضر أن ندرسها ونتعرف عليها، بل تأتي من كونه كان الإطار الذي انتظم وأثر في الحياة السياسية والاجتماعية للأمة العربية خلال مراحل تاريخها قبل الإسلام وبعده.

## طبقات العرب:

يكاد الرواة والأخباريون والنسابون العرب يتفقون على أن العرب ينقسمون إلى ثلاث طبقات:

١-العرب البائدة.

٢-العرب العاربة.

٣-العرب المستعربة أو المتعربة.

والطبقة الثانية والثالثة يطلق عليها اسم العرب الباقية، ويعنون بالعرب البائدة الشعوب العربية القديمة التي كانت تعيش في جزيرة العرب، ثم بادت ودرست أخبارهم بعاملين:

- الرمل الزاحف الذي طغى على العمران القديم في أواسط شبه الجزيرة العربية وفي الأحقاف.
- هياج البراكين وما ترتب عليه من تدمير المدن.

والعرب البائدة في نظر النسابين هم السكان الأصليون للجزيرة العربية: عاد وثمود وإرم، وجرهم، وطسم وجديس، التي انقرضت كلها قبل الإسلام.

وعلى الرغم من الشك الذي يبديه بعض المؤرخين حول وجود قبائل كعاد وإرم فإن القبائل الأخرى كثمود وغيرها لا خلاف مطلقاً على حقيقة وجودها التاريخي. أما معلوماتنا عن هذه القبائل فقليلة جداً ويكتنفها في أغلب الأحيان الغموض، وكل ما يمكننا أن نقوله بثقة أن هذه القبائل كانت قبائل عربية وتعرف باسم العرب البائدة. وقد أوقع الله بهذه القبائل العقاب وأبادهم لأنهم عصوا أنبياءهم ولم يسيروا في الطريق السوي التي أمر بها الله.

أما العرب العاربة فهم الراسخون في العروبية والمبتدعون لها بما كانوا أول أجيالها وينتسبون إلى قحطان أو يقطان أو يقطن الذي ورد اسمه في التوراة، وهو قحطان بن عابر بن شالخ بن أوفخشذ بن سام بن نوح وكان موطنهم اليمن.

إن نسل قحطان هم عرب الجنوب (قبائل اليمن) الذين نشأوا في الزاوية الجنوبية من الجزيرة، في حين أن نسل عدنان هم عرب الشمال الذين ظهروا أول ما ظهروا في القسم الشمالي من الجزيرة، ولسنا نملك من الأدلة العلمية ما يثبت صحة هذا التقسيم أو بطلانه، وهناك بعض المعلومات الثابتة الصحة التي تتناقض مع بعض تفاصيل هذا التقسيم، فمثلاً هناك ما يثبت أن السبئيين كانوا يسكنون الشمال في أول الأمر وهاجروا من شمال الجزيرة واستقروا في الجنوب وأقاموا مملكتهم في اليمن، في حين أن النسابين العرب يقولون أن سبأ هو حفيد قحطان ووالد حمير وكهلان الفرعين الرئيسيين لعرب الجنوب. والشعوب التي عاشت في كنف الدول التي قامت في جنوبي الجزيرة -كسبأ ومعين وغيرها- كانت تعد أحفاداً لحمير، لهذا أصبح للفظة "حمير" في اللغة العربية معنى يدل على جميع مرافق حضارة دول الجنوب، ولم يقوم هؤلاء الذين انحدروا من صلب حمير بدور هام في الحقبة الإسلامية، بل كان الدور المهم في هذا العصر

لأحفاد كهلان الذين كان من بينهم قبائل طي ومذحج وهمدان والأزد. ومن فروع الأزد قبيلتا الأوس والخزرج اللتان سكنتا المدينة (يثرب) وأصبحتا بعد قيام الإسلام تعرفان باسم الأنصار. أما لخم وغسان وكندة وقبائل أخرى من نسل كهلان فقد استقرت في الوسط وفي الشمال قبل قيام الإسلام بمدة طويلة، وهكذا نرى أنه في القرن السادس ومطلع القرن السابع الميلاديين كانت قبائل كثيرة من أصل جنوبي تقيم في الشمال، وربما أكثر شمالاً من قبائل الشمال نفسها.

وأما العرب المستعربة أو المتعربة فينسبون إلى عدنان بن أدد من ولد نابت بن الهمسع من تيمن بن نبت بن قيدر بن إسماعيل بن إبراهيم، فهم بنو إسماعيل بن إبراهيم (عليه السلام) أو المعديون من ولد معد بن عدنان وقد سموا بالعرب المستعربة لأن إسماعيل عندما نزل مكة كان يتكلم العبرانية، فلما صاهر اليمنية تعلم العربية[1].

إن عدنان جد عرب الشمال تكتنف قصة حياته ظلال تجعلها أكثر غموضاً من قصة حياة قحطان لذلك كثيراً ما أرجع عرب الشمال نسبهم إلى معد ابن عدنان، أو حتى إلى حفيده (أي حفيد عدنان) نزار، وإلى مضر وربيعة ابني نزار ينتسب الفرعان الرئيسيان لعرب الشمال، أما أحفاد الابن الثالث لنزار وهو إياد فقد طمس ذكرهم ولم نعد نسمع عنهم منذ قيام الإسلام، وتحتل قيس عيلان – أحد القسمين الكبيرين اللذين تنقسم إليها مضر – مكانة كبيرة في تاريخ عرب الشمال لدرجة أن كلمة "قيس" كانت تستعمل في كثير من الأحيان للدلالة على عرب الشمال بكاملهم، وكان يتبع قيس عيلان قبائل هوزان وسُليم، وإلى هوزان

---

(١) المقدسي، كتاب البدء والتاريخ ج٤ ص١٠٥.

تنتسب قبائل ثقيف ومجموعة قبائل عامر بن صعصعة التي من قبائلها قشير وعقيل وجعدة وكلاب وهلال. أما خندق، وهي ثاني القسمين الذي تنقسم إليه مضر فتضم قبائل هذيل وتميم وكنانة (وقريش أحد فروع كنانة)، وعلى الرغم من أن عرب الشمال (بحسب تلك الروايات) لا يتمتعون بدم عربي أصل كعرب الجنوب، وأنهم مستعربون لا عاربة فإن ظهور محمد بن عبد الله ﷺ خاتم الأنبياء من بينهم (من قريش) رفع مكانتهم بعد الإسلام وجعلهم في مكانة الصدارة بين القبائل العربية.

ومن ربيعة انحدرت قبائل عَنَزة وعبد القي والنمر وتغلب ومجموعة قبائل بكر بن وائل التي كانت منها قبيلة حنيفة، وقبل ظهور الإسلام بزمن غير قصير هاجرت قبائل من ربيعة ومضر من شبه جزيرة العرب، فسكنت بعض قبائل مضر قرب الفرات في الأرض التي سميت بديار مضر نسبة إليهم، وسكنت بعض قبائل ربيعة قرب دجلة في الأرض التي عرفت باسم ديار ربيعة نسبة إليهم أيضاً، وتخلفت بعض القبائل في شبه الجزيرة ولم تهاجر، فاستقرت هذيل قرب الطائف، وسُليم في الجبال التي تقع بين مكة والمدينة، بينما استقرت تميم وحنيفة وبعض قبائل عامر بن صعصعة في الوسط، وعبد القيس في الشرق.

إن هذا التقسيم الذي أوردناه مختصراً، هو التقسيم الأكثر شيوعاً بين النسابين، وهناك تقسيمات أخرى تعطي اسم العرب العاربة العرب البائرة والذين انحدروا من نسل قحطان، وهناك تقسيم ثالث يسمي العرب المنحدرين من نسل

قحطان باسم العرب المتعربة والمنحدرين من نسل عدنان باسم المستعربة[1]، ولا شك أن مصدر هذا الانقسام بين العرب إلى قحطانيين وعدنانيين ما ورد في التوراة في سفر التكوين، ومنه أخذ كتّاب البدء أي الذين عنوا في أخبارهم ببدء الخلق أمثال وهب بن منبه، وكعب الأحبار، وعبد الله بن سلام، وهم من أهل الكتاب[2].

لقد أشرنا في الصفحات السابقة إلى أن نظام الأنساب هذا على الرغم من أهميته، فيه الكثير من نقاط الضعف والغموض فضلاً عن الفجوات التي لا يمكن سدها، ذلك أن المعلومات النَسَبيّة الجاهلية بقيت شفهية لمدة طويلة بعد ظهور الإسلام، ثم أخذت تحوم حول شكلها المسجل لدينا شكوك وتساؤلات كثيرة، وأن بعض هذه التساؤلات والشكوك تستند إلى الحقائق الآتية:

- إن هذا النظام يقسم العرب أفقياً تقسيماً ثلاثياً "عاربة – مستعربة – بائدة"، ثم يقسمهم عمودياً إلى أقسام منفصلة "قبائل" وهذا يعني أن العرب ليسوا شعباً واحداً ولكنهم تركيب مزجي استمر خلال العصور الطويلة محتفظاً بعناصره المكونة، دون تفاعل أو امتزاج، إن هذا القول يمكن أن يكون صحيحاً أو ينطبق على بعض القبائل المنعزلة في الصحراء، ولكنه لا ينطبق نهائياً على عرب الجنوب مثلاً "اليمن" الذين أمضوا في حياة الاستقرار والحضارة ما يزيد على العشرين قرناً، كما لا ينطبق على عرب الشام والعراق.
- إن شعر العرب قبل الإسلام (الجاهلي) لا يذكر إطلاقاً عدنان ولا قحطان.

---

(١) طه حسين، في الأدب الجاهلي ص٧٩، عمر فروخ، تاريخ الجاهلية ص٤٥.

(٢) أحمد أمين، فجر الإسلام ص٥.

- والأكثر من هذا، أننا لا نجد ذكراً لأي منهما (عدنان وقحطان) في أي نقش أو أثر يمني قديم، أو ثمودي أو صفوي وهي نقوش تعد بعشرات الألوف.
- اضطراب الناس والمؤرخين في مفاهيم "العاربة والمستعربة والبائدة".
- اضطراب الناس في تفسير أسماء القبائل التي تدل على تقسيم جغرافي لا تقسيم أنثروبولوجي، وعلى اختلاف مكاني لا عرقي، واختلاف حضاري لا في الأصل أو الجنس.
- لو أجرينا عملية حسابية بسيطة لأجداد القبائل الواردة في سلاسل النسب حتى ظهور الإسلام على أساس معدل معقول للأعمار لوجدنا أن أقدمها لا يتجاوز في الوجود أكثر من خمسمائة سنة، وهذا يدعو للشك في صحة تلك الأنساب.
- إن ما نعرفه من الأنساب بشكل فيه بعض التوسع والتفصيل هو ما يتعلق بقريش وبعض قبائل الحجاز، وتضعف المعلومات بوضوح ثم تضطرب ثم تختلط كلما ابتعدنا عن هذا المركز وخاصة إذا وصلنا إلى اليمن.
- يضاف إلى ذلك أن علماء الأنثروبولوجية (علم دراسة الإنسان) لم يلاحظوا وجود فوارق جسمانية بين العدنانيين والقحطانيين.
- وأخيراً وفوق كل هذه الشواهد فإن القرآن الكريم، وهو أهم مصدر عربي عن تلك الحقبة لم يفرق بين عرب قحطانية وعرب عدنانية، وكل ما جاء فيه أن العرب يرجعون إلى جد واحد هو إسماعيل بن إبراهيم، وأن إبراهيم

"عليه السلام" هو أبو العرب، قال سبحانه وتعالى: (... هو اجتباكم وما جعل عليكم في الدين من حرج ملة أبيكم إبراهيم)[1].

إلى جانب كل ما ذكرناه، لم يصلنا أي أثر يشير إلى انقسام بين العرب في حياة النبي ﷺ كما لم يظهر أي انقسام في عصر الخلافة الراشدة، فضلاً عن ذلك لم يرد في الروايات الخاصة بتنظيمات عمر بن الخطاب رضي الله عنه لديوان العطاء، الذي تم ترتيبه على أساس القرابة من النبي ﷺ والسابقة في الإسلام، ما يشير إلى انقسام أو تمييز بين القحطانية والعدنانية، كذلك لم نشهد مثل هذا التقسيم في توزيع الجيوش العربية في زمن الفتوحات.

إن الحجة التي استند إليها دعاة الانقسام إلى عدنانية وقحطانية هي تأصل العداء بين الجماعتين في الجاهلية والإسلام، وهي حجة ضعيفة لأنه كان هناك عداء أيضاً بين القحطانيين بعضهم بعضاً وبين العدنانيين بعضهم بعضاً، وكيف يجوز لنا أن نتصور انقسام العرب إلى قسمين: قحطانيين وعدنانيين، انقساماً حقيقياً وقد كانت القبائل تتحالف فيما بينها وتتحارب بعضها مع بعض بأحلاف قد كون مزيجة من قحطان وعدنان؟ فإذا كان الأمر كذلك وإذا كان العرب قحطانيين وعدنانيين بالأصل فكيف تحالفت "جديلة" وهي من طي مع بني شيبان وهي من عدنان لمحاربة بني عبس؟ وكيف يفسر تحالف قبائل يمنية مع قبائل عدنانية لمحاربة قبائل يمنية أو لعقد محالفات دفاعية هجومية معها؟[2].

---

(١) سورة الحج: ٧٨.

(٢) أنظر جواد علي ج١ ص٢٢٤.

يؤكد العلامة جواد علي أن تقسيم العرب إلى عدنانيين ويمنيين عرف في العصر الأموي، إبان النزاع الحزبي، وبعد شيوع نظرية التوراة في الأنساب، ورجوع النسابين إلى أهل الكتاب للأخذ منهم، إذ أن الانقسام المذكور لم يظهر في العصر الإسلامي السابق لظهوره في زمن الخليفة الأموي مروان بن الحكيم[1].

---

(1) المرجع نفسه ج1 ص332.

# الفصل الثاني

# حضارة جنوب الجزيرة العربية

## ((دول اليمن))

**المبحث الأول: الدور المعيني (الدولة المعينية)**

**المبحث الثاني: الدور السبئي (الدولة السبئية)**

**المبحث الثالث: الدور الحميري (الدولة الحميرية)**

أولاً: عصر الدولة الحميرية الأولى

ثانياً: عصر الدولة الحميرية الثانية

ثالثاً: الاحتلال الحبشي والفارسي لليمن

# مقدمة

كلمة "العرب" معناها أهل الحجاز من الحضر والبدو فقط. وفي القـــرآن الكريم البراهين الكثيرة على شمول كلمة العرب، لجميع ســـكان الجزيـــرة مـــن الغساسنة والمناذرة، وأهل اليمن.

فالكتاب عربي والرسول عربي والأمة عربية، وتلك آيات القرآن الكريم:

- (إنَّا أنزلناه قرآنا عربياً لعلكم تعقلون)، [سورة يوسف: ٢].
- (وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم)، [سورة إبراهيم: ٤].
- (نَزَل به الروح الأمين، على قلبك لتكون من المنذرين، بلسان عربي مُبيـــن)، [سورة الشعراء: ١٩٣-١٩٥].
- (وكذلك أوحينا إليك قرآنا عربياً لتنـــذر أم القـــرى ومـــن حولـــها) [ســـورة الشورى: ٧].

إن الجنس العربي لم يكن قاصراً على أهل الحجاز -كما سبق- بـــل إن الحجازيين كانوا ضمن كيان عام، عربي الجنس، مستقر ومفـــهوم المـــدى، فـــي عصر النبي ﷺ، يشعر به غير العرب من الأمـــم المجـــاورة لجزيـــرة العـــرب، ويشعر به العرب أنفسهم.

وبعبارة أخرى، كان مدلول كلمة: العرب يشكل كل سكان الجزيرة – بمـــا فيهم الحجاز واليمن والشام والعراق- حيث كان فريق منهم غادياً ورائحـــاً وراء مواقع المطر، أو سائقاً لقوافل التجارة، وفريق آخر كـــان مســـتقراً فـــي المـــدن والحضر: يتمتع بالملك والسلطان، ووسائل الحيـــاة الناعمـــة المترفـــة. فكـــانت الصلات الطبيعية مع الساسانيين في بلاد الفرس وكذلك مع الروس البيزنطيين.

وفي القرآن الكريم، ما يمكن الاستناد إليه في تأييد هذا الذي نقرره، وهو الإشارة إلى الأمة العربية كلها، عندما يوجه الحديث إلى العرب، كما في قوله تعالى: (وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداءَ على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا) [سورة البقرة: ١٤٣]، فاستعمال كلمة: أمة، يرشد -حتماً- إلى عموم العرب، وكذلك استعمال كلمة "قوم" في أكثر من موقع يشير إلى ذات المدلول، وسنحاول تتبع الحضارات العربية في مواطنها المذكورة قبل الإسلام، ونبدأ بحضارة اليمن.

تقع اليمن في الطرف الجنوبي الغربي من شبه الجزيرة، تقطعها من الشمال إلى الجنوب سلسلتان جبليتان تحصران بينهما هضبة عريضة، وينحدر سطحها نحو البحر بشدة تاركاً سهلاً ساحلياً ضيقاً يقطعه عدد من الوديان التي تصب في البحر، وأمطار اليمن وافرة في الصيف تحملها الرياح الموسمية من شرق أفريقيا، وبعد سقوط الأمطار تتشكل السيول التي يستعمل ماؤها في الزراعة، وقد أدى توافر الماء إلى قيام مجتمع زراعي مستقر ازدهرت فيه المدنيات منذ القديم.

ولقد عرفت بلاد اليمن قديماً بتجارة العطور والبخور والطيوب والمر والصمغ والكافور والورس، وكان لمنتجات اليمن سوق رائجة في مصر الفرعونية، إذ كان المصريون يستخدمون اللبان اليمني مع البخور في المعابد، كما كانوا يستخدمونه في تحنيط جثث الموتى، وفضلاً عن قيام أهل اليمن بتسويق منتجاتهم الوطنية فقد كانوا يعملون وسطاء للتجارة بين الهند والعراق وبلاد الشام ومصر، فعن طريق اليمن كان لؤلؤ الخليج العربي وكذلك التوابل

والسيوف الهندية والحرير الصيني والعاج والذهب تصل إلى مصر والشام والعراق(١).

ولقد أشار عدد كبير من كتاب اليونان والرومان إلى ثروات اليمن فامتدحها هيرودوت لأنها "تزفر أريجاً عطرياً، لأنها البلاد الوحيدة التي تنتج البخور والمر والقصيعة والقرفة واللادن" وتحدث عنها ثيوفراست، تلميذ أرسطو، في كتابه "تاريخ النبات" كما ذكر خيراتها كل من الجغرافييّن المشهورين سترابو وبليني في مؤلفاتهم الجغرافية.

وإلى جانب شهرة اليمن بالطيوب واللادن، اشتهرت كذلك بتوافر معدن الذهب، وليس أدل على وفرة الذهب في اليمن مما قاله سيف بن ذي يزن لكسرى عندما نثر دراهمه على خدم القصر: "ما أصنع بالمال، وتراب أرضي ذهب وفضة"(٢).

ومن معادن اليمن أيضاً الرصاص والفضة والحديد، فالرصاص يتوافر بين فهم وبين خولان، والحديد يوجد بعدن والأرض الممتدة بين صعدة والحجاز، وفي نجران أيضاً جبل يستخرج منه معدن الحديد، وفي نقم وغمدان أيضاً معدن الحديد، واشتهرت الرضراض بالفضة(٣).

أما الأحجار الكريمة فمنها العتيق الذي يكثر في جبل شبام، وفي مخاليف صنعاء، وأجود العقيق ما استخرج من معدن يسمى مقرى، وقرية يقال لها إلهام

---

(١) المسعودي، مروج الهذب، ج١، ص١٤٨.

(٢) ابن هشام، السيرة، ق١ ص٦٣، الطبري، ج٢ ص٩٤٧.

(٣) الهمداني، ص٢٠٢.

من جبل قساس، فيصنع بعضه باليمن، ويحمل بعضه إلى البصرة، ومن الأحجار النفيسة معدن الجزع وهو يشبه العقيق بل هو نوع منه، وأجود الجزع البقراني، ومن الجزع أيضاً أنواع منها العرواني، والفارسي، والحبشي، والعشاري، والسعواني، والبلور، والمعسل، والمعرق. والمعرق من الجزع تتخذ منه الأواني لكبره، ومن شبام أيضاً يستخرج حجر الجمست.

وقد لخص المقدسي خيرات اليمن بقوله: "واليمن معدن العصائب، والعقيق، والأدم، والرقيق، فإلى عمان يخرج آلات الصيادلة والعطر كله حتى المسك والزعفران والبقم، والساج، والساسم، والعاج، واللؤلؤ، والديباج، والجزع، واليواقيت، والأبنوس، والنارجيل، والقندو الصبر، والأسكندروس، والحديد، والرصاص، والخيزران، والغضار، والصندل، والبلور، والفلفل، وغير ذلك.

وتزيد عدن بالعنبر، والشروب، والدرق، والحبش، والخدم، وجلود النمر وما لو استقصيناه طال الكتاب"[1].

وقد قسم المؤرخون تاريخ اليمن إلى ثلاثة أدوار تتناسب مع القوى الحاكمة فيها، وربما أضاف بعضهم دوراً يسبق هذه الأدوار يعرف بالدور الخرافي: أو "الدور الميثولوجي". وهو دور لا نملك عنه معلومات تاريخية حقيقة لذلك لا يمكننا أن نحدد له تاريخا، ولن نخوض في تفاصيله كثيراً.

يبدأ هذا الدور في اليمن بظهور الملك قحطان بن عابر جد عرب الجنوب، ونسب قحطان هذا متصل بِسام بن نوح عليه السلام، ويذكر المؤرخون العرب أن قطان اتخذ صنعاء حاضرة له ولبس التاج وحكم رعيته بالعدل.

---

(١) المقدسي، أحسن التقاسيم ص٩٨.

وبعد قحطان جاء ابنه يعرب الذي يقال عنه أنه أول من تكلــم العربيــة، ويدعي بعضهم أن يعرب كان كثير الفتوحات وأنه غزا الحجاز وولى أخاه جرهم عليها، كما ولى أخاه عاد بن قحطان على جبال الشحر، وعماد بن قحطان علـــى أرض عمان. ولما مات ملك من بعده ابنه يشجب بن يعرب، وكان ضعيفاً واهنـــاً لا رأي له ولا قوة، فاستبد به أعمامه واستقلوا بمقاطعاتهم التي كانوا يحكمونـــــها عنه، ولما مات خلفه ابنه عبد شمس الملقب بسبأ.

هذه خلاصة سريعة لرأي المؤرخين العرب عن الأدوار الســـحيقة فـــي القدم من تاريخ اليمن، وهناك من يضف دوراً ثانيـــاً يســـبق الأدوار المعروفـــة المتفق عليها يطلق عليه الدور البنطي.

# المبحث الأول

## الدور المعيني (الدولة المعينية) ١٣٠٠–٦٣٠ق.م

تعد الدولة المعينية أقدم الدول العربية التي قامت في اليمـــن، وقــد أدت الأحوال الطبيعية الملائمة إلى ظهور المدن وازدهار الحضارة منذ أقدم الأزمنـــة فقامت فيها دول أقدمها الدولة المعينية التي قامت في الجوف وكـــانت عاصمتـــها قرناو أو معين.

وقد لاحظ بعض الباحثين ومنهم وينكلر وهومـــل ودفرتـــي أن بعـــض مظاهر الحياة المعينية تشبه حضارة البـــابليين، فالإلـــهان شـــماش وعشـــتروت البابليان يشبهان شمس وعثر اليمانيين، كما أن النقوش والأختام المعينيـــة تشـــبه بعض ما وجد في العراق القديم، والمكربين (جمع مكـــرب) اليمنييـــن يشـــبهون الملوك الكهنو السومريين. وقد استنتج هؤلاء العلماء من ذلك أن المعينييـــن مـــن أصل عراقي، على أن هذا التشابه الجزئي في الواقع لا يكفي لأن يتخـــذ دليـــلاً قاطعاً على أن أصل المعينيين من العراق، وقد يدل على العكس، أي قد يدل على أن ساميي العراق قد جاؤوا من اليمن أو ربما يدل على أن العراقيين واليمـــانيين قد جاءوا من أصل واحد أو من مكان واحد، وقد نذهب إلى أبعد من ذلك ونقـــول إن هذا التشابه في المظاهر الحضارية قد يكون دليلاً على وجود صـــلات بيـــن البلدين منذ أزمنة سحيقة في القديم أدت إلى هذا التشابه الحضاري.

ويعد المعينيون بحق أقدم الشعوب التي حملت لواء الحضارة في بلاد العرب الجنوبية، ويعتقد المستشرق فريتز هومل أن اللفظ الصحيح لاسمهم هو "معان" وليس "معين" وأن "معان" هو النطق القديم جداً للكلمة.

أدى توسع المعينين في الشمال إلى احتكاكهم بآشور وفينيقية ومصر، وكان حكام آشور بحكم إقامتهم بعيداً عن طريق التجارة الرئيسي يتفاوضون مع المقيمين المعينيين في هذه الواحات لا على أنهم يمثلون ملكاً معيناً وإنما على أساس أنهم الملوك الجنوبيين، وفي هذا تفسير للإشارات التي وردت في الوثائق السريانية والعبرية عن السبئيين والمعينيين، إذ تذكرهم هذه الوثائق على أن بلادهم تقع في الجنوب الشرقي للبحر الميت.

وقد استلزم اشتغال المعينين بالتجارة معرفتهم بتدوين الحسابات التجارية والكتابة، فاقتبسوا الأبجدية الفينيقية لسهولة استعمالها، ودونوا بها لغتهم، وقد عثر على كتابات معينية في مصر في الجيزة، وفي جزيرة ديلوس من جزر اليونان، ترجع إلى القرن الثاني قبل الميلاد وتشير هذه الكتابات إلى الصلات التي كانت تربط مصر واليونان بالدولة المعينية في اليمن، كما تشير إلى أن المعينيين حتى بعد سقوط دولتهم بزمن طويل ظلوا يحتفظون بكيانهم الاجتماعي، وتقاليدهم التجارية، كذلك عثر على نقوش معينية في أور والوركاء في العراق، ومن ملوك المعينيين "اليفع وقه" الذي عثر على اسمه في الخربة السوداء، وهي مدينة "نشان" في الكتابات المعينية، كما عثر على اسمه في نقش عثر عليه في براقش أو "يثيل" المعينية. وقد ذكر معه اسم ابنه "وقه ايل صدق" الذي خلفه في حكم اليمن. كذلك ورد اسم اليفع وقه مع اسم ابن له يدعى "أبو كرب يثع" في نقش عثر عليه في

ديدن "العلا". ومن ملوك معين أيضاً الملك "أب يدع يثع" الذي عثر على اسمه في خرائب معين نفسها[1].

ونستدل من الكتابات المعينية التي عثر عليها في الجوف اليمني وفي ديدن (العلا) على أن حكومة معين كانت حكومة ملكية، كما نستدل منها أيضاً على أن لقب ملك كان من الجائز أن يتلقب به اثنان في آن واحد من أبناء الملك أو من أشقائه. وكانت للمدن المعينية مجالس تدير شؤونها في السلم والحرب تعرف باسم "مسود" على النحو الذي كانت عليه "دار الندوة" في مكة قبل الإسلام. كذلك نستدل من النقوش المعينية على أن الضرائب كانت تنقسم إلى ثلاثة أنواع: ضرائب تعود جبايتها لخزانة الملك، وضرائب تؤول إلى المعابد، وضرائب إلى المشايخ والحكام. وضرائب المعابد نوعان: نوع يقال له "أكرب"، أي تقدمها القبائل تقرباً للآلهة، ونوع إجباري كان يفرض على الأفراد يقال له عشر[2].

وعلى الرغم من كل هذه البيانات المهمة فإن ما يؤسف له أن ما لدينا من معلومات لا يساعدنا على رسم صورة متكاملة لتاريخ هذا الشعب القديم ولمؤسساته الاجتماعية والسياسية والدينية، وما وصلنا من أخباره لا يكفي لمعرفة مكانته بين الشعوب العربية الجنوبية الأخرى، والعلماء مختلفون في تاريخ ظهور هذا الشعب على المسرح السياسي. ويلخص الدكتور فؤاد حسنين علي[3] في تعقيبه على ما كتبه نيلسن وهومل ورود وكناكس وجرمان هذه

---

(١) جواد علي ج١ ص٣٨٥-٣٩٣.

(٢) المصدر السابق: ج١ ص٤٠٥.

(٣) التاريخ العربي القديم، ص٢٦٩ وما بعدها.

الخلافات بين العلماء بقوله: "فمن العلماء أمثال كلازر وهومل وفيمر وفيلبي من يقول بقدم المعينيين والقتبانيين والحضارمة وأن تاريخ المعينيين يرجع إلى حوالي ١٢٠٠ق.م، فالمعينيون في رأي هذا النفر من العلماء أقدم من السبأيين بينما نجد أمثال موللر ومارتين هارتمان وغيرهما يقولون بالعكس، وهناك فريق ثالث من العلماء على رأسهم ك. ملاكر يذهب طريقا وسطا ويقرر أن القتبانيين والمعينيين جاؤوا مباشرة بعد سبأ وقد تم في فترة تبلغ نحو قرن.

ولو كان الخلاف بين العلماء يقف عند مكانة كل من معين وسبأ من الأخرى لهان الأمر، ولكن الخلاف استتبع خلافات أخرى حول الحقبة التي ظهرت فيها معين أو سبأ، ومن العسير حقا الآن أن يصدر مؤرخ رأيا قاطعا حول ملوك دولة ما من دول بلاد العرب الجنوبية والزمن الذي ملكوا فيه، ومن هنا أدركنا أن أسلم الوسائل لإعطاء صورة للقارئ عن ملوك تلك الممالك أن نضع تحت يديه الآراء المختلفة حتى تستكمل الدراسة الأثرية لبلاد العرب، وعندئذ فقط يصبح من اليسير على المؤرخ ترجيح رأي على آخر".

وحتى نوضح هذا الخلاف بين العلماء المحدثين ومداه يمكننا أن نذكر الآراء المختلفة والاجتهادات المتباينة التي قدمها العلماء في مجال تاريخ الأسرة المعينية، يعتقد فيلبي أنه تناوبت خمس أسر على عرش المملكة المعينية، وبين حكم الأسرة والأسرة الأخرى فترة مظلمة لا نعرف عنها شيئا، كما أن مدة حكم كل أسرة من هذه الأسرة الخمس غير معروفة ويقدرها فيلبي تقديرا، فهو يفترض أن مدة حكم كل ملك هي ٢٠ عاما وأن الفترة الفاصلة بين حكم كل أسرة والأسرة التي تليها هي ٢٠ عاما أيضا. ويعتقد هذا المؤرخ أن أول أسرة من الأسر قد بدأت حكمها سنة ١١٢٠ق.م، وقد تتابع على الحكم منها أربعة ملوك يبلغ مجموع ما حكموه ٨٠ عاما، وإذا أضفنا إلى هذه الثمانين عاما عشرين عاما

أخرى هي المدة الفاصلة بينها وبين الأسرة الثانية لكان المجموع ١٠٠ عام، ومن ثم جاءت الأسرة الثانية، وقد حكم منها ٩ ملوك بلغ مجموع مـدة حكمهم ١٥٠ عاماً، لأن فيهم ثلاثة أزواج كل زوج من أخين، وهكذا يكون بدء حكم الأسـرة الثانية في العام ١٠٢٠ق.م، وانتهاؤه في العام ٨٧٠ق.م، فإذا أخذنا بعين الاعتبار مدة العشرين عاماً وهي الفترة المظلمة التي يضعها فيلبي حداً فاصلاً بين حكـم الأسرة والأسرة التي تليها لكان بدء حكم الأسرة الثالثة سنة ٨٥٠ق.م وقد ملـك من هذه الأسرة الثالثة أربعة ملوك ابتداء من سنة ٨٥٠ق.م يكون بـهذا الشـكل وعلى أساس تقديرات فيلبي بدء حكم الأسرة الرابعة نحو سـنة ٧٥٠ق.م، وقـد حكم من هذه الأسرة ثلاثة أو أربعة ملوك، امتد حكمهم حسب تقدير هذا المـؤرخ حتى سنة ٦٧٠ق.م وهو تاريخ بدء حكم الأسرة الخامسة التي حكم منها ملكان أو ثلاثة، وهكذا يكون عدد ملوك المعينيين حوالي ٢٢ ملكـاً حكمـوا مـن سـنة ١١٢٠ق.م وحتى ٦٣٠ق.م أو ما بعدها بقليل.

ويوافق فيلبي على هذا الرأي علماء آخرون من أمثال هومـل وغـيره، ويخالفه فيه آخرون أمثال البرايت الذي نشر في (مجلـة المـدارس الأمريكيـة للأبحاث الشرقية- العدد ١١٩) بحثاً حول تاريخ بلاد العرب الجنوبية بناه علـى أساس النتائج الأولى لأعمال الحفر التي قامت بها البعثة الأمريكية الأولـى فـي قتبان. ويحدد البرابت في بحثه هذا مدة حكم الملوك المعينين بين سـنتي (٤٠٠- ١٠٠)ق.م. أما العالم ملاكر فيرى أن حكم معين يمتد بين القرنين الثامن والثـالث قبل الميلاد.

وهكذا نجد الخلافات الكبيرة بين العلماء حول موضوع أساسـي كـهذا الموضوع، ومما يؤسف له أننا لا نملك أية وسيلة لترجيح رأي علـى رأي لأن المعلومات لم تستكمل وكل يجد ما يبرر به رأيه، وغير خافٍ أن هـذا الخـلاف

حول تاريخ حكم معين يؤثر بالتالي على تاريخ حكم الدول الجنوبية الأخـرى لأن تاريخ حكم كل دولة مرتبط بتاريخ الدولة التي سبقتها، ولأن تاريخ الدولة اللاحقـة لا يمكن أن يحدد ما لم يحدد تاريخ الدولة التي سبقتها.

وهناك قضية أخرى ترتبط بتاريخ دولة معين وهي قضيـة الحكـم فـي حضرموت، وما إذا كانت حضرموت مستقلة لها أسرة حاكمة خاصة بها أم أنـها كانت تتبع معين، والواقع أن بين المؤرخين من يعتقد أن حضرموت كانت تابعـة في حقبة من تاريخها لحكم المعينيين بدليل أن بعض الملـوك المعينييـن كـانوا يتلقبون بلقب ملوك حضرموت إلى جانب معين.

ولكن إلى جانب هذه الحقيقة نجد أن بعض النصوص تنص على انتقـال حضرموت إلى تبعية سبأ وقتبان أو بشكل أوضح تختفي حضرموت من التـاريخ المعيني وتستقل أو تدخل في تبعية سبأ، ويبدو أن حضرموت ظلت تتبع غيرهـا من الدول التي قامت حتى سنة ٢٠٠ق.م إذ أن النقوش المتوافـرة حتـى الآن لا تشير إلى أي ملك حضرمي جلس على العرش قبل هذه السنة ٢٠٠ق.م. ويبـدو هذا معقولاً لأن سبأ التي يمكن أن تكون هي الدولة التـي تولـت الحكـم فـي حضرموت بعد معين كانت منذ القرن الثالث قبل الميلاد قد بـدأت تـدب فيـها عوامل الانحلال والتدهور، وكان لابد لحضرموت من أن تهتم بإنعاش نفسها فـي هذه الحقبة حتى تستطيع الهيمنة على الطرق التجارية التي تمر منها أو التي ينقـل عليها البخور.

ويعتقد بعض المؤرخين أن أول أسرة ملكية حضرمية جاءت إلى الحكـم سنة ٢٠٠ق.م واستمرت في أشغال العرش حتى سنة ١٠٠ق.م، وأما المـدة مـا بين ١٠٠ق.م و٢٩م التي يطلق المؤرخون عليها اسم فترة شبوة فقد شغل العرش

فيها أسر أخرى وكان في أثناءها طريق تجارة البخور الممتد بين قنا وشبوة تحت سيطرة ملوك حضرموت.

وهناك إلى جانب قضية حضرموت قضية أخرى هي قضية "قتبان" هذه المملكة الجنوبية التي لاشك أنها كانت موجودة في يوم من الأيام، ولكن متى؟ ومن أهم ملوكها هذان أمران ما يزال العلماء في خلاف حولهما، وهناك نفر من الباحثين يعتقد أن قتبان كانت معاصرة لمعين أو سبأ أو لمعين وسبأ معاً.

والتاريخ القتباني الذي يستطيع المؤرخ الاعتماد عليه والأخذ به يعود إلى القرنين الحادي عشر أو العاشر قبل الميلاد، إذ جاءتنا من هذه الحقبة نقوش تثبت أن قتبات في هذه الفترة كانت تعيش مرحلة انتقال في تاريخها إذ جاء بعدها عصر المكربين الذين حكموا قتبان عدة قرون، وقد وصلتنا أسماء عدد منهم حكموا البلاد فيما بين الفترة الواقعة على حكم قتبان ثلاث أسر ملكية ابتدأ حكم أولها في القرن الخامس قبل الميلاد واستمرت حتى سنة ٣٥٠ق.م. ومن (٣٥٠-٢٥٠ق.م) حكمت الأسرة الثانية وكان آخر ملوكها "شهر هلال يوهنعم" الذي أقام السلة التي عثر عليها في مدينة تمنع وبوفاته انتهت الأسرة القتبانية الثانية، وتناوب العرش القتباني بعدها عدد من الملوك لم يستطع المؤرخون أن يعرفوا أسماءهم أو يحددوا تواريخ حكمهم، واستمر الحال كذلك حتى سنة ١٠٠ق.م حيث اعتلت الأسرة القتبانية الثالثة العرش، واستمرت في الحكم حتى سنة ٢٥ق.م، وبانتهاء الأسرة الثالثة جلس على عرش البلاد عدد من الملوك ظلوا يتناوبون الحكم حتى زال استقلال البلاد وخضعت لسبأ، ويبدو أنه قبيل بداية القرون الميلادية غزا شعب غير معروف عاصمة قتبان "تمنع" وأحرقها، كما ظهرت مملكة جديدة في اليمن عرفت باسم مملكة سبأ وذي ريدان وأصبحت

تملك من القوة ما استطاعت به أن تستولي على غيرها من الممالك الموجودة على الأرض اليمنية.

ولم تكن مملكة "سبأ وذو ريدان" الوريثة الوحيدة لدولة قتبان بل شاركها في الغنيمة دولة أخرى هي دولة حضرموت التي ضمت إلى أرضها جزءاً من أرض قتبان القديمة. وليس يعني هذا أن قتبان قد فقدت سلطانها ووجودها نهائياً بقيام مملكة سبأ وذي ريدان، بل يبدو أن ملوكاً قتبانيين استطاعوا المحافظة على الجزء الغربي من قتبان واتخذوا مدينة "حريب" عاصمة لهم، وذلك بعد أن استولى الحضارمة على الجزء الشرقي من البلاد وخربوا العاصمة "تمنع" في أواخر القرون السابقة للميلاد أو أوائل القرون الميلادية[1].

اشتغل المعينيون بالزراعة والتجارة، وكان بعضهم بدواً يرعون الماشية ويعيشون حياة تنقل وترحال، وكان مجتمعاً معيناً مؤلفاً من عدة طبقات فيه الأرستقراطيون والعبيد وبين الطبقتين طبقات أخرى، وهم بوجه عام متدينون يعيرون الدين أهمية كبيرة وللمرأة بينهم مكانة محترمة ومقام رفيع.

وقد كان المعينيون يتكلون لغة السبئين نفسها مع اختلاف في اللهجة، وكانوا يستعملون الحروف في كتاباتهم، وهناك من يعتقد بأنهم أول من اخترع الألفباء وأنها انتقلت من عندهم إلى سيناء وبلاد الفينيقيين ومنها إلى اليونان.

---

(١) أنظر، جواد علي، المفصل ج٢ ص١٧٣، وما بعدها و نبيه عاقل: تاريخ العرب القديم وعصر الرسول ص٨٢ وما بعدها.

## المبحث الثاني

# الدور السبئي (الدولة السبئية) ٨٠٠ق.م - ١١٥ق.م

ورد اسم سبأ في التوراة[1] بأنها بلاد تنتج الطيوب واللبان، والأحجار الكريمة ومعدن الذهب وأن ملكة سبأ زارت سليمان في أورشليم، وحملت إليه الطيوب والذهب الكثير والأحجار الكريمة، كما جاء ذكر ملكة سبأ في القرآن الكريم في سورة النمل[2].

لا تذكر المصادر التاريخية شيئاً واضحاً عن أصل السبئيين، لذلك اختلف المؤرخون في أصلهم، فبينما تذكر الروايات العربية أن سبأ من ولد يشجب بن يعرب بن قحطان وتسميه بعبد شمس، وتفسر تسميته بسبأ بأنه كان يسبي الذراري والأطفال، وأنه أكثر من الغزو في أقطار البلاد وسبأ خلقاً كثيراً وهو أول من سن السبي عند العرب، نجد أن سبأ ورد في التوراة باعتباره من كوشن ابن حام مرة، ومن ولد يقطان مرة ثانية، وأغلب الظن أن السبئين كانوا في الأصل شعباً بدوياً يتنقل بين شمال شبه الجزيرة العربية وجنوبها، ثم استقر هذا الشعب في بلاد اليمن فيما يقرب من عام ٨٠٠ق.م نتيجة لضغط الآشوريين عليهم من الشمال، واستغل السبئيون ضعف المعينيين فأخذوا يوسعون منطقة نفوذهم على حساب دولة معين، فلما قوي أمر السبئيين قضوا على الدولة المعينية، وأقاموا دولتهم على أنقاضها، وورثوا لغتها وديانتها وتقاليد شعبها،

---

(١) الكتاب المقدسي، سفر ارمياء ٦:٢٠، سفر حزقيال ٢٧:٣٣، ٣٤. سفر الملوك، ١٠:١،٢.

(٢) الآية: ٢٢-٤٤.

وخلفوهم في الاشتغال بنقل التجارة بين الهند والحبشة ومصر والشام والعراق، حتى أصبحوا في القرون الأولى قبل الميلاد أعظم وسطاء للتجارة بين الحبشة والهند وبين الشام ومصر، ويرى بعضهم أن السبئيين كانوا يستوطنون الجوف، غير أنهم تركوا مواطنهم وارتحلوا إلى جنوب الجزيرة العربية في القرن الثامن قبل الميلاد، واتخذوا صرواح ثم مأرب عاصمة لهم، ويعتقد أنهم كانوا في الأصل يقيمون في المواضع التي أطلق عليها الآشوريون اسم "عربي" أو "أريبي" ووردت في التوراة باسم "يارب" أو "يعرب"، فلما استقروا في اليمن أسسوا عاصمتهم مأرب التي سميت كذلك نسبة إلى اسم موطنهم الأصلي "أريبي" أو "يارب". وتؤكد النقوش السبئية أن أول مكارب سبأ أو رؤسائها المقدسين والمؤسس الأول لدولة سبأ هو "سمه علي" أو "سمح علي" (حوالي ٨٠٠-٧٨٠ق.م).

ازدهرت دولة سبأ نتيجة احتراف شعبها الزراعة، فضلاً عن سيطرتهم على الطريق التجاري البري الذي يربط الجنوب بالشمال، وأصبح لدولة سبأ نفوذ واسع يمتد من اليمن جنوباً إلى نجد والحجاز شمالاً، وأصبحت أيضاً تسيطر على طريق التجارة العالمية الذي يربط جنوب شبه الجزيرة بسورية ومصر، وكانت حكومة سبأ تبعث حكاماً يقيمون في الواحات الشمالية التي تقع على هذا الطريق التجاري، إلى جانب حاميات عسكرية، لتضمن بقاء هذه المحطات التجارية في دائرة النفوذ السبئي، وكانت واحة ديدن "العلا" المركز الرئيسي الذي تمارس فيه سبأ نفوذها على شمال بلاد العرب.

يمكن تقسيم حكم دولة سبأ في اليمن إلى مرحلتين تاريخيتين وذلك حسب الأسماء التي كانت تطلق على الملوك السبئيين، ففي المرحلة الأولى كانوا

يطلقون على رؤسائهم لقب "مكرب" وهي كلمة دينية تعني "المقدس"، وفي مرحلة لاحقة أصبح رؤساؤهم يتلقبون بـ "ملوك سبأ".

## مرحلة المكارب:

ذكرنا أن مؤسس دولة سبأ هو "سمح علي" وكان أول المكارب، وقد وصلنا من عصر هذا المكرب نقش نتبين منه أنه كان يقدم البخور والمر هدية لإله المقه الذي أرشد القبيلة بعد تجوالها إلى "أرض فيها اللبن والعسل". وقد خلفه ابنه "يدع ايل ذريح" (فيما يقرب من سنة ٧٨٠ق.م) الذي أسس معبداً للإله المقه في صرواح، كما أقام معبداً آخر للإله المقه في مأدب.

وخلف "يدع إيل ذريح" ابنه "يثع مروتر) الذي ينسبون إليه بناء معبد للإله المقه في بلدة دابر الواقعة بين مأرب ومعين في الجوف، ونستدل من الموضع الذي أقيم فيه هذا المعبد على أن السبئيين اصطدموا بالمعينيين، وقام "يدع إيل بين" بن "يثع مروتر" وخليفته من بعده بتحصين أبراج مدينة نشق المعينية.

واهتم مكارب سبأ منذ بداية القرن السابع قبل الميلاد بالإصلاحات الزراعية، فقد وزع "كرب إيل بين" الأراضي الواقعة حول نشق للفلاحين لاستصلاحها واستغلالها زراعياً، ونهج ابنه "ذمر علي ذريح" السبيل نفسه، وينسب إلى "سمح علي ينف" بن "دمر علي" تنفيذ أعظم مشروع للري عرفته بلاد العرب في العصر القديم، وهو إنشاء سد على فم وادي ذنه بمأرب يعرف باسم سد رحب سنة ٦٥٠ق.م، وذلك لحجز مياه السيول والأمطار، والإفادة منها في ري مساحات كبيرة من الأراضي، وقد ساعد هذا السد على تنظيم ري

المناطق المجاورة للسد طوال العام، ولكنه لم يكن يفي بجميع حاجات الأراضي الزراعية، لذلك عمد "يثع مربين" بن "سمح علي ينف" إلى زيادة رحب طولاً وعرضاً وارتفاعاً، وأقام سداً أعظم منه يعرف بسد "حبابض". وبذلك نجح "يثع مربين" في مد الرقعة الزراعية بمأرب وزيادة ثروات البلاد، وكان لهذين السدين بمأرب أعظم الأثر في تحويل مأرب إلى جنتين عن يمين وعن شمال.

أقيم سد مأرب المعروف على فم وادي "ذنه" حيث تتجمع معظم مياه السيول عقب هطول الأمطار، ويبلغ طوله نحو ٨٠٠ ذراعاً، وقد بني بالحجارة والتراب، وينتهي أعلاه بسطحين مائلين على شكل زاوية منفرجة تكسوها طبقة من الحصى تمنع انجراف التراب عند تدفق المياه، ويتركز السد على جبلين، ويتفرع منه عند كل من طرفيه قنوات تعرف بالميزاب، لها فتحات تترك مفتوحة لري سطح الجبلين، ثم تغلق بعد ذلك، وقد أصلح هذا السد ورمم في العصور التالية أكثر من مرة.

وقد أضيف إلى السد إضافات متعددة حتى اتخذ شكله النهائي على عهد "شمر يهرعش" حوالي سنة ٣٠٠ق.م، وقد أدى اضطراب الأحوال في أوار عهد الحميريين إلى إهماله وحدوث تصدع فيه، وقد حاول إبرهه إصلاحه ولكنه تخرب فيما بعد فأغرق الأراضي وأثر على الزراعة، وللعرب روايات متعددة حول خراب السد تميل إلى الخرافة ويعزون إلى هذا الخراب هجرات الغساسنة والمناذرة والأزد، وليس من شك أنهم مغالون في هذا إذ أن تخريبه أدى إلى تدمير الزراعة في المنطقة المزروعة حول مأرب فقط.

آخر مكارب اليمن و "رب إيل وتر" الذي اعتمد سياسة التوسع العسكري، وأهمل الإعمار، فهاجم الدولة المعينية وقضى عليها، وانتصر على

القتبانيين الذين كانوا يسكنون في الطرف الجنوبي الغربي من بلاد اليمن على تخوم حضرموت وجنوب مناطق نفوذ السبئين، وقد سجل "كرب إيل وتر" هذه الانتصارات على جدران معبد صرواح قرباناً لآلهة سبأ "المقة وعثتر"، ثم نبذ هذا المكرب لقبه وتلقب بملك سبأ، وأصبح بذلك أول حكام سبأ الذين تلقبوا بلقب "ملوك سبأ".

## مرحلة ملوك سبأ:

في هذه المرحلة ازدهرت دولة سبأ وأصبح لديها أسطول تجاري كبير ينقل البخور والطيوب إلى مصر، والحرير والتوابل من الهند، وكان من الطبيعي أن يتفوق السبئيون في الملاحة إذ أن بلادهم كانت تضم سواحل بعضها على بحر القلزم (الأحمر)، وبعضها الآخر على بحر الهند، وكانت أهم مرافئها عدن، وكان السبئيون يعتمدون في الملاحة في المحيط الهندي والبحر العربي على حركة الرياح الموسمية ويسيرون سفنهم حسب أوقات حركتها التي تتبدل حسب المواسم تبدلاً تاماً، وقد احتفظوا لأنفسهم بمواعيد هذه الرياح واعتبروا ذلك سراً لا يطلعون عليه أحداً، مما ساعدهم على احتكار التجارة مع الهند، هذه التجارة التي كانت تدر عليهم أرباحاً طائلة.

وفي عهد ملوك سبأ، وابتداء من سنة ٥٠٠ق.م بدأت تظهر أسرات قوية قامت بدور خطير في سياسة بلاد العرب الجنوبية، من بينها أسرة همدانية تمكنت من اغتصاب العرش من ملوك سبأ، كما ظهرت آلهة جديدة لم نسمع عنها من قبل مثل "ذو السماء" أو "ذو سماوي" أو "رب سماوي"، وهي أسماء تعكس تطوراً

خطيراً في حكومة سبأ، وتغيراً مهماً في السياسة وفي الدين وفي النظم الاجتماعية[1].

أخذ مركز ملوك سبأ يضع منذ أن عمل البطالمة في مصر على احتكار التجارة الشرقية، ولاقى ملوك سبأ منذ سنة ٣٥٠ق.م كثيراً من المتاعب التي أثارها الهمدانيون وغيرهم من القبائل الأخرى الطامعة في الحكم.

كانت سياسة ملوك سبأ تهدف إلى توحيد الإمارات ودمجها في كيان المملكة، غير أن هذه السياسة اصطدمت سريعاً بالمصالح الإقطاعية التي رفضت التنازل عن استقلاليتها، ونتج عن ذلك قيام اضطرابات عنيفة وثورات داخلية أضرت بالوضع الاقتصادي والسياسي لمملكة سبأ، ووقعت فريسة للتدخل الخارجي في شؤونها، وفقدت سيطرتها على تجارة البحر الأحمر وسواحل أفريقيا، وبالتالي انتقلت التجارة البحرية من أيديهم إلى اليونان والرومان.

وفي العصر الأخير من هذه المرحلة قام نزاع خطير على العرش السبئي كان له أعظم الأثر فيما أصاب البلاد من خراب ودمار، نتج عنه تحول الكثير من الأراضي الزراعية إلى صحراوات، استفاد الحميريون من هذه الأوضاع المضطربة ونجحوا في انتزاع العرش السبئي، وأسسوا في سنة ١١٥ق.م أسرة جديدة لقب ملوكها بلقب "ملوك سبأ وذي ريدان".

---

(١) جواد علي ج٢ ص٤٨١.

# المبحث الثالث

# الدور الحميري "الدولة الحميرية" (١١٥ق.م - ٢٥٢م)

**ينقسم هذا الدور إلى عصرين:**

## أولاً: عصر الدولة الحميرية الأولى (ملوك سبأ وذي ريدان) (١١٥ق.م-٣٠٠م)

أول ذكر للحميريين في آثار اليمن يعود لسنة ١١٥ق.م حيث تذكر النقوش أسماء الملوك وقد حملت لقباً جديداً وهو "ملك سبأ وذو ريدان"، وريدان هي التي عرفت فيما بعد باسم "ظفار" عاصمة الحميريين، وهي تقع على بعد مائة ميل من مخا، (وهي غير "ظفار" المدينة البرية التي كانت هي العاصمة). في هذه المنطقة البحرية ظهرت دولة حمير الأولى وامتد تاريخها سنة ٣٠٠م.

لقد وردت أول إشارة للحميريين في المصادر اللاتينية في كتاب "الطواف حول البحر الآرتيري" ومن ثم في كتابات بلينوس، والصلة بين سبأ وحمير متينة جداً غير أنه كان للحميريين منذ أيام السبئيين كيان سياسي متميز ويسكنون المنطقة الساحلية، وقد ساعدهم موقعهم الساحل على أن يقوموا بدور تجاري هام، وكانت الزراعة مزدهرة عندهم وتعتمد على ري الآبار والسدود والأحواض، وكانت بعض مناطق نفوذهم غنية بالذهب ولا سيما في عسير، على أن اللبان كان أهم منتوجاتهم وهو يشكل مادة أساسية من مواد التجارة.

وفي عصر هذه الدولة حدثت الحملة الرومانية المعروفة بحملة "اليوس جالوس" حاكم مصر الرومانية في سنة ٢٥ق.م للاستيلاء على اليمن بغية السيطرة على طرق التجارة التي كان يحتكرها ملوك سبأ، واستغلال ثروات

اليمن، فضلاً عن تطهير البحر الأحمر من القراصنة، واعتمد آليوس جالوس في حملته على مساعدة الأنباط في عهد ملكهم عبادة الثاني، الذي وعد الرومان بتقديم كافة المساعدات، كما وضع وزيره صالح "سايليوس" تحت تصرفهم ليكون دليلاً لهم في بلاد العرب، ويذكر "سترابو" أن الحملة خرجت من ميناء "لويكة كومة" ميناء الأنباط المعتقد أنها "الحوراء"، وسلكت الطريق البري عبر الحجاز، ووصلت إلى "مارسيابا" مارة بنجران ونشق، وبعد ستة أشهر تعرض الجند خلالها لأمراض وأوبئة، فضلاً عن متاعب لا حصر لها بسبب وعورة الطرق، وقد لقيت الحملة مقاومة شديدة اضطر معها "اليوس جالوس" أن يقفل راجعاً بعد أن حاصر مدينة مأرب ستة أيام، وقد لاقى جيشه في عودته الكثير من المصاعب والأهوال وفتك به المرض والعطش، ويدعي الرومان أن سبب فشلهم يرجع إلى عوامل المناخ، والواقع أن مقاومة اليمنيين هي السبب الرئيسي لعدم نجاحهم في إخضاع البلاد، وهكذا نجت اليمن من الهيمنة الرومانية.

تذكر الأخبار أن أحد ملوك هذه الدولة واسمه "ليشرح بن يحصب" هو الذي بنى أفخم قصور اليمن، وهذا القصر هو "قصر غمدان" في صنعاء، ويقول الهمداني وياقوت في وصف هذا القصر: أنه كان مؤلفا من عشرين طبقة مسقوفة بعضها فوق بعض وبين كل سقفين عشرة أذرع، وكان البناء من الجرانيت والمرمر والبورفير، وكان مجلس صاحب القصر في الطبقة العليا التي كان سقفها عبارة عن رخامة واحدة شفافة، فكان صاحب القصر يستلقي على فراشه في الغرفة فيمر به الطائر فيعرف أغراب أم حدأة أم غير ذلك، وكان للقصر أربعة أوجه، منها وجه مبني بحجارة بيضاء ووجه بحجارة حمراء، وقد بقي هذا

البناء حتى بعد ظهور الإسلام، وربما هدم في أثناء الحروب التي جرت في اليمن في عصر صدر الإسلام.

نظام الحكم في هذه الدولة كان ملكياً، والملك مستبد وحكمه عبارة عن خليط غريب من النظام القلبي القديم ونظام الطبقات والأرستقراطية والملكية الإقطاعية، وقبيل نهاية الدور الحميري الأول بدأت قوة عرب الجنوب تضعف، وكان ذلك نتيجة مزاحمة الرومان لهم في نقل التجارة بالطريق البحري مزاحمة شديدة، وبسبب عدم تركيز جهودهم على الطريق البرية التي كان بإمكانهم احتكارها لكثرة ما عليها من محطات حميرية، ولكنهم أهملوا الاهتمام بالطرق البرية فضعفوا وتضاءلت أهميتهم التجارية. وهذا الطريق البري بمحطاته المتعددة هو الذي أشار إليه القرآن الكريم في سورة سبأ في قوله تعالى: ﴿وجعلنا بينهم وبين القرى التي باركنا فيها قرى ظاهرة وقدرنا فيها السير سيروا فيها ليالي وأياماً آمنين، فقالوا ربنا باعد بين أسفارنا وظلموا أنفسهم فجعلناهم أحاديث ومزقناهم كل ممزق، إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور﴾[1].

## ثانياً: عصر الدولة الحميرية الثانية (ملوك سبأ وذي ريدان وحضرموت ويمنات) "٣٠٠م -٥٢٥م"

بحدود سنة ٣٠٠م تمكنت دول حمير من استعادة قوتها ثانية وضمت إليها القبائل المجاورة وأخضعت حضرموت وسائر بلاد اليمن وأصبح لقب ملوكها "ملك سبأ وذو ريدان وحضرموت ويمنات" ثم أضيف إلى هذا اللقب قسم آخر: "وعربهم في الجبال وفي التهامة"، ويفهم من هذا أن الدولة الحميرية الثانية

---

(١) سورة سبأ: ١٨-١٩.

أصبحت ذات حدود متسعة وتخضع بلاد كثيرة لسلطانها، وقد عرف العرب هذه الدولة الثانية باسم دولة التبابعة.

حديث المؤرخين عن ملوك هذه الدولة أقرب إلى الخرافة، فقيل أن مؤسس هذه الدولة "شمر يهرعش" المعروف عند الإخباريين بشمر يهرعش بن ناشر النعم (٢٧٠-٣١٠م) وهو "عندهم" تبع الأكبر، الذي جاء في القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿أهم خير أم قوم تبع والذين من قبلهم أهلكناهم إنهم كانوا مجرمين﴾[١]، وذكروا أنه زحف بجيوشه إلى أرمينيا، وهزم الترك، وهدم المدائن بدينور وسنجار، قيل إنه عندما افتتح سمرقند هدمها ثم أمر ببنائها، وذكروا أيضاً أنه بسط نفوذه على الهند وغلب على أرض الصين وأخضع فارس وخراسان والشام ومصر[٢].

في عصر هذه الدولة بدأت الديانة المسيحية واليهودية تتسرب إلى اليمن وتحل محل الديانة الوثنية التي كانت تدور حول عبادة النجوم والكواكب والشمس، وكان انتشار المسيحية تدريجياً وقد قام بالدعاية لها المبشرون المسيحيون وخاصة اليعاقبة اتباع مذهب الطبيعة الواحدة الذين جاؤوا من الحبشة وأنشأوا لهم كنائس في عدن وظفار ونجران، ومن الجائز أن إرساليات مسيحية نسطورية من الحيرة وسورية أيضاً قامت بالدعاية للديانة المسيحية، وكسبت المسيحية بعض الأتباع في اليمن، وقد انتشرت اليهودية أيضاً في الجزيرة في عهد الدولة الحميرية الثانية، ويبدو أنها دخلت شمال الجزيرة قبل هذا العهد.

---

(١) سورة الدخان: ٣٧.

(٢) أنظر عبيد بن شريه ص٢٢٧-٢٣٦، وجواد علي ج٢ ص٥٥٠.

## ثالثاً: الاحتلال الحبشي والفارسي لليمن

في سنة ٣٤٠م هاجم الأحباش اليمن واستولوا عليها فوجدت المسيحية فيهم سنداً قوياً، غير أن الحكم الحبشي لم يتح له أن يعيش طويلاً لأن رجال الدين المتعصبين لوثنيتهم تعاونوا مع أهل البلاد اليمنيين على مقاومة الأحباش النصارى واستطاعوا إخراجهم سنة ٣٧٨م، وعادت الوثنية تتربع المكانة الأولى، وكانت أهداف هذه الحملة الحبشية الأولى على اليمن انتزاع السيادة التجارية من اليمنيين ونشر الدين المسيحي، وقد مهدت هذه الحملة السبيل أمام الأحباش للقيام بغزوات لاحقة.

تأثرت الديانة المسيحية سلباً بخروج الأحباش من اليمن، من جانب آخر فإن ملوك الدولة الحميرية الذين لجأوا إلى يثرب في الحجاز إبان الاحتلال الحبشي لبلادهم، تأثروا بالديانة اليهودية التي كانت منتشرة هناك في ذلك الوقت، غير أنه ليس هناك من دليل على أن الملوك الحميريين قد اعتنقوا اليهودية، وقد ورد في أحد النقوش أن ملك كرب الذي طرد اليهود كان يعبد "ذي سماوي بعل السماوات والأرض" مما قد يستنتج منه أن اليمنيين في هذه الحقبة كانوا يؤمنون بإله عظيم هو "ذي سماوي" رب السماوات والأرض، إلا أنهم لم يتركوا آلهتهم الأخرى كما أنهم لم يدينوا باليهودية التي تسمي إلهها "يهوة" لا "بعل" كما ورد في النقش.

خلف "ملك كرب" ابنه "أبو كرب أسعد" الذي يسميه المؤرخون العرب "أسعد كامل تبع" وينسبون إليه فتوحات واسعة وصلت حتى تركستان، وأخبار أخرى هي أقرب إلى الخرافة والأساطير منها إلى الحقيقة، ولا وجود لها في تواري الشعوب الأخرى المعاصرة له، ولكنها، من دون شك، تشير إلى قوة

الدولة الحميرية في هذه الحقبة، ويبدو أن أبو كرب قد فرض نوعاً من السيادة على يثرب، وربما كان يتعاون مع اليهود من سكانها ضد الأحباش والنصارى.

وخلف "أبو كرب أسعد" أخوه "وروامر أيمن" فيما يقرب من سنة ٤١٥م، ثم انتقل الحكم من بعده إلى أخيه "شرحبيل يعفر" سنة ٤٢٠م، وفي عهده تم ترميم سد مأرب في سنة ٤٤٩م، ويبدو أن هذه الترميمات لم تجد نفعاً، فقد تهدم السد بعد ترميمه بعام واحد في سنة (٤٥٠-٤٥١م)، وأدى ذلك إلى فرار جماعات كبيرة من سكان هذه المنطقة إلى الجبال، فقام الملك شرحبيل من جديد ببناء السد، وتم ذلك في سنة ٤٥١م، وسجل الملك شرحبيل هذه الأعمال في نقش طويل تضمن فيما تضمنه عبارة لا تدل على انتشار عقيدة التوحيد في اليمن في زمن شرحبيل نصها: "بنصر وردا ألهن بعل سمين وأرضن" أي: بنصر وبعون الإله سيد السماء والأرض، وهي تعبير لا يتفق مع الديانتين المسيحية واليهودية[1].

ثم تعاقب على حكم اليمن -بعد شرحبيل يعفر- ملوك ليس لهم أعمال هامة حتى جاء ذو نؤاس الذي كان شديد التعصب على المسيحية وأراد اجتثاثها من اليمن، فطلب من النصارى ترك دينهم ولما رفضوا أحرقهم في إخدود حفره لهم، وقد ذكرهم الله تعالى في القرآن الكريم في سورة البروج، إذ يقول الله تعالى: ﴿قتل أصحاب الأخدود، النار ذات الوقود، إذ هم عليها قعود، وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود﴾[2].

---

(١) جواد علي ج٢ ص٥٤٠.

(٢) سورة البروج: ٤-٨.

أعتقد الكثير من المؤرخين أن سبب اضطهاد "ذي نؤاس" للنصرانية هو تعصبه الديني إذ أنه كان يدين باليهودية وهو متعصب لها، وقد يكون هذا التعصب أحد أهم الأسباب التي دعت ذا نؤاس لفعل ما فعل، والحقيقة أنه كانت أسباباً ودوافع سياسية وراء هذا الاضطهاد، منها أن المسيحية في الشرق كانت تحت حماية الدولة البيزنطية -كما تدعي هذه الدولة نفسها-، وكان تحول ملوك الحبشة إلى النصرانية سبباً في تحالف البيزنطيين مع الأحباش، وأن انتشار المسيحية في اليمن يعني ازدياد نفوذ هاتين الدولتين في اليمن، وهو ما لا يرضي اليمنيين، بينما لم يكن يرافق انتشار الديانة اليهودية أي خطر سياسي لأنه لم تكن هناك دولة تحمي اليهود، بل يقال أن اليهود هم الذين حرضوا ذا نؤاس على اضطهاد النصارى لأن أبناء دينهم في بيزنطة كانوا يعاملون معاملة سيئة إلى أبعد الحدود، وعلى الرغم من قسوة ذي نؤاس على النصارى فلا يعرف أنه قسى على الوثنيين اليمنيين، بل ظلت الوثنية قائمة في اليمن حتى ظهور الإسلام، مما قد يستدل منه أيضاً أن قسوته على النصارى لم تكن بدافع العصبية اليهودية، بل بدوافع وطنية، لأن الوثنية أحرى بنعمة اليهودي المتدين من النصرانية.

كتب ملك الحبشية إلى قيصر الروم البيزنطيين يعلمه بما فعله ذو نؤاس من قتل للنصارى ويستأذنه في مهاجمة اليمن، فكتب إليه يأمره بالمسير إليها، فجهز جيشاً بقيادة "أرياط" تمكن من دخول اليمن والانتصار على ذي نؤاس والسيطرة على اليمن، وخضعت اليمن لحكم الأحباش المباشر[1].

---

(١) الدنيوري الأخبار الطوال ص٦٢.

بعد مدة من الزمن وفي إطار الصراع الحبشي على السلطة تغلب "أبرهه الأشرم" على أرياط –الذي حكم اليمن لمدة عشرين عاماً– وتولى أبرهه حكم اليمن، وازداد نفوذه واضطهد أهل اليمن، وبنى كنيسة في صنعاء سماها "القليس". وتذكر إحدى الروايات أن أحد العرب حاول الاعتداء على الكنيسة وتدنيسها مما أغضب أبرهة الأشرم فاتخذ ذلك ذريعة للهجوم على مكة وهدم الكعبة، فأعد جيشاً ضخماً وذلك سنة ٥٧٠م، مستخدماً الفيلة، ولكن لم يكتب لهذه الحملة النجاح ومات أبرهة، وقد أشار القرآن الكريم إلى هذه الحادثة في "سورة الفيل".

لما طال البلاء على أهل من الاحتلال الحبشي ظهر زعيم وطني من حمير يقال له: "سيف بن ذي يزن" الذي عزم على تخليص بلاده من الأحباش، وحاول في البداية الاستعانة بملوك بيزنطة، إلا أن طلبه رفض للصلات القوية التي تربط الأحباش بالروم البيزنطيين، الأمر الذي دفع "سيف بن ذي يزن" إلى البحث عن حلفاء آخرين أقويا، فلم يكن في الساحة الدولية آنذاك غير ملوك الفرس الساسانيين، فتوجه إلى الاستعانة بكسرى ملك الفرس الذي أمده بقوة عسكرية أبحرت من الخليج العربي ونزلت جنوب اليمن، واستطاعت أن تطرد الأحباش منها، وبذلك تحررت اليمن من حكم الأحباش، وقامت في البلاد حكومة مشتركة من أهل اليمن والفرس، تولى رئاستها سيف بن ذي يزن، وقد ظلت القوى الساسانية في اليمن وكان مركزها صنعاء.

قتل سيف بن ذي يزن فتولى الحاكم الساساني أمر إدارة اليمن يساعده في ذلك أفراد من القوة الساسانية، وحدثت في هذه الحقبة أزمات واضطرابات في الدولة الساسانية جعلت مركز هذا الحكم ضعيفاً فقوي نفوذ القبائل والأمراء

المحليين وثاروا على الحاكم الساساني وحصروا سلطته في صنعاء وما جاورهـا فقط(١).

استمر الوجود الساساني في بلاد اليمن، وكان آخر حكامهم فيه "بـــادان" الذي عاصر الرسول محمد ﷺ ثم دخل الإسلام ومعه أهل اليمن.

---

(١) جواد علي ج٢ ص٥٦٠.

# الفصل الثالث

# ممالك شمال الجزيرة العربية

## ((تخوم الشام والعراق))

**المبحث الأول: الأنباط**

**المبحث الثاني: التدمريون**

**المبحث الثالث: الغساسنة**

**المبحث الرابع: المناذرة**

# مقدمة

لم تكن الحضارة العربية قبل الإسلام قائمة في جنوب الجزيرة العربية فقط، بل كانت هناك حضارات أخرى نهضت بها ممالك ودويلات أقامها العرب في شمال شبه الجزيرة العربية، على تخوم العراق وبلاد الشام، وكان للنشاط التجاري الأثر الأول في قيام تلك الحضارات الشمالية وازدهارها.

لقد استمدت هذه الدول قوتها من البحارة باعتبار أن موقعها الجغرافي سهل لها الاتصال بأقوام غرب آسيا وشرقي البحر الأبيض المتوسط، وقد كان الهلال الخصيب منذ أقدم العصور التاريخية مركزا من مراكز الحضارة، فموقعه وخصوبة أرضه ساعدا على ازدهار زراعته وتكاثر سكانه وإقامة حكومات مستقرة ذات حضارة فيه، وعلى الرغم من غنى أرض الهلال الخصيب ووفرة منتجاته فإن سكانه كانوا بحاجة دائمة لاستيراد البضائع المكملة لرفاههم ولا سيما ما تنتجه الهند وشرق أفريقيا وجنوب الجزيرة العربية من بخور وعطور وبهارات وعاج وحرير وغير ذلك، كما كان سكان الهلال الخصيب يصدرون ما يفيض من منتجاتهم ولا سيما الزجاج والمنسوجات وغيرها.

فضلاً عن النشاط التجاري المتمثل في الاستيراد والتصدير، كانت منطقة الهلال الخصيب مركزا هاماً لتجارة الترانزيت، تمر منها وإليها تجارات الهند وبلاد البحر الأبيض المتوسط، فقد كانت أوروبا في عهد اليونان والرومان لا تستغني عن منتجات الشرق لا بل تعدها أساسية لحياتها ورفاهيتها.

وكانت صادرات الهند تنقل عن طريقين بحريين هما: أولاً طريق الخليج العربي ومنه إلى العراق وسورية براً وبعد ذلك تركب البضائع البحر ثانية لتقطع

البحر المتوسط إلى أوروبا، أو عن طريق ثانية وذلك عبر البحر العربي إلى البحر الأحمر أو إلى ميناء العقبة حيث تنقل منها إلى الموانئ السورية في طريقها إلى البحر المتوسط. والطريق الأول الذي يمر بالخليج العربي أفضل من هذه الطريق الثانية فهو أقصر وتكاليف النقل عليه أقل وليس فيه جزر مرجانية كالجزر الموجودة في البحر الأحمر، لذلك كانت القوافل تستعمله أكثر من استعمالها لطريق البحر العربي والبحر الأحمر.

كانت السفن التي تنقل التجارة عبر الخليج العربي تفرغ حمولتها عند الأبلة (جنوب العراق) أو عند البحرين ثم تنقل البضائع عن طريق البر إلى العراق أو سوريا عبر الصحراء، أما السفن التي تأتي عبر البحر العربي فكانت تنهي رحلتها في ميناء عدن حيث تنقل ما تحمله من بضائع عبر اليمن إلى الحجاز ومنها إلى سوريا وفلسطين ومصر وهكذا نرى أن القوافل في كلتا الحالتين كانت مضطرة لأن تقطع الصحراء العربية مما كان يعرضها للكثير من المشاق والصعاب التي أهمها قلة الماء. لذلك فإن مواقع الآبار -باعتبارها المصدر الوحيد للماء في الصحارى- أصبحت بمرور الزمن محطات تجارية للقوافل، ثم تطورت لتصبح مدناً مزدهرة تستقر فيها القبائل التي تعيش بالقرب منها، ثم صارت دولاً تتولى حماية القوافل التجارية وتقدم لها حيوانات النقل وتوفر لها كل الخدمات الضرورية من إقامة وغذاء وغيرها. وهذه الدول حسب ترتيب ظهورها هي: دولة الأنباط، دولة تدمر، دولة الغساسنة، دولة المناذرة في الحيرة.

# المبحث الأول

# الأنبـــــــــاط

قامت مملكة الأنباط في شمال الحجاز، في منطقة "وادي موسى" التي تقع شرق الأردن، وتنسب هذه المملكة إلى شعب عربي يعرف عند اليونـــان باسـم "Nabataei" أو النبط، سكن في بادية الشام وجنوبي سورية في القرن السـادس قبل الميلاد تقريباً، ولم نعثر في المصادر العربية على أخبار عن الأنباط، كما لـم نعثر على أخبار عنهم في الوثائق الخاصة بحمـلات الآشـوريين علـى الشـام ومصر، وإنما وقفنا على أخبارهم من كتابات الإغريق، ومن نتائج الكشوف التـي أسفرت عنها الأبحاث الأثرية في البتراء وحوران.

إن أول ذكر للأنباط في التاريخ يرد في قائمة آشورية تعدد أعداء "آشـور بانيبال" الذي حكم آشور سنة ٦٤٧ق.م، ولكن هذه المعلومات تتحدث عن الأنبـاط قبل قيام دولتهم، أي عن الحقبة التي كانت فيها البتراء بيـد الأدوميين، سـكان المنطقة الأصليين، وليس من السهل أن نحدد التاريخ الذي بدأ فيه الأنباط سكناهم في البتراء، ويستدل مما يذكره الكاتب القديم "ديو دروس الصقلي" أنـهم كـانوا يعيشون في هذه المنطقة منذ نهاية القرن الرابع قبل الميلاد، وإذا أردنا أن نعـود إلى بدايات ظهور هذه المنطقة على مسرح السياسة الدولية لوجدنا أن ذلك يعـود إلى قيام الإمبراطورية الآشورية وبسط نفوذها على سوريا وفلسطين وتوحيدهـا الهلال الخصيب تحت رايتها، فانتشر السلام في هذه الربوع وحلـت الطمأنينـة والأمن محل الفوضى والاضطراب مما ساعد على ازدهـار التجـارة وتجـوال

القوافل بحريّة ودون خوف من اللصوص وقطاع الطرق، وهكذا انتعش الطريق التجاري الذي يمر بالعراق وبالتالي ضعفت التجارة التي تمر من غرب الجزيرة، وقد أدرك اليمانيون وعرب الشمال أيضاً أن مصالحهم التجارية قد أصبحت في أيدي الآشوريين لذلك كانوا يتوددون إليهم ويعملون تحت لوائهم حيناً، ويثورون عليهم حيناً آخر[1].

تتميز بلاد الأنباط بأنها بلاد جبلية قفراء، قليلة المياه، تكثر فيها المرتفعات الصخرية الوعرة والشعب، وقد انعكست هذه الطبيعة الوعرة على النبط، فطبعتهم بطابعها، ولذلك عرف الأنباط بشدة المراس والعنف، كما عرفوا بميلهم إلى الغزو، وساعدتهم هذه البيئة الصخرية على مقاومة أعدائهم، فصعب على هؤلاء قهرهم وإخضاعهم لهم، ولهذا السبب لم يتمكن الآشوريون أو الفرس أو الإغريق من قهر هذا الشعب، ولقد سمى الإغريق بلادهم للسبب نفسه باسم "بلاد العرب الصخرية"، كما سميت عاصمتهم بالبتراء Petraea أي الصخرة، وهي تقارب في معناها كلمة "سالع" العبرانية المذكورة في التوراة[2] وتعني الشق في الصخر، والتسمية العربية مترجمة من اليونانية، ونلاحظ أن التسمية العبرانية أكثر دقة، لأن مدخل البتراء يتسم بوجود أخدود عميق بين جبلين يعرف باسم "السبق" ولعله لفظ نبطي متوارث، حرفه الناس عن كلمة "الشق" في اللغة السبئية القديمة[3].

---

(١) جواد علي، ج٣، ص٦.

(٢) سفر اشعيا ١٦:١، ٤٢:١١.

(٣) لانكستر هارنج، آثار الأردن ص١١٧.

عندما جاء الإسكندر المقدوني بحملته على هذه البلاد، وأرسل جيشاً بقيادة أحد قواده لاحتلال بلاد الأنباط، توغل هذا الجيش في بلادهم ولكنه عجز عن إخضاعهم، ولما مات الإسكندر انقسمت إمبراطوريته إلى عدة أقسام كما هو معلوم، ووقعت مصر تحت حكم بطليموس وسوريا تحت حكم سلوقس، وكان التنافس شديداً بين بطليموس وسلوقس وأراد هذا الأخير أن يقطع التجارة عن منافسه في مصر لذلك أراد احتلال بلاد الأنباط التي تسيطر على طرق التجارة البرية، فأرسل كما يذكر لنا "ديودروس الصقلي"، حملة مؤلفة من ٤٠٠ جندي مشاة و ٦٠٠ جندي خيّال وذلك سنة ٣١٢ق.م، ولكن الفشل كان حليف هذه الحملة وهلك القسم الأكبر من أفرادها. واتبع السلوقيون هذه الحملة بحملة أخرى لعقاب الأنباط فهرب هؤلاء إلى معاقلهم في الجبال والصحاري ومن هناك فاوضوا السلوقيين للصلح ودفعوا لهم مبلغاً من المال. فقبل السلوقيون مصالحتهم بعد أن تأكدوا أنه لا سبيل إلى الانتصار عليهم[1].

ونستدل مما ذكره "ديودروس الصقلي" على أن الأنباط بلغوا من القوة ما جعلهم يروون جيش السلوقيين على أعقابه، كما نستدل مما ذكره على أن البتراء لم تكن قد بلغت من العمران ما بلغته في العصور التالية، فلم تكن المدينة مسورة، ومن المرجح أن السوريين اللذين تم اكتشافهما بالبتراء قد أسسهما الأنباط بعد أن عقدوا الصلح مع السلوقيين.

وأصبحت البتراء في القرن الأول قبل الميلاد أهم مراكز التجارة القادمة من جزيرة العرب، وساعد موقع البتراء على ازدياد أهميتها كونها محطة تجارية

---

(١) المصدر السابق، ص١١٩.

في ملتقى الطرق التجارية من العراق شرقاً، واليمن جنوباً، وسوريا وفلسطين شمالاً، ومصر غرباً. وقد أثرى الأنباط ثراء كبيرا بسبب اشتغالهم بالتجارة، فلما عمل البطالسة على احتكار التجارة البحرية و السيطرة على البحر الأحمر عن طريق إنشاء محطات وموانئ على سواحله وإقامة علاقات مع عرب الجنوب الذين يشتغلون بالتجارة في البحر الأحمر، أدرك الأنباط مدى الخطر الذي يتهددهم، كما أدركوا الأضرار الفادحة التي يمكن أن تصيب مصالحهم التجارية بسبب ذلك، واضطروا إلى التحرش بسفن البطالسة، وقطع الطرق البحرية عليها والاستيلاء على حمولتها، الأمر الذي دفع بطليموس الثاني (٢٨٥-٢٤٦ق.م) إلى إنشاء قوة بحرية لحراسة السفن التجارية البطلمية، وتمكن بذلك من السيطرة على شمال البحر الأحمر وخليج العقبة. ولكن الأنباط انتهزوا فرصة انشغال بطليموس بالحرب مع السلوقيين في سورية فأخذوا يهاجمون سفن البطالسة التجارية بهدف عرقلة نشاطهم التجاري وإضعافه[١].

وفي القرن الثاني قبل الميلاد ضعف البطالسة وتمكن السلوقيون من أن يسترجعوا منهم سورية، وحاول السلوقيون أن يستجلبوا الأنباط إلى جانبهم وتحسنت علاقتهم معهم، فعاود الأنباط نشاطهم التجاري مع سوريا.

أعقب هذه الحقبة فترة ضعَفَ فيها السلوقيون وعمّ الاضطراب منطقة الهلال الخصيب، وقامت في بلاد فارس الإمبراطورية البارثية، واستقلت بعض المناطق في شمال الهلال الخصيب وسوريا مما أدى إلى اضطراب الأمن وانتشار الفوضى وبالتالي ضعف التجارة المارة بالعراق، وقد ساعدت هذه

---

(١) صالح العلي، محاضرات في تاريخ العربي ص٣٨.

الظروف المستجدة على أن تسترد الطرق التجارية المارة في غربـي الجزيـرة أهميتها فازدهرت البتراء بنتيجة ذلك.

## أشهر ملوك الأنباط

أول ملوك الأنباط الذين ورد ذكرهم في كتب التاريخ هو الملـك Aretas "الحارث الأول" (١٦٩-١٤٦ق.م)، وكان معاصراً للملـك أنطوخـوس الرابـع السلوقي ملك سوريا، وبطليموس فيلوميتور ملك مصر، وقـد حـالف الحـارث النبطي جيرانه المكابيين بني حشمناي ضد السلوقيين، ففي سـنة ١٦٨ق.م قـام يهوذا المكابي بالثورة على السلوقيين ونجح في احتلال بيت المقدس.

ومن أشهر ملوك الأنباط الحارث الثـاني (١١٠-٩٦ق.م) وفـي عـهده بلغت الدولة درجة من القوة جعلت المكابيين يلجؤون إليه طالبين النجـدة ضـد خصومهم ومعترفين بتفوقه العسكري. وقد ظلت الصداقة النبطية – المكابية قائمة لمدة من الزمن حتى تكشف للأنباط أن للمكابيين مطـامع فـي الأرض النبطيـة نفسها وأن تقربهم منهم لم يكن فقط لنصرتهم على خصومهم بل بقصد التسلل إلى الأرض النبطية نفسها والاستيلاء عليها حالما تحيـن الفرصـة، فغـير الأنبـاط سياستهم تجاه المكابيين، وانقلبوا من حلفاء إلى خصوم، واشتبك معهم في معـارك طاحنة استمرت إلى زمن خلفه "عبادة الأول" الذي تمكن مـن أن يشـتت شـمل مملكتهم.

ويعد الحارث الثالث (٨٧-٦٢ق.م) أشهر ملوك الأنباط على الإطـلاق، كما يعد عصره من أزهى العصور النبطية التي تحقق فيها للدولة الاتساع والمجد

والانتصار على القوى المعاصرة الكبرى كالسلوقيين واليـــهود، ولذلــك يعتــبر الحارث الثالث المؤسس الحقيقي لسلطة الأنباط.

استغل الحارث ضعف السلوقيين عند بداية ظهور رومـــا علـــى أعتـــاب الشرق، وعندما بدأ "انطيوخوس ديونيسوس" هجومه على بلاد الأنباط، اصطـــدم مع الحارث الثالث في سنة ٨٦ق.م في معركة عنيفة حدثت عند قريـــة Cana الواقعة على ساحل يافا، وفيها انهزم السلوقيون هزيمة نكـــراء وســقط ملكـــهم صريعاً، واستجاب الحارث بعد هذا الانتصار الكبير إلى دعوة سكان دمشق ليقيـم نفسه حاكماً عليها وعلى الأقاليم الملحقة بها بما فيها من سهول مثل سهل البقـــاع، وذلك في سنة ٨٥ق.م، وتخلص سكان دمشق بذلك من أسوأ مصـــير فيمـــا لـــو سقطت في يد الأمير الأبتوري الذي كان يطمع في عرش سوريا[١].

لقد أدى امتداد نفوذ الأنباط إلى دمشق إلى تضييق الخناق على المملكـــة المكابية اليهودية ومحاصرتها من الشرق والجنوب وإلى تغلغل النفوذ النبطي إلـى قلب المملكة المكابية في بيت المقدس، وقد قامت بين الحارث الثـــالث واســكندر جينوس الملك المكابي معركة عند موقع تسميه المصادر باســم Addida علـــى مقربة من اللد أنهزم فيها المكابيون اليـــهود هزيمـــة نكـــراء وتحطـــم جيشـــهم واضطروا لقبول كل ما فرضه الأنباط من شروط[٢].

شهد عصر الحارث الثالث استيلاء الرومان على دمشـــق ســـنة ٦٤ق.م، وقد تولى مملكة الأنباط بعده ابنه "عبادة الثاني ٦٢-٤٧ق.م)، وفي أيامـــه امتـــد

---

(١) جواد علي، ج٣ ص٢٦.

(٢) المصدر السابق، ج٣ ص٢٧.

النفوذ الروماني على الشرق واستولت روما علـــى آســيا الصغــرى وســورية ومصر، فتقلص النفوذ النبطي، وغدت سياسة الملوك الأنبـــاط إزاء هــذه القــوة الدولية الطارئة على المنطقة تركز على حماية مملكتهم وصون اســـتقلالها مـــن الغزو الخارجي، وقد جسّد هذه السياسة على أرض الواقع "عبادة الثــاني" الــذي عقد تحالفاً مع الرومان، ثم ساهمت الدولة النبطية في عصر خليفته "مـــالك الأول Malichus (٤٧-٣٠ق.م)" بفرقة من الفرسان في الحملة التي قادهـــا يوليــوس قيصر على مصر سنة ٤٧ق.م، وفي عهد مالك الأول تمكن الرومان من إســـقاط الأسرة المكابية اليهودية في بيت المقدس، وأقاموا مكانـــــها الأســـرة الهيروديـــة الموالية لهم.

وقد شهد عصر مالك الأول أحداثاً مهمة كان أبرزها الحروب بينه وبيـــن الهيروديين الذين أنابهم الرومان في حرب الأنباط لأن هؤلاء قد نقضوا ولاءهـــم للرومان وانضموا إلى صف أعدائهم البارثيين الفرس حين حاول الفرس احتـــلال فلسطين وإخراج الرومان منها، وقد انتهت هذه الحروب بهزيمة البـــارثيين الفـــرس أمام الرومان، والأنباط أمام الهيروديين واضطر الأنباط لدفع الجزيـــة للرومـــان سنة ٤٠ق.م.

وفي عهد الملك النبطي عبادة الثالث (٣٠-٩ق.م) اشترك الأنبـــاط فـــي الحملة التي أرسلها القيصر بقيادة اليوس جالوس لغزو بلاد اليمن، وتولى "صالح" وزير عبادة (كما أشرنا سابقا) مهمة إرشاد الجيش الروماني إلى الطـــرق التـــي يسلكها في بلاد العرب، ولكن الحملة انتـــهت بكـــوارث تعـــرض لـــها الجيـــش الروماني، وأخفق الرومان في الاستيلاء على اليمن، واعتقـــد ســـترابو أن هـــذا الفشل سببه خيانة الوزير سايلوس (صالح) دليل الحملة، الـــذي ســـار بـــالجيش

الروماني في أكثر مناطق العرب وعورة وأشدها جفافاً حتى أن عدداً كبيراً من الجنود الرومان ماتوا عطشاً وجوعاً وتعباً(١).

ومع مرور الوقت أخذ ملوك البتراء يظهرون بمظهر التابعين للرومان، أكثر فأكثر، فالحارث الرابع (٩ق.م – ٤٠م) عاون الرومان في حربهم ضد مملكة يهوذا، والظاهر أنه مع تشديد قبضة الرومان على ملوك النبط بدأ هؤلاء يهملون العاصمة البتراء. فلقد بنى عبادة الثاني مدينة أوارا التي بين أيله والبتراء مما يدعو إلى الظن أنها ربما كانت في موضع الحميمة، كما يرى جواد علي(٢)، وكان المتأخرون من ملوك الأنباط يقيمون في مدينة بصرى مما أدى إلى ضعف العاصمة البتراء، وهكذا ستحل بصرى محل البتراء أهم مركز تجاري في جنوب بلاد الشام، على أيام دولة الغساسنة آخر دول العرب في بلاد الشام قبل ظهور الإسلام.

وكانت نهاية دولة الأنباط سنة (١٠٥م أو ١٠٦م) عندما قررت روما إنهاء استقلالها على عهد تراجان، وأدخلتها ضمن ولايتها العربية في الشام، التي كانت تحدها شمالاً أرض دمشق مما يلي حوران والجولان ويدخل في نطاقها مدن: درعة وبصرى وديوم وجرش والبتراء، وعَمّان (التي كانت تعرف بفيلادلفيا)، كما كان يدخل ضمن نطاقها مواضع من النقب غربي العربة، وأيله والحجر (مدائن صالح) وكذلك سيناء.

---

(١) فيليب حتي، تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين ج١ ص٤٢٠، هاردنج ص١٢٣.

(٢) جواد علي، ج٣ ص٤٠.

إن نهاية كيان دولة الأنباط العربية لا يعني أن المنطقة فقدت أهميتها الإستراتيجية والتجارية، وذلك أن مركز الثقل انتقل قليلاً من إقليم البتراء باتجاه الشمال الشرقي، إلى مركز عربي جديد في "تدمر" التي سيؤكد ازدهارها أهمية الأقاليم الشمالية من بلاد العرب ليكون عصباً للحياة الاقتصادية في قلب العالم القديم.

# المبحث الثاني

# التدمريــــــــــــون

## موقع مملكة تدمر ونشأتها:

أَفَلَ نجم "البتراء" في مطلع القرن الثاني الميلادي بإدخالها فـــي الولايــة العربية الرومانية، فكان بشير سعد لمدينة "تدمر" التي أخذت في الازدهــار منــذ ذلك الوقت إلى أن بلغت ذروة مجدها في القرن الثالث الميلادي بفضـــل تملكــها لناحية التجارة بين المشرق والبحر المتوسط.

ومن العوامل الأخرى المهمة التي ساعدت على نمو "تدمر" وازدهارهـــا موقعها الممتاز بفضل وقوعها في قمة بادية الشام في مركز يكاد يمثـــل همــزة الوصل بين أراضي الفرات الشمالية الغربية الخصبة وأراضي الشـــام الشــمالية الشرقية. فكأن بادية الشام أسفلها مثلث متساوي الأضلاع: ضلعه الشـــرقي مــن الحيرة إلى تدمر، وضلعه الغربي من تدمير إلى البتراء، بينما قاعدته تمر بشــمال نجد والحجاز عبر البادية، من الحيرة إلى البتراء في جنوب الشام.

نشأت تدمر في بادية الشام حول منبع ماء غزير، وتقــع فــي منتصــف المسافة تقريباً بين الفرات من جهة، وبين دمشق وحمص من جهة أخرى، وهــي تبعد حوالي ١٥٠ ميلاً عن كل منهما، وكان الذين استقروا فيـــها بضـــع قبــائل عربية، وقد أدت الاتجاهات الجديدة في الامبراطوريات العالمية والتحـــول فــي طرق التجارة الدولية إلى رفع هذه القرية الصغيرة إلى مصاف المـــدن العظمــى

ذات الغنى والسلطة بين مدن العالم القديم. وقد دعا السكان المحليون بلدتهم هـذه تدمر. وظهرت بهذا الاسم لأول مرة حوالي عام ١٨٠٠ق.م. وكذلك ورد ذكرها في نقوش تجلات بلازر التي دون فيها أخبار حملته ضد العموريين حوالي سنة ١١٠٠ق.م في رقيم باسم "تدمر آمورو".

وما زال أصل تسميتها بتدمر مجهولا على الرغم من الأبحاث التي قـام بها العلماء في هذا المجال، وقد عرفت تدمر عند كتاب اليونـان باسـم "بلميرا Palmyra"، ولوحظ أن المقطع الثاني من بلميرا وهـو "Myra" قريـب مـن المقطع الثاني لكلمة تدمر "Mor" الأمر الذي دعا إلى التساؤل عمـا إذا كـان هناك ثمة صلة بين التسميتين، وأن اليونانية أو اللاتينية حرفـت اسـم المدينـة الأصلي من تدمر إلى Palmyra، ويعتقد بعض العلماء أن كلمة "بلميرا" مشـتقة من كلمة "Polma" اللاتينية بمعنى النخل، وأن تدمر سميت ببلميرة منذ أن تغلـب عليها الإسكندر وذلك لكثرة ما كان يزرع فيها من أشجار النخيل[1].

وذهب بعض الباحثين إلى الاعتقاد بأن كلمة بلميرة ترجمة لكلمة "ثامـار" العبرانية التي تعني النخلة، وأن تامار العبرانية اسم بلدة أو موضـع تقـع إلـى الجنوب الشرقي من يهوذا وفقا لما ورد في التوراة[2]،ويذكرون أن ثامـار هـي البلدة التي بناها سليمان، وورد ذكرها في التوراة في جملة المدن التـي أسسـها سليمان ولكنها ذكرت تحت اسم تدمر، وأن ورود اسم ثامار على هذه الصـورة كانت نتيجة خطأ ارتكبته كتبة أسفار "أخبار الأيام"، فخلطوا بين ثامـار الواقعـة جنوبي البحر الميت وبين تدمر المدينة المشهورة، ثم كتبت فـي سـفر الملـوك

---

(١) جواد علي، ج٣ ص ٧٢.

(٢) سفر حزقيال ١٩:٤٧ ، ٢٨:٤٨.

الأول تحت اسم تدمر بدلاً من ثامار، وأصبحت تدمر على هذا النحو من بين المدن التي أسسها سليمان، ومن هنا ارتبط اسم تدمر بثامار أي النخيل وجاءت التسمية اليونانية ترجمة لمعنى كلمة ثامار، وذلك بعد تدوين "أخبار الأيام".

تزعم الروايات العربية التي أخذت عن التوراة أن تدمر مما بنته الجن لسليمان، وقد استبعد "ياقوت الحموي" ذلك وعلق على زعم الإخباريين بقوله: "...وأهل تدمر يزعمون أن ذلك البناء قبل سليمان بن داوود، عليه السلام، بأكثر ما بيننا وبين سليمان، ولكن الناس إذا رأوا بناء عجيباً جهلوا بانيه، أضافوه إلى سليمان وإلى الجن"[1]، هذا فضلاً عن روايات أخرى تنسب بناء تدمر إلى شخصيات خرافية، وترفع نسب ملوكها إلى سام بن نوح[2].

إن الواقع يؤكد بأن تدمر لم تكن من بناء سليمان، لأن ملكه لم يمتد إلى هذه المنطقة، وأغلب الظن أن تدمر نشأت حول نبع ماء في البادية، فقصدها البدو، واستقروا فيها، وعندما هاجم "نبوخذ نصر" القدس ساعده أهل تدمر، ومنذ ذلك الحين بدأت تظهر تدمر مركزاً تجارياً هاماً وطريقاً للقوافل بين العراق والشام، خاصة بعد قيام الدولة الأخمينية في بلاد فارس، فلما سقطت الدولة الأخمينية على يد الاسكندر، وربط الاسكندر بين الشرق والغرب، وتابع سلوقس هذه السياسة التي تهدف إلى خلق دولة متحدة بين الفرس والمقدونيين، اشتهرت تدمر دولة تجارية تمر بها قوافل التجارة بين العراق وسوريا، غير أن قيام الدولة (البارثية) منذ نحو ٢٥٠ق.م، وانتصارها على السلوقيين وامتداد نفوذها من الفرات إلى هراة، سبب أضراراً جسمية لاقتصاد تدمر، فقد انفصلت العراق

---

(١) معجم البلدان ج٢ ص١٧.

(٢) المسعودي، ج٢، ص٩٣.

عن الشام، وهدد ذلك الانفصال التجارة التدمرية التي يرجع الفضل في ازدهارها إلى ارتباط القطرين، فلما سيطر الرومان على بلاد الشام ومصر، وساد السلام بينهم وبين الدولة الفارسية انتعش النشاط التجاري المار بتدمر مجدداً.

لقد درس المستشرقون الكتابات التدمرية وترجموها إلى لغاتهم وشرحوا ما جاء فيها، وهي بالآرامية واليونانية، ثم اللاتينية والعبرانية، وكذلك كتب بعض المؤلفين اليونان واللاتين والسريان كتباً عن تدمر، أو تعرضوا لذكرها في أثناء أبحاثهم، ومن هذه المصادر الرئيسية استقى المؤرخون معارفهم عن تاريخ هذه المدينة، هذا فضلاً عن النقوش والكتابات.

وأهل تدمر عرب كالأنباط، يكتبون بالآرامية التي انتشرت في المنطقة ما بين فارس والشام والحجاز، على أنقاض اللغة البابلية القديمة، حتى أصبحت اللغة الرسمية في كل هذه البلاد، كما كانت لغة التجارة والدبلوماسية، وملوك تدمر يظهر عليهم التأثر بالثقافة والعادات الرومانية كملوك البتراء، فهم يحملون أسماء عربية وإلى جانبها ألقاباً ورمانية، وإذا كان للبتراء ملكاتها الشرقيات أو الحقيقيات، فلقد كان لتدمر ملكتها الأسطورية "الزباء" أو "زنوبيا" الذائعة الصيت، التي أحيت بسيرتها العجيبة سيرة ملكة مصر البطلمية "كليوباترا".

أما نقوشهم فتظهر فيها أسماء الأصنام العربية التي عبدوها إلى جانب الأصنام العربية القديمة (الآرامية)، فمن أصنامهم: شمش (شمس)، وبل (بعل) الإله الأكبر في تدمر، وكذلك بعل-شمين أي رب السماء، وآلت (اللات) وأشتر (عشتار).

والخلاصة أن ثقافة تدمر كانت خلاصة ثقافات عديدة عربية وآرامية ويونانية ورومانية، وأقدم كتابه عثر عليها لا يتجاوز تاريخها سنة ٩ق.م.

ومن الناحية السياسية، فقد حافظ التدمريون على استقلالهم في أثناء النزاع بين البارثيين والسلوقيين، ولكن الرومان طمعوا في الاستيلاء على بلدهم منذ عام ٤١ق.م، عندما حاول مارك انطونيو غزوها، فاضطر أهلها إلى الجلاء عنها حاملين معهم أموالهم وأمتعتهم، ولا ندري على وجه الدقة ما أسفرت عنه حملة أنطونيو، وأغلب الظن أن تدمر اعترفت بسيادة روما مع احتفاظها باستقلالها، ولكن من المرجح أنها دخلت في فلك الدولة الرومانية في أواخر القرن الأول الميلادي، إذ كانت من بين المدن التي أدخلها الإمبراطور تراجان في الإمارة العربية سنة ١٠٦ وفي سنة ١٣٠، زارها الإمبراطور هادريان ومنحها لقب "هادريانا بالميرا Hadriana Palmyra" أو تسمى "هادريانا بولس" كما منح أهلها حقوق أهل روما مثل: حق الملكة المطلق والحرية الكاملة في إدارة سياسة المدينة، وحق إعفاء تجارتهم من الضرائب، وعندما ساد السلام بين البارثيين والرومان بدأ عصر من الرخاء الطويل في تاريخ تدمر.

ثم قام الإمبراطور سبتيموس سفيروس (١٩٣-٢١١ق.م) فجعل تدمر وملحقاتها مدنا إقليمية في إمبراطوريته، وفي مطلع القرن الثالث صارت تدمر مستعمرة رومانية، ولكنها لم تفقد الحكم الذاتي، وباعتبار أنها مدينة خلقتها خطوط القوافل فقد أصبحت الوارث الطبيعي لمدينة البتراء.

استغل التدمريون ظروف انشغال الدولة الرومانية بصد هجمات القبائل الجرمانية التي كانت تهدد دولتهم في أوروبا الغربية وأخذوا يتوسعون على حساب الأراضي التي تحتلها الدولة الرومانية، فأصبحت دولة تدمر تشمل عدداً من المدن الصغيرة التابعة لها مثل "دورا أوريس" و"الرصافة" ومع ذلك فقد ظل التدمريون أوفياء للرومان.

## أشهر ملوك تدمر:

كان لتدمر أسرتها الوطنية الحاكمة، التي توارثت الملك أو الإمـــارة فـــي البلاد، والتي كانت صاحبة السلطة الفعلية، وأشهر ملوك هذه الأسرة هو الملـــك أذينة Odenatus بن خيران (او حيران الملقب ببتموس) بن أذنيه الـــذي كـــان يحمل لقب قائد العرب في الإقليم (فلارك) والذي أعطي لقب القنصـــل (ســـناتور) من قبل الإمبراطور فاليريان، مكافأة له على معاونته له في الحرب ضد الفـــرس بقيادة سابور سنة ٢٥٨م، وهي التي انتهت بهزيمة فاليريان ووقوعه في الأسر.

بدأت مملكة تدمر تقوم بدور مهم في السياسة الدولية بعد أن تولى عليـــها أذينة الثاني، هذا وقامت في تلك الحقبة سلالة جديدة نشيطة في بلاد فارس هـــي السلالة الساسانية التي حكمت المنطقة من سنة ٢٢٦م وحتـــى ظـــهور الإســـلام وانهيار هذه الدولة بعد معركة القادسية سنة ٦٣٧م، وقد حدث أن طـــالب أذينـــة الثاني فاليريان لمساعدته للثأر من قاتل أبيه أذينة الأول، ولكن فاليريان لم يكترث لطلبه، فغضب أذينة وأخذ يتحين الفرص للانتقام من الرومان، وجاءت المناســـبة حين اتبع الساسانيون سياسة التوسع وقامت بينهم وبين الإمبراطورية الرومانيـــة وممتلكاتها في الشرق مشاحنات وخلافات حول مناطق النفوذ وخطوط التجـــارة، وحدث أن بدأت المعارك بين الفرس الساسانيين والرومان في هذا الجـــزء مـــن العالم القديم، وانتصر الساسانيون بقيادة ملكهم سابور الأول (٢٤١-٢٧٢م) علـــى

الجيش الروماني بقيادة فاليريان في معركة جرت قرب الرها(*)، ووقع فاليريان أسيراً في قبضة الفرس، ولما بلغ أذينة نبأ انتصار سابور على فاليريان وجد الفرصة سانحة للانتقام لمقتل أبيه من هذا الأخير فأرسل رسله إلى سابور يحملون إليه كتاباً كله ود وعرض للصداقة والتحالف، ولم يتقبل سابور الكتاب والرسل التدمريين قبولاً حسناً وعاملهم بجفوة واستهان بأمرهم وأمر بإلقاء الهدايا التي كانوا يحملونها في النهر إمعاناً في إهانتهم. وقد أثار هذا التصرف ثائرة أذينة فما كان منه إلا أن جمع جيشاً كبيراً وهاجم عاصمة الساسانيين "طيسفون أو المدائن" واشتبك مع جيش سابور في معركة عنيفة على ضفاف نهر الفرات انتهت بهزيمة سابور هزيمة نكراء، وتتبع أذينة فلول الجيش الفارسي حتى أسوار عاصمته ولكنه لم يستطع تخليص فاليريان من الأسر.

كافأ الإمبراطور الجديد غالينوس بن فاليريان أذينة على هذا الانتصار الذي أحرزه على الفرس، فأنعم عليه بلقب قائد عام على جميع جيوش الشرق Dux Orientis في سنة ٢٦٢م. وبدأ أذينة يسترجع أراضي الإمبراطورية من الفرس، فهاجم شابور في طيسفون، ونجح في استرداد المناطق الشرقية، فاستولى على الرها ونصيبين، وكان لهذه الانتصارات أثرها العميق في نفس الإمبراطور الروماني فكافأه على إخلاصه مرة ثانية في سنة ٢٦٤م بأن منحه لقب "إمبراطور بلاد المشرق".

---

(*) وهي من المدن الهمة والعريقة في الجزيرة الفراتية، تقع بين الموصل والشام، يسميها اليونان Edessa وكانت تسمى في عهد السلوقيين (كالوري) وسماها العرب الرها، تدعى اليوم أورفه، أنظر ياقوت ج٣ ص١٠٦.

ويبدو أن أذينة شعر بأهمية انتصاراته وموقعه بين كل من كسرى ملك الفرس وقيصر ملك الروم، فاتخذ لنفسه اللقب الفارسي "ملك الملوك"، كما اتخذ لقب القياصرة وهو "أغسطس"، وكأنه أصبح يقف موقف الحكم بين القوتين الكبيرتين المتصارعتين على سيادة المشرق، بدلاً من أن يكون مجرد دولة صغيرة عازلة بين الدولتين(١).

إن هذا الاستقرار والتقدم السياسي الذي أحرزته المملكة التدمرية لابد أن ينعكس على ازدهارها الاقتصادي عن طريق تأمين القوافل وتنظيم التجارة وإقرار الضرائب المقررة على التجارة وعلى تجارة العبور. وكان تجار تدمر وعلى رأسهم الأسرة الحاكمة يتعاملون في منتجات جزيرة العرب وبضائعها من الذهب والجزع واللبان والصمغ، ولؤلؤ الخليج العربي وفي حرير الصين وطرائف الهند من البهار والقرنفل والعاج والأبنوس.

يبدو أن أذينة لم ينس إهانية سابور له، فعزم على مهاجمة الفرس ثانية، ومضى مع ابنه سبتيموس هيرودس وحاصر عاصمتهم طيسنون "المدائن" مدة من الزمن، ولكنه اضطر إلى العودة إلى الشام مسرعاً لمواجهة خطر القوط الذين نزلوا على سواحل ميناء هرقلية وزحفوا نحو كبادوكيا، فلما علم القوط بعودة أذينة ولّوا الأدبار هاربين، وقفلوا هاربين من حيث جاؤوا، وبينما كان أذينة يستعد للعودة إلى العراق لمهاجمة عاصمة الفرس "طيسغون" حدثت الفاجعة التي أدت إلى مقتله مع ابنه.

---

(١) جواد علي ج٣ ص٩٣-٩٥.

ملخص الحادث، كما ترويه أغلب المصادر، أن أذينة كان في مدينة حمص حيث يستريح جنده قبل معاودتهم المسير إلى العراق، وأراد أن يحتفل بعيد ميلاده فأعد وليمة كبيرة حضرها كبار رجالات الدولة وقادة جيشه، واستغل ابن أخيه "معنيوس" بن يران هذه المناسبة فقتله مع ابنه هيرودوس، وقد نادى معنيوس بنفسه ملكاً بعد مقتل عمه، ولكنه بعد أيام قليلة من جلوسه على عرش تدمر ما لبث أن لقي نفس المصير الذي حضره هو لعمه من قبل إذ انتقمت منه سيوف أهل حمص وألحقته بالمصير الذي أراده لعمه وابن عمه من قبل، وقد تباينت الأخبار والروايات الواردة في هذا الموضوع، لذلك تعددت الآراء حول أسباب مقتل الملك أذينة وهو في ذروة مجده وانتصاراته[١].

بعد مقتل أذينة ومعني، انتقل ملك تدمر إلى وهب اللات ابن أذينة من زوجته زنوبيا أو الزباء، وكان وهب اللات حين قتل أبوه صغير السن، لذلك تولت الوصاية عليه أمه وحكمت باسمه، وقامت بأعباء الحكم على خير وجه وسعت لتوسيع حدود مملكتها وبسط نفوذها على أماكن واسعة لم تكن بين الأراضي التابعة لتدمر، وكان من الطبيعي أن تؤدي هذه السياسة إلى حدوث صدام بينها وبين جيرانها.

وشخصية زنوبيا من الشخصيات الهامة في تاريخ الشرق الأدنى القديم، فقد كانت تطمح في تكوين إمبراطورية كبرى، وكانت شجاعة جريئة، ويذكر المسعودي[٢]، أنها كانت رومية، وكانت تتكلم العربية وفقاً لبعض الروايات، وعربية من أهل بيت عاملة من العماليق الذين كانوا في سليح، وتبالغ الروايات

---

(١) جواد علي ج٣ ص٩٦.

(٢) مروج الذهب ج٢ ص٩٣.

في الحديث عن الزباء (زنوبيا)، فتزعم أن جنود الزباء من بقايا العماليق والعاربة الأولى وتزيد وسليح ابني حلوان ابن عمران بن الحاق بن قضاعة، وأنها عندما آل إليها الحكم عزمت على غزو جذيمة الأبرش، وهو جُذيمة بن مالك بن فهم التنوخي، أول من ملك عرب الضاحية النازلين بين الحيرة والأنبار في بادية العراق، وكان قد قتل أباها عمرو بن الضرب، فثنتها أختها عن قصدها، وأقنعتها باصطناع الدهاء لاجتذابه إليها، فكتبت الزباء إلى جذيمة تدعوه إلى نفسها وملكها وأن يصل بلاده ببلادها، فلما بلغه ذلك طمع في ضم ملكها إلى ملكه، فأقبل إليها، فلما اجتمعت به قتلته، فانتقم عمرو بن عدي ابن أخت جذيمة الأبرش منها، فسيّر إليها رجلاً يقال له قصير به سعد اللخمي، فتحايل على قتلها، ونجح قصير في دخول تدمر بجنود الحيرة، فاضطرت الزباء إلى امتصاص خاتمها المسموم، فقتلت نفسها، والقصة مليئة بعناصر الخيال والخرافة والإشارة، ومن المرجح أن نهاية زنوبيا كانت على يد الرومان، فقد أكدت الروايات أنها حُملت أسيرة إلى روما، وأن الغزو الذي تعرضت له بلادها كان غزوا رومانياً.

وهناك روايات تفيد أنها ادعت أنها من مصر من نسل الملكة الشهيرة "كليوباترا" وأنها كانت تتكلم المصرية بطلاقة، وأنها ألفت كتابا في تاريخ مصر، ولعلها أرادت بتأليفها الكتاب في تاريخ مصر تأييد نسبها هذا، أو أنها تهدف من وراء هذا النسب تحقيق أغراض سياسية منها التقرب إلى الرومان بادعائها أنها من أصل يوناني، وأنها لم تكن بعيدة عن الحضارة والعمران، أو من أجل كسب ود المصريين بادعائها أنها من أصل مصري، أو ربما كان لها بذلك أهداف أخرى.

أظهرت الزباء حنكة سياسية ومقدرة فائقة في إدارة شؤون دولتها، فكان ذلك مثار قلق للرومان، وقام شيوخ روما بتحريض الإمبراطور "غاليا تونس" على مهاجمة مملكة تدمر والقضاء على زنوبيا قبل استفحال أمرها، فأرسل هذا الإمبراطور جيشا إلى الشرق تظاهر أنه يريد من إرساله محاربة سابور غير أنه كان يريد في الواقع مهاجمة تدمر وإخضاع الملكة، فبلغ بره مسامع الزباء فاستعدت لمقابلته وخرجت إليه والتحمت فعلاً بجيش الرومان وانتصرت عليه انتصاراً باهراً، وهزم الجيش تاركاً قائده هرقليانوس قتيلاً في أرض المعركة.

ومن جهة الشرق لم تنسق زنوبيا التحصن والحذر من الخطر الفارسي، فأمرت ببناء حصن على الفرات ليقف أمام الهجمات المتوقعة من الفرس ضدها، واتسعت الدولة التدمرية في عهدها حتى غدت أشبه بإمبراطورية إذ شملت سوريا وجزءاً من آسيا الصغرى وشمال الجزيرة العربية، وفي عام ٢٧٠م أصبحت مصر تحت حكم زنوبيا، ويبدو أنها اتفقت مع روما على بقاء حامية تدمرية في مصر نظير اعتراف تدمر بسيادة الرومان على مصر. وقد عثر على عملة تدمرية ضربت في مدينة الإسكندرية سنة ٢٧٠م نقش عليها صورة وجه وهب اللات إلى جانب صورة وجه أورليان، والجمع بين الصورتين في عملة واحدة دليل على أن وهب اللات أصبح يحكم مصر ممثلاً للإمبراطور الروماني.

من المؤكد أن سياسة الزباء التوسعية لم تكن موضع ارتياح لدى الرومان، لذلك عزم الإمبراطور أورليان على وضع حد لتلك التوجهات والأطماع، فلما علمت الزباء بتلك النوايا غضبت وأرادت تحدي الإمبراطور، فأمرت بضرب عملات في الإسكندرية خالية من صور الإمبراطور الروماني

مما يعني عدم الاعتراف بسلطته، من جانب آخر أقام قائدها زبدا تمثـالاً لأذينـة الراحل ونقش عليه لقب "ملك الملوك".

هذه الأعمال قصمت ظهر العلاقة التدمرية الرومانية، وفي سـنة ٢٧١م وجهت روما أولى ضرباتها، وتمكن الجيش الروماني من إلحاق الهزيمة بجيـش تدمر في مصر، في حين كانت الجيوش الرومانية تجتاح آسيا الصغرى وتحتـل بلاد الشام.

حاول الجيش التدمري إيقاف تقدم الجيـش الرومـاني فـي الأراضـي السورية، ولكن أخفق، فانسحب من أنطاكيا إلى حمـص، وفـي حمـص كـانت الهزيمة الثانية لجيش تدمر، وأصبح الطريق مفتوحاً أمام الرومان لاجتيـاح تدمـر التي تحصنت فيها الزباء ودافعت عنها ببسالة وانتظرت أن تأتيـها النجـدة مـن الفرس، ولكن هؤلاء كانوا في شغل شاغل عنها على ما يبـدو بسـبب مشـاكل الحكم، ولما أيقنت بعدم جدوى الدفاع أمام القوات الرومانية المتزايدة قـررت أن تذهب بنفسها إلى ملك الفرس عسى أن يستجيب لها ويعينـها علـى اسـترجاع ملكها، فخرجت سراً ونجحت في الوصول إلى ضفاف نهر الفرات، وقبل أن تـهم بالركوب في زورق ينقلها إلى الضفة الشرقية من النهر اكتشف الجنود الرومـان أمرها وقبضوا عليها واستسلمت لهم سنة ٢٧٣م.

وهكذا استسلمت تدمر ولم يكن أمامها سوى ذلك، فجردها المحتلون مـن كنوزها الغنية وزخارفها الثمينة، وفرضوا على السكان غرامة كبـيرة وعينـوا على تدمر حاكما رومانيا تحميه فرقة عسكرية تتكون من عدد من الرماة.

أما الملكة زنوبيا فقد أخذت أسيرة إلى روما مع أحد أبنائـها، وسـارت محملة بالجواهر ومقيدة بالسلاسل الذهبية فازدان بها موكب أورليان عند دخولـه

المظفر إلى عاصمته سنة ٢٧٤م، وقضي على الملكة أن تقبع في بيت مخصص لها في تيبور (تيفولي) مع أولادها، وهناك أمضت بقيت حياتها.

وأما تدمر المدينة التجارية الكبرى، فقد صارت خلال قرن من الزمان قرية صغيرة، وحصناً من حصون الحدود التي أحاطت بها روما حدودها، وظل الأمر هكذا خلال القرنين الخامس والسادس الميلاديين حيث كانت تقيم حامية رومانية مخصصة للدفاع عن حدود الإمبراطورية ضد غارات قبائل البادية، وكانت تدمر من المواضع التي اتخذها الغساسنة قصرا ريفياً لهم، وظل حالها كذلك إلى أن فتحها المسلمون سنة ١٢هـ/ ٦٣٤م[١].

---

(١) أنظر: جواد علي ج٣ ص١٢٧-١٢٩.

# المبحث الثالث

# الغساسنة

من الدول العربية التي قامت في شمال جزيرة العرب قبل الإسلام دولة الغساسنة التي أسسها العرب على حدود بلاد الشام، فمن الغساسنة؟ وما أصلهم؟ وكيف تمكنوا من إقامة دولة لهم في هذه البقعة من أرض العرب؟.

الغساسنة من قبيلة مازن، فرع من أزد اليمن، نزحوا قبل أو بعد حادثة سيل العرم تحت قيادة زعيمهم عمرو بن عامر مزيقياء من جنوب الجزيرة العربية إلى بلاد الشام. ويزعم نسابو العرب أن هؤلاء الأزد لم يرحلوا إلى الشام مباشرة، وإنما أقاموا حيناً من الوقت في تهامة بين بلاد الأشعريين وعك، على ماء يقال له "غسان" فنسبوا إليه. وقد نزلوا على هذا الماء بعد خروجهم من اليمن، ويفسر المسعودي هذه النسبة بقوله: "وإنما غسان ماء شربوا منه، فسموا بذلك، وهو ما بين زبيد ورمع، ووادي الأشعريين بأرض اليمن"، ويدعم المسعودي هذا التفسير ببيت شعر لحسان بن ثابت:

أما سألت فإنا معشر نجب     الأزد نسبتنا والماء غسان[1]

وينتسب الغساسنة أيضاً إلى آل عمرو المعروف بـ "ميزيقياء"، وهو عمرو بن عامر ماء السماء بن حارثة الغطريف بن امرئ القيس البطريق بن

(١) مروج الذهب ج٢ ص١٠٦-١٠٧.

ثعلبة ابن مازن بن الأزد بن الغوث، وهناك رأيان مختلفان في تفسير اسم "مزيقياء":

الأول: "أن عمراً إنما سمي مزيقياء لأنه كان يمزق كل يوم من سني ملكه حلتين لئلا يلبسهن غيره، فسمي هو مزيقياءؤ، وسمي ولده المزاقية".

الثاني: "قيل: إنما سمي مزيقياء، لأن الأزد تمزقت على عهده كل ممزق عند هربهم من سيل العرم، فاتخذت العرب افتراق الأزد عن أرض سبأ بسيل العرم مثلاً، فقالوا: ذهبت بنو فلان أيادي سبأ"[1].

ومن المؤكد أن التفسير الأول تفسير خرافي، والمرجح هو التفسير الثاني لأن له صلة بنص قرآني، في قوله تعالى: ﴿... وظلموا أنفسهم فجعلناهم أحاديث ومزقناهم كل ممزق إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور﴾[2].

ويلقب الغساسنة أيضاً بآل جفنة أو بأولاد جفنة، وذلك لأن أول ملوكهم "جفنة بن عمرو مزيقياء بن عامر ماء السماء..."، وإلى جفنة ينسب أحد أمراء الغساسنة، هو الحارث الأول ابن ثعلبة بن عمرو بن جفنة، الذي يسمى بالحارث الجفني، كذلك يسمون بآل ثعلبة، نسبة إلى جد لهذه الأسرة يعرف بثعلبة بن مازن.

ذكر الأخباريون أن جد الغساسنة عمرو بن عامر تنبأ بخراب سد مأرب فرحل بقومه الأزد من مأرب ... "يريدون أرضاً تجمعهم يقيمون بها"[3]، فحلوا

---

(١) الأصفهاني، ص٧٧.

(٢) سورة سبأ: ١٩.

(٣)المسعودي ج٢ ص١٩٠.

بأرض من أعمال الشام كان يملكها عرب يعرفون بالضجاعمة ولسنا نعرف الكثير عن الضجاعمة، فهم في رأي بعض النسابين العرب من نسل سليح بن حلوان من قضاعة، وقد غلبهم الغساسنة وحلوا محلهم.

لم يتغلب الغساسنة على الضجاعمة بسهولة ويسر، ويذكر الأخباريون أن سليح بن حلوان (الضجاعمة) ضربت الأتاوة على غسان حين نزلت بقربها، ولما طلب سيد بني سليح بن حلوان من ثعلبة بن عمرو، كبير الغساسنة، دفع الأتاوة قامت الحرب بين الطرفين وكان النصر للغساسنة واندحرت سليح، فصار الملك إلى غسان، على أن هذا النصر الذي أحرزه الغساسنة على الضجاعمة لم يؤد إلى زوالهم نهائياً، أو مغادرتهم للمنطقة فقد ظلت بقاياهم تقيم في مواضع مختلفة من بلاد الشام إلى زمن متأخر.

كان من الطبيعي أن تؤدي جباية هذه الضريبة من غسان الذين كانوا لا يعرفون الجباية، إلى الصدام بينهم وبين عرب بن سليح، ثم بينهم وبين قوات الروم، وكانت المواجهة الأولى بين الغساسنة –الذين قتلوا الجابي السليحي– وبين عساكر الروم الذين يظن أنهم كانوا من سليح، في موضع عرفه العرب بوايد الكسوة، نظراً لسلبهم كسوة عسكر الروم الذين قتلوا في المعركة، وهكذا تأكد للروم قوة بني غسان فصالحوهم "... على أن تعطي غسان الذمة، والدخول والخروج في البلد، والمرعى والنصرة ضد العدو، والمواصاة والعدل". وهكذا ثبت الغساسنة أقدامهم في أرض الشام إلى جانب السليحيين، وكان من الطبيعي أن ينتهي الأمر بانتزاعهم بعد عدد من الوقائع بين غسان وبين الروم وسليح، منها: يوم بالغة، ويوم مرج الضباء، ويوم حليمة الذي وقفت فيه قبائل العرب، من: سليح وكنابة وجذام إلى جانب الروم حتى وافقت غسان على الصلح نظير

دفع الجزية. وكانت المطالبة بها هذه المرة بالقرب من باب دمشق الذي عرف لذلك السبب بـ "باب الجابية"، وهذا يعني تقدم الغساسنة نحو قلب بلاد الشام، مما أدى إلى الحرب من جديد، ووقفت سليح إلى جانب الروم بينما أتت المعونة إلى الغسانيين من بني عمومتهم في يثرب، وانتهى الأمر بانتصار غسان حتى اضطر القيصر إلى صلحهم على أن لغسان ملك الشام، وأن لملكهم طعمة على الروم وأن ينصروه في الحرب(١).

## أشهر ملوك غسان:

كان أول من ملك من الغساسنة، على حد زعم حمزة الأصفهاني(٢)، هو جفنة بن عمرو مزيقياء، ويذكر حمزة أيضاً أن جفنة هذا حكم في أيام نسطورس الذي ملكه على عرب الشام، فلما ملك جفنة قتل ملوك قضاعة من سليح الذين يدعون الضجاعمة، ودانت له قضاعة ومن بالشام من الروم، وبنى جلق والقرية وعدة مصانع، وأورد اليعقوبي(٣) هذا الخبر مع اختلاف بسيط في اسم الإمبراطور الروماني الذي هو "انسطاسيوس ٤٩١-٥١٨م"، أي أنه حكم في الفترة الواقعة بين نهاية القرن الخامس ومطلع القرن السادس. وتولى الحكم بعد جفنة ابنه عمرو بن جفنة، وكان ملكه خَمس سنين، وقد اعتنق النصرانية وبنى أديرة كثيرة.

---

(١) ابن خلدون ج٢ ص ٢٧٩ وما بعدها.

(٢) الأصفهاني، ص٧٧.

(٣)اليعقوبي، تاريخ، ج١ ص١٦٧.

وخلف عمرو بن جفنة ابنه ثعلبة، وكان ملكه سبع عشرة سنة، وخلفه ابنه الحارث بن ثعلبة وكانت مدة حكمه عشرين سنة، وجاء بعده جبلة بن الحارث وكان حكمه عشر سنين(١).

وإذا كان أول من ملك من الغساسنة موضع خلاف عند الأخباريين فإن أول من يوثق بصحة إمارته منهم هو جبلة بن الحارث بن ثعلبة، وهو والد الحارث بن جبلة، أول أمراء غسان العظام، والملك الذي يعد ذا الشأن في تاريخ المنطقة وصاحب الصلات مع البيزنطيين من جهة والمناذرة والفرس من جهة أخرى.

والمعروف أن الحارث بن جبلة الأكبر أنه حارب أمير الحيرة وانتصر عليه في ربيع سنة ٥٢٨م، وأنه قمع ثورة السامريين في فلسطين في السنة التالية ٥٢٩م، ومكافأة للحارث قربه الإمبراطور جستنيان واعترف له بالزعامة على عدد من القبائل العربية وخلع عليه لقب "باسيلوس" أي الملك، كما يقول الكتاب البيزنطيون، ولكنه لما كان الباسيلوس خاص بقيصر الروم، فالمفروض أن الحارث حمل لقب "فيلاركوس" بمعنى شيخ القبيلة أو رئيسها، أو أنه حمل لقب "بطريق" بمعنى الزعيم أو القائد، ولا بأس من أن يكون قد جمع اللقبين معاً، فكلا اللقبين من ألقاب الشرف التي لا تمنح إلا لعدد قليل من رجالات الدولة الكبار.

وقد اشترك الحارث بن جبلة في سنة ٥٣١م في الحرب ضد الفرس، إلى جانب الروم بقيادة القائد البيزنطي المشهور بليزاريوس، وانتهى القتال بهزيمة الروم وأسر واحد من قادة العرب اسمه عمرو في موقعة قنسرين، ثم أن الحرب

---

(١) الأصفهاني، ص٧٧، جواد علي ج٣ ص١٢٤.

اشتعلت بعد ذلك بقليل بين الحارث وبين المنذر بن ماء السماء أمير الحيرة، بسبب التنافس على سيادة القبائل العربية في منطقة تدمر، والظاهر أن ذلك كان من أسباب تأجج الحرب من جديد بين الفرس والبيزنطيين.

وفي سنة ٥٤١م شارك الحارث في الحملة البيزنطية الموجهة لمحاربة الفرس، تحت قيادة بليزاريوس أيضا، ولم يكد الحارث يعبر نهر دجلة حتى ارتد إلى مواقعه السابقة عن طريق أخرى غير الطريق التي سلكها معظم الجيش، وقد أثار تصرفه هذا الشك في إخلاصه للروم، ويبدو أن الحارث أنف من الاشتراك في حملة يقودها قائد بيزنطي، وأنه كان يعمل على الانفراد بالقيادة، ولعله انسحب لمجرد حدوث خلاف بينه وبين قائد الحملة، أو ربما كان السبب الأهم في هذا الموقف الذي وقفه الحارث هو معرفته الأكيدة بحالة الجيش البيزنطي وانشغاله بعملياته العسكرية في أوروبا، وشعوره بأن المعركة ضد الفرس خاسرة لا محالة في ظروف الإمبراطورية البيزنطية آنذاك، لذا آثر السلامة، وعاد لينقذ رجاله من فاجعة قد تحل بهم، وفعلا أثبتت الحوادث التالية صحة رأي الحارث، إذ أسرع جستنيان حين تأزمت الأمور بينه وبين فارس إلى عقد اتفاق جديد بينه وبين الملك الفارسي نص أن تزيد بيزنطة ما تدفعه لفارس من جزية وأن تكون مدة هذا الاتفاق خمس سنوات(١).

لم يكد يمضي على حملة بليزاريوس ثلاث سنوات حتى اشتبك الحارث في قتال عنيف مع المنذر بن النعمان المعروف بابن ماء السماء ملك الحيرة، وذلك في سنة ٥٤٤م، وانتهى القتال بهزيمة الحارث بن جبلة، ووقع أحد أبنائه

---

(١) أنظر: نولدكه، أمراء غسان، ص٤ وما بعدها. جواد علي ج٣ ص٣٣٠.

أسيراً في يد المنذر، فقدمه ضحية لإله العزى، ولم يسكت الحارث على تلك الهزيمة، فجمع جموعه واشتبك من جديد مع المنذر في موقعة انتهت هذه المرة بهزيمة المنذر، وفراره من المعركة تاركاً ولدين من أولاده أسيرين في أيدي الغساسنة، واستمر القتال بعد ذلك سجالاً بين المناذرة والغساسنة على الرغم من الهدنة المعلنة بين فارس وبيزنطة، ولم ينته إلا بعد أن قتل المنذر ملك الحيرة في موقعة دارت بينه وبين خصمه الحارث سنة ٥٥٤م قرب قنسرين، وهذه الموقعة هي الموقعة المعروفة في التاريخ العربي باسم "يوم حليمة" نسبة إلى حليمة بنت الحارث التي كانت تطيب عسكر أبيها وتلبسهم الأكفان والدروع، أو نسبة إلى مرج حليمة المنسوب إلى حليمة بنت الحارث[١]، ويوم حليمة هذا عند بعضهم هو يوم عين باغ نفسه، وهذا الزعم غير صحيح استناداً إلى قول النابغة:

يوما حليمة كانا من قديمهم ... وعين باغ فكان الأمر ما اتمرا

يا قوم إن بن هند غير تاركركم ... فلا تكونوا لأدنى وقعة جزرا[٢]

ويؤكد نولدكة أن حليمة اسم مكان لا اسم امرأة كما يزعم الأخباريون.

وفي سنة ٥٦٣م استقبل القيصر في القسطنطينية الحارث بن جبلة، وكان الهدف من الزيارة مفاوضة القيصر فيمن يخلفه من أبنائه في إمارة الشام، والإجراءات التي يجب اتخاذها لمقاومة ملك الحيرة، ولقد تأثر الحارث بمظاهر الحضارة التي شاهدها في القسطنطينية، وكان له تأثيره القوي على أهل العاصمة وفي نفوس رجالات القصر والحاشية الإمبراطورية الذين أهابوه.

---

(١) ابن الأثير ج١ ص٥٤٦، ابن قتيبة، المعارف ص٢١٦.

(٢) ديوان النابغة، ص٣٧.

ويبدو أن الحارث لم يكن مرغوباً فيه كثيراً في بلاط الروم بسبب اعتناقه للمذهب اليعقوبي، أي مذهب الطبيعة الواحدة، وهو غير المذهب الرسمي للدولة البيزنطية، وكان الحارث يتولى الدفاع عن معتنقي المذهب الذي هو عليه ويسعى إلى تحريرهم من اضطهاد البيزنطيين لهم، ويقال أنه سعى لدى الإمبراطورية تيودورا في سنة (٥٤٢-٥٤٣م) لتعيين يعقوب بالبرادعي - مؤسس الكنيسة السورية اليعقوبية- ورفيقه ثيودوروس أسقفين في المقاطعات العربية في بلاد الشام، ونشر بذلك مذهب الطبيعة الواحدة في بلاده (والذي يسمى أيضاً المذهب المونوفيزيتي)، وظل الحارث طوال سني حكمه حامياً للكنيسة المونوفزنية وبذلك نجح في تحويل عرب بلاد الشام إلى متنصرة على هذا المذهب.

توفي الحارث بن جبلة سنة ٥٦٩م أو السنة التي تليها، بعد أن ظل أميراً على عرب الشام حوالي ٤٠ عاماً، قام فيها بالكثير من الأعمال الكبيرة، وربما كان ذلك هو السبب في أن نسب الكتاب العرب الكثير من أعمال ملوك الغساسنة إلى الحارث بن جبلة المشهور بابن أبي شمر، دون مراعاة التسلسل التاريخي لتلك الأحداث.

بعد وفاة الحارث انتقلت إمارة الغساسنة إلى ابنه المنذر، الذي ما أن تسلم الإمارة حتى قام بصد الغارة التي قام بها عرب الحيرة على الشام، وهزم ملكهم قابوس مرتين في سنة ٥٧٠م، ووقعت المعركة الأولى غير بعيدة عن عاصمة اللخميين، ويحدد نولدكة هذه المعركة "بيوم أباغ" الذي تغنى به الشعراء.

ويبدو أن العلاقات ساءت بين المنذر والإمبراطور البيزنطي جوستين، وقامت بينهما خلافات ومشاحنات كان من جملة أسبابها تطرف المنذر في تأييده لمذهب الطبيعة الواحدة، فقطع البيزنطيون إرسال الإمدادات إلى المنذر مدة ثلاث

سنوات، وأحس المنذر أن بيزنطة تدر مؤامرة لاغتياله، فغادر حاضرة ملكه وتوغل في البادية وأعلن العصيان على الروم. وحين علم أهل الحيرة (المناذرة) بهذه الأحداث استغلوا الفرصة وأخذوا يشنون غارات متتالية على بلاد الشام، وأوقعوا الرعب في نفوس سكان المنطقة، مما جعل الروم البيزنطيين يشعرون بالفراغ الذي خلفه المنذر فأخذوا يراسلونه مستلطفين ومعتذرين، حتى إذا ما شعروا برضائه أرسلوا إليه وسيطاً ليقنعه بترك معقله في الصحراء والعودة إلى حاضرة ملكه، فاطمئن لوعودهم وعاد المنذر إلى أرضه بعد أن عقد مع البيزنطيين صلحاً وذلك سنة ٥٧٨م.

وقد قام المنذر بزيارة الإمبراطور الجديد طيباريوس (٥٧٨-٥٨٢م) في القسطنطينية في (٨ مارس سنة ٥٨٠م)، ورافقه ابنان له في هذه الرحلة، وقد استقبل في عاصمة البيزنطيين استقبالاً حافلاً، وأنعم عليه بالتاج بدلاً من الإكليل، وكان من إنجازات المنذر في هذه الزيارة حصوله على عفو عن المضطهدين من أنصار أصحاب مذهب الطبيعة الواحدة (اليعاقبة).

ولكن العلاقات لم تلبث أن ساءت بين المنذر وبين الروم في أثناء حرب الفرس سنة ٥٨٠م، وتفصيل الأمر أن "موريقي" قائد جيش الروم آنذاك، غزا في هذا العام حدود فارس، فوجد الجسر المنصوب على نهر الفرات مهدماً مما اضطره إلى التراجع وترك الغزو، وحتى يبرر فشله أمام الإمبراطور ادعى أن المنذر كان على اتفاق سري مع الفرس وأنه هو الذي أوعز بهدم الجسر حتى لا تستطيع الجيوش البيزنطية العبور ومقاتلة الفرس، وقد أدت هذه الدسيسة إلى غضب الإمبراطور من المنذر فأوعز سراً إلى حاكم بلاد الشام البيزنطي بتدبير قتله، ولكن المنذر –إثباتاً لبراءته من هذه التهمة الملفقة– خرج وحده على رأس

جيش كبير من العرب، وأغار على بلاد اللخميين، وأحرق الحيرة، وعاد من غزوته بغنائم كثيرة. ولعل هذه الغزوة كانت سبباً في أن يطلق عليه مؤرخو العرب لقب المحرق، وإن كانوا قد أطلقوه خطأً على جفنة الأصغر ابنه، وبه سمي خلفاؤه بآل المحرق[1].

لم ينجح المنذر في استعادة حسن الظن به، فالروم اعتبروا هذا النجاح الذي أصابه المنذر تحدياً سافراً لجيشهم، وعزموا على الانتقام منه، فصدرت الأوامر إلى ماجنوس حاكم سوريا الروماني بالقبض عليه، على الرغم من أن هذا الحاكم كان صديقاً للمنذر، ولم يجد ماجينوس بداً من تنفيذ الأمر، فأرسل إلى المنذر يدعوه إلى حضور حفل افتتاح كنيسة جديدة بين تدمر ودمشق، فاستجاب المنذر لهذه الدعوة، ووقع في الكمين، وتم القبض عليه وإرساله إلى القسطنطينية مع ابنين له وإحدى نسائه حيث فرضت عليه الإقامة الجبرية.

ولما انتقل العرش البيزنطي إلى الإمبراطور موريقي (٥٨٢-٦٠٢م) الذي كان يحقد أشد الحقد على المنذر للأسباب التي ذكرناها آنفاً، أمر بنفيه إلى صقلية وقطع الإعانة التي كانت تدفعها بيزنطة إلى الغساسنة كل عام.

من الطبيعي أن يؤدي هذا التصرف إلى غضب الغساسنة الشديد، فقام أولاد المنذر بالخروج على دولة الروم، فتركوا ديارهم وتحصنوا في البادية، واتخذوها مركزا لشن الغارات على حدود سورية، ينهبون ويخربون ملحقين بهم أشد الأذى. ولم يبق أمام موريقي إلا أن يعد حملة لتأديب أبناء المنذر، جعل على قيادتها الحاكم ما جينوس، وفشلت الحملة في تحقيق هدفها على الرغم من أن

(١) ابن خلدون، ج٢ ص٥٨٦.

ماجينوس تمكن بطريق الخدعة من استدراج النعمان، أكبر أبناء المنذر، والقبض عليه وإرساله أسيراً إلى القسطنطينية سنة ٥٨٣م، حيث انتهى نهاية غامضة.

وهكذا أخذت دولة الغساسنة في الضعف، وتصدع أمرها، فانقسم عرب الشام وتفرقوا إلى خمس عشرة فرقة، لكل واحدة منها رئيس أو شيخ، وانتهى أمر هؤلاء بالانحياز إلى الفرس أو الدخول في طاعة بيزنطة أو ترك حياة الجندية والتوطن في المدن والقرى في كل من العراق والجزيرة والشام. وأعقب هذه الحالة حدوث اضطرابات وفوضى في الأمن ومشاحنات بين القبائل التي أخذت تتنافس من أجل الرئاسة، الأمر الذي دفع الروم إلى تعيين حاكم جديد على هذه القبائل من آل جفنة، لما لهذه الأسرة من مكانة في نفوس العرب.

ويختلف الأخباريون العرب حول أسماء الملوك الغساسنة الذين تولوا الحكم بعد المنذر بن الحارث، في الوقت الذي لم يعد كتاب اليونان أو السريان يذكرون أخبار آل جفنة بعد هذا التاريخ، ولكن مما لا شك فيه أن من تولى من أمراء الغساسنة بعد المنذر كانوا ضعافاً وأن مدد حكمهم كانت قصيرة، وقد درس نولدكة القوائم المختلفة التي أوردها الأخباريون العرب لملوك غسان بعد الحارث، ونقدها وحللها وخرج بالقائمة الآتية[1]:

١-أبو شمر جبلة (حوالي سنة ٥٠٠م).

٢-الحارث بن جبلة (٥٢٩-٥٦٩م).

٣-أبو كرب المنذر بن الحارث (٥٦٩-٥٨٢م).

٤-النعمان بن المنذر (٥٨٢-٥٨٣م).

---

(١) نولدكه ص٥٧، جواد علي ج٤ ص١٥٥.

٥-الحارث الأصغر بن الحارث الأكبر.

٦-الحارث الأعرج بن الحارث الأصغر.

٧-أبو حجر النعمان (٥٨٣-٦١٤م).

٨-عمرو ... ؟

٩-حجر بن النعمان.

١٠- جبلة بن الأيهم (حوالي سنة ٦٣٥م).

وجبلة بن الأيهم هذا هو الذي حارب الفرس إلى جانب الإمبراطور هرقل حين قام هذا الإمبراطور بحملاته المشهورة ضد فارس لاسترداد الأراضي التي اغتصبوها من الإمبراطورية البيزنطية في بلاد الشام وغيرها ولإعادة الصليب المقدس الذي نهبه الفرس في إحدى حملاتهم السابقة، ولما ظهر الإسلام واندفاع المسلمون خارج جزيرتهم يدكون عروش الأكاسرة والقياصرة ويقيمون صرح دولتهم الجديدة، وقف الغساسنة إلى جانب الروم في حروبهم ضد المسلمين، وفي سنة ٦٣٤م أوقع بهم خالد بن الوليد في معركة جرت في "مرج الصفر" جنوبي دمشق، كما قاتلهم خالد في "دومة الجندل" وقد انضم جبلة إلى المسلمين وأعلن إسلامه، وزار المدينة وقابل الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه ثم ما لبث أن ارتد عن الإسلام وعاد إلى نصرانيه ولحق بأرض الروم، وذكر ابن قتيبة أنه أسلم في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه ثم تنصر بعد ذلك، وأن سبب تنصره "أنه مر في سوق دمشق فأوطأ رجلاً فرسه، فوثب الرجل فلطمه، فأخذه الغسانيون فأدخلوه على أبي عبيدة بن الجراح، فقالوا: هذا لطم سيدنا، فقال أبو عبيدة بن الجراح: البينة أن هذا لطمك، قال: وما تصنع بالبينة، قال: إن كان لطمك لطمته بلطمتك. قال: ولا يقتل، قال: لا، قال: تقطع يده، قال:

لا، إنما أمر الله بالقصاص، فهي لطمة بلطمة، فخرج جبلة ولحق بـــأرض الـــروم ولم يزل هناك إلى أن هلك"[1].

---

(١) كتاب المعارف، ص٢١٧.

# المبحث الرابع

# المناذرة (مملكة الحيرة)

كانت بادية العراق مفتوحة لهجرات العرب المقيمين بأطراف شبه الجزيرة العربية أو الوافدين من بلاد العرب الجنوبية، وكانت هجرات هذه القبائل إلى العراق تزداد عندما تكون الحكومات هناك ضعيفة لا تستطيع الذود عن حدودها، خاصة وأن هذه القبائل تستطيع التوغل عبر البادية دون أن تصادف ما يعيق سيرها، ولم يكن هناك إلا نهر الفرات الذي يفصل المناطق الخصبة عن الصحراء ويقف حاجزاً أمام تقدم القبائل إلى الداخل، وفي أواخر أيام الدولة البرثية، أي في فترة ضعف هذه الدولة، أخذت القبائل القيمة في غربي الفرات، والتي تمر من مناطق سكناها الطرق التجارية المارة بين سوريا والعراق عبر وادي الفرات تتمتع باستقلال كبير، نظراً لضعف البرثيين من جهة، والثراء الذي تدفق عليها نتيجة عملها كحامية للقوافل التجارية المارة من جهة أخرى. وقد أدى سقوط مملكة تدمر والاضطرابات التي تلت سقوط البرثيين وقيام الدولة الساسانية من بعدهم، إلى تألق نجم مملكة عربية على شاطئ الفرات الأيمن، على مقربة من الكوفة، هي مملكة الحيرة.

كانت مملكة الحيرة تقوم بدور فعّال، دور الحاجز بين العرب والفرس، فضلاً عن كونها دولة عازلة بين الروم والفرس، وكانت مملكة مهمة من الناحيتين السياسية والحضارية، فقد كانت تصنّف ضمن الممالك الأربع التابعة التي كانت تحويها كل الإمبراطورية، وكان ملكها يلقب بلقب "شهداران"، أما

دورها الثقافي والحضاري فيبدو عظيماً إذ نصبَّت نفسها مركزاً للشعر العربي الأصيل وملتقى لتأثيرات مختلفة كذلك. أما على الصعيد الديني فقد تعايشت فيها الوثنية العربية والمانوية والمزدكية والنسطورية والمذهب التوحيدي لطبيعة السيد المسيح عليه السلام.

أما عن أصل التسمية (الحيرة) فتقول الروايات العربية أن عابر والد قحطان (وهو هود) هو الذي يحر الحيرة بمعنى أنه هو الذي مدنها أو مصرها، ويذهب معظم المستشرقين إلى القول بأنها "حرتا Harta" السريانية الأصل، ومعناها المخيم أو المعسكر. وقد اشتهرت الحيرة عند العرب بأنها بلد طيب الهواء حتى أنهم قالو: "يوم وليلة بالحيرة خير من دواء سنة". ويبدو أن الحيرة مدينة قديمة، إلا أن تاريخها قبل الميلاد غامض وغير معروف، ولم يرد لها ذكر في نص تاريخي مدون أو منقوش من العصور السابقة للميلاد. ويرجع بعض الأخباريين عهدها إلى أيام بختنصر، فهو في رأيهم مؤسسها، ومؤسس الأنبار أيضاً.

وأما عن مجتمع الحيرة فكان ينقسم إلى طبقات ثلاث:

١-تنوخ:

من سكان المظال وبيوت الشعر والوبر في غربي الفرات من الحيرة إلى الأنبار، ولم يقصد بهم قبيلة معينة.

٢-العباد:

هم الذين سكنوا رقعة الحيرة فابتنوا بها، فهم إذن حضر مستقرون، ويقول أغلب الأخباريين عنهم أنهم كانوا من النصارى، وأصل كلمة "العباد" على ما يقول الأخباريون مختلف فيه، فبعضهم يرى أنهم سموا بالعباد لأن وفداً منهم

وفد على كسرى، ولما سألهم عن أسمائهم وجد أنها تبتدئ بكلمة "عبد" فقال لـــهم: أنتم عباد كلكم، فسموا بالعباد، ويقول آخرون إنهم إنما سموا بهذا الاســـم لأنـــهم كانوا يعبدون الله.

ويقول جواد علي: إن هذا الاسم لم يكن يعني قبيلة أو بطناً، وإنما يعنـــي جماعة من قبائل شتى جمعت بينهم وحدة الدين ووحدة الوطن، لذلك لم يطلــق إلا على النصارى من أهل الحيرة، أما غيرهم من نصارى العرب، فلم يشملهم اســـم العباديين، ويمكن أن نقول استناداً إلى روايات الأخباريين في تحديد مدلول الكلمـــة واقتصارها على نصارى الحيرة دون غيرهم من نصارى العرب، إن هذه الكلمـة أطلقت في الأصل على من تنصّر من أهل الحيرة ليميزوهم عـــن غـيرهم مـــن سكان المدينة (أي مدينة الحيرة) من الوثنيين، ولم يكن أولئك النصارى في بـــادئ أمرهم بالطبع إلا فئة قليلة، ثم توسعت من بعد، فلما انتشـــرت النصرانيـــة فـــي الحيرة لازمت هذه التسمية جميع نصاراها، كائناً من كانوا، وصارت علما لـــهم، لم تميزهم عن الوثنيين فحسب، وإنما ميزتهم أيضاً عن بقية النصارى العرب مـــن غير أهل الحيرة[1].

٣-الأحلاف:

هم بقية سكان الحيرة ومن نزل فيها من العرب، ولم يكن في الأصـــل لا تنوخياً ولا من العباد. وكان بين سكان الحيرة جماعات من النبـــط (وهـــم بقايـــا سكان العراق القدماء، وهم طبعاً غير الأنباط سكان البتراء) وكذلك من الفـــرس واليهود.

---

(١) جواد علي، ج٤ ص١٥-١٦.

## أشهر ملوك الحيرة:

يعرض علينا الكتاب العرب قوائم لملوك الحيرة يعددون فيها أكثر من أربعمائة سنة، ولكن على الرغم من محاولتهم ترتيبهم وتحديد تواريخ ملكهم بالنسبة لملوك فارس، فإن الملاحظ هو أن كثيراً من هؤلاء الملوك يشتركون في الأسماء نفسها، فالمنذر يتكرر خمس مرات، والنعمان ثلاث مرات، وعمرو ثلاث مرات، وامرئ القيس ثلاث مرات، مما يحتمل معه أن تكون الأحداث قد تكررت مع تكرار الأسماء أكثر من مرة، ومثل هذا حدث بالنسبة للغساسنة الذين امتد ملكهم عند الكتاب العرب القدماء إلى حوالي ٦٠٠ سنة، بينما أثبت المؤرخون المدققون أن الأمر لا يتعدى مائتي سنة على أكثر تقدير، وفي هذا الصدد نلاحظ أن هناك من ملوك المناذرة من ينسب إليه في الروايات العربية أنه حكم أكثر من مائة سنة، وهذا ما لا يطابق الحقيقة ويندرج في نطاق أسطرة الأحداث التاريخية التي يكتنفها الغموض.

ويجمع المؤرخون العرب على أن أول من حكم من بني تنوخ كان مالك ابن فهم، وهو في نظرهم من الأزديين، وكانت مدة حكمه عشرين عاماً، وقد انتقل الملك من بعده إلى أخيه عمرو بن فهم، أو إلى جذيمة الأبرش المعروف بجذيمة الوضاح، بحسب تعدد الروايات، ويبدو أن الأخبار عن مالك وأخيه عمرو قليلة جداً، فلم يصلنا عنهم شيء مهم أو مفصل، وجل ما وصلنا عن الاثنين متناقض وأقرب إلى الأسطورة منه إلى التاريخ الحقيقي، أما جذيمة الأبرش فقد كان حظه عند الأخباريين أوفر، فقد تحدثوا عنه ورووا أخباره بشيء من التفصيل.

جذيمة الأبرش هو جذيمة الصباح بحسب رأي بعضهم، وأبوه هو مالك بن فهم بن غانم بن دوس الأزدي، وهناك من يرفع نسبه إلى كهلان بن سبأ، ويرفعه آخرون إلى العرب العاربة الأولى من بني وبار بن أميم بن لوذ بن سام بن نوح. وقد بالغ الأخباريون في مدحه، فيقول عنه الطبري أنه كان: "من أفضل ملوك العرب رأياً، وأبعدهم مغاراً، وأشدهم نكاية، وأظهرهم حزماً، وأول من استجمع له الملك بأرض العراق، وضم إليه العرب، وغزا بالجيوش"[1] ويعللون تلقبه بالأبرش والوضاح أي الأبرص ببرص كان به، "فكنت العرب عنه وهابت العرب أن تسميه به وتنسبه إليه، إعضاماً له، فقيل جذيمة الوضاح، وجذيمة الأبرش. وكان ملكه على رأي الطبري فيما بين الحيرة والأنبار وبقة وهيت وناحيتها، وعين التمر وأ"راف البر إلى الغمير والقطقطانة، وخفية وما والدها[2]. أما بقة فتقع بين الأنبار وهيت، على نهر الفرات[3]، وهيت مدينة قديمة أسست في عصر يسبق الميلاد بقرون[4]، والقطقطانة موضع قرب الكوفة من جهة البرية بالطف[5]، وخفية أجمة في سواد الكوفة[6]، وعين التمر بلدة على الأنبار

---

(١) الطبري، ج١ ص٦١٣.

(٢) المصدر السابق: ج١ ص٦١٣.

(٣) ياقوت الحموي: ج٢ ص٤٧٣.

(٤) المصدر السابق: ج٥ ص٤٢١.

(٥) المصدر السابق: ج٤ ص٣٧٤.

(٦) المصدر السابق: ج٣ ص٣٨٠.

تقع غربي الكوفة[1]. ويتبين من هذا الوصف أن هذه المملكة كانت تقوم على أرض العراق وحول نهر الفرات الأوسط.

كان لجذيمة غزوات كثيرة، فقيل أنه غزا طسماً وجديساً في اليمامة، ومن جملة أخباره أنه تنبأ وتكهن، وعمل صنمين يقال لهما الضيزنين، وضعهما بالحيرة في مكان معروف، وكان يستسقي بهما ويستنصر بهما على العدو[2].

يذكر الطبري أنه كانت تقوم بين جذيمة وبين بني إياد النازلين في عين أباغ غزوات، وقد ذُكر لجذيمة مرة أنه ينزل في إياد غلام من لخم اسمه عدي ابن نصر بن ربيعة، وبنو إياد هم أخوال عدي هذا، فلما بلغ جذيمة أمرُ هذا الغلام أراد أن يستقدمه، فغزاهم جذيمة، ولكنه لم يستطع أن يظفر بالغلام، وحدث أن قامت بين الطرفين حرب أخرى استطاع خلالها بنو إياد أن يسقوا سدنة الضيزنين، صنمي جذيمة الخمر، وأن يسرقوا الصنمين.

ولما أصبح الصنمان في إياد راسلوا جذيمة وفاوضوه أن يردوا له الصنمين مقابل ألا يعود لحربهم أو غزوهم، فوافق جذيمة على أن يرسلوا إليه عدي بن نصر، فأرسلوه إليه مع الصنمين، فضمه إليه، وولاه شرابه، فأبصرته رقاش أخت جذيمة، فوقع من قلبها موقعاً حسناً، وعشقته، وتزوجته بحيلة احتالتها على أخيها، ومن هذا الزواج المزعوم جاء عمرو بن عدي ابن أخت جذيمة الذي خلف خاله على الملك[3].

---

(١) ياقوت الحموي، ج٣ ص١٧٦.

(٢) الطبري: ج١ ص٦١٤.

(٣) المصدر السابق: ج٢ ص٦١٤-٦١٥.

## إمارة المناذرة أو اللخميين على الحيرة:

تولى عمرو بن عدي الإمارة على عرب الحيرة والأنبار بعـــد جذيمـــة، وهو عمرو بن عدي بن نصر بن ربيعة بن الحارث بن مسعود بن مالك بن غنـم ابن ثمارة بن لخم، ولهذا فعمرو يعد مؤسساً لإمارة اللخميين في الحيرة، وهنـــاك رواية أخرى تجعل عمراً هو عمرو بن عدي بن ربيعة بـــن نصـــر، وأن جـده ربيعة بن نصر، تنبأ بغلبة الأحباش على اليمن والفرس مـــن بعدهـم، فقـــرر أن يبعث بنيه وأهل بيته إلى العراق بما يصلحهم، وكتب لهم إلى سابور ذي الأكتـــاف فأسكنهم الحيرة[1]، ولكن هذه الراوية مليئة بعنصر الخيال وفيـــها الكثـير مـــن عناصر الاختلاق والتشويق، ومن المعروف أن عمرو بن عدي ينسب إلى عـــدي ابن نصر بن ربيعة اللخمي. وعمرو هذا "هو أول من اتخذ الحيرة مـــنزلاً مـــن ملوك العرب، وأول من مجدهم أهل الحيرة في كتبهم من ملوك العرب بـــالعراق، وإليه ينسبون، وهم ملوك آل نصر"[2].

يحدثنا المؤرخون عن عمرو بن عدي فيقولون إنه كان "منفردا بملكـــه، مستبداً بأمره، يغزو المغازي ويصيب الغنائم، وتفد عليه الوفود دهره الأطـول، لا يدين لملوك الطوائف بالعراق ولا يدينون له"[3]. وقد اتبـــع سياســـة ســـلفه فـــي التحالف مع الفرس فساعده ذلك على تقوية نفوذه.

---

(١) المسعودي ج٢ ص١٩٣.

(٢) ابن الأثير ج١ ص٢٠٢.

(٣) الطبري ج١ ص٦٢٧.

كان زمن جذيمة قد شهد سقوط دولة البارثيين وقيام الدولة الساسانية في بلاد فارس، وتذكر المصادر أن اردشير بن بابك مؤسس الدولة الساسانية بعد أن ضبط أمور بلاده الداخلية التفت إلى العراق فوجد أنه يحوي كثرة من قبائل تنوخ فكره ذلك وأخذ يضيق عليها الخناق حتى يتركوا مواقعهم في العراق ويهاجروا منها، وفعلاً خرج منهم من كان من قبائل قضاعة الذين كانوا قد أقبلوا مع مالك وعمرو ابني فهم، و مالك بن زهير وغيرهم، ولحقوا بالشام إلى من هناك من قضاعة فانضموا إليهم. ولم يزل عمرو بن عدي ملكا على الحيرة حتى مات وهو ابن مائة وعشرين سنة على ما يزعم الطبري[1]، وكان حكمه خمساً وخمسين سنة.

تولى الحكم بعد وفاة عمرو ابنه امرؤ القيس، ويعرف بامرئ القيس البدء أي الأول، وهو أول من تنصر من ملوك آل نصر بن ربيعة، ويقال أنه ملك ١٤ سنة، وأنه عاصر جملة من ملوك الفرس هم: سابور بن اردشير، وهرمز بن سابور، وبهرام بن هرمز، وواضح أن مدة حكم امرئ القيس البدء على ما رواه ابن الكلبي مبالغ فيها، في حين ذكر اليعقوبي أنه حكم ٣٥ سنة[2].

ويبدو أن ملك امرئ القيس البدء كان عظيماً ويمتد "على فرج العرب من ربيعة ومضر وسائر من بادية العراق والحجاز والجزيرة". ونص النمارة الذي عثر عليه في جبل حوران يتضمن هذه الألقاب إذ نقرأ فيه "هذا قبر امرئ القيس بن عمرو ملك العرب كلهم الذي تقلد التاج وأخضع قبيلتي أسد ونزار وملوكهم وهزم مدحج إلى اليوم وقاد على الظفر إلى أسوار نجران مدينة شمر وأخضع

---

(١) الطبري ج١ ص٦٢٧.

(٢) اليعقوبي ج١ ص١٧٠.

معدا واستعمل بنيه على القبائل وأنابهم عنه لدى الفرس والروم، فلم يبلغ ملك مبلغه إلى اليوم"(١). وقد توفي هذا الملك في حوران سنة ٣٢٨م.

بعد امرئ القيس البدء أو الأول حكم ابنه عمرو بن امرئ القيس، وأمه هند بنت كعب على إحدى الروايات، أو مارية البرية على رواية أخرى. ويعتقد أن عمروا هذا كان يعاصر من ملوك الفرس سابور ذا الأكتاف وأخاه اردشير بن هرمز وبعض أيام سابور بن سابور، وقد حكم على ما يذكر بعضهم خمسا وعشرين سنة، وكان محاربا جريئا له غزوات وفتوحات(٢).

ترد في المصادر أسماء عدة ملوك لخميين حكموا الحيرة بعد عمرو بن امرئ القيس، ولكن دون أن تتفق هذه المصادر على تواليهم أو أسمائهم أو مدة حكمهم. كما أن الصفة الخرافية هي الغالبة على الروايات الواردة عنهم، وقد حكم هؤلاء الملوك حتى أواخر القرن الرابع الميلادي(٣).

في أواخر القرن الرابع الميلادي يطل علينا اسم ملك لخمي مهم هو "النعمان الأول بن امرئ القيس الثاني" الذي حكم بين (٣٩٠-٤١٨م)، وقد حظي بشهرة كبيرة بين ملوك بحيرة، فهو النعمان الأعور، وهو النعمان السائح، لأنه زهد في الدنيا في آخر عمره، فتخلى عن الملك وليس المسوح وساح في الأرض. وذلك بعد ٢٩ سنة وأربعة أشهر من الحكم، وشهرته أيضا تتأتى من أنه هو الذي بنى "الخورنق" و"السدير"(٤)، وربما قصر الخورنق فقط، الذي اشتهر في

---

(١) رينيه رسو: العرب في سوريا قبل الإسلام ص٣٦.

(٢) الطبري ج٢ ص٦٢.

(٣) حول هذا التباين في الروايات، أنظر: اليعقوبي، المسعودي، الطبري، ابن الاثير.

(٤) اليعقوبي، ج١ ص١٧٠، ابن قتيبة ص٢١٨.

كتب الأدب والتاريخ، ويتحدث الطبري عن سبب بنائه للخورنق فيقول: "وكان سبب بنائه الخورنق، فيما ذكر، أن يزدجرد الأثيم بن بهرام كرمان شاه بن سابور ذي الأكتاف، كان لا يبقى له ولد، فسأل عن منزل بريء مريء صحيح من الأدواء والأسقام، فدل على ظهر الحيرة، فدفع ابنه بهرام جور إلى النعمان هذا، وأمر ببناء الخورنق مسكناً له، وأنزله إياه[1].

وهناك قصة معروفة في كتب الأدب والتاريخ تمتاز بالطرافة عن بناء هذا القصر، فتذكر الروايات العربية أن شخصا اسمه سنمار، وهو على ما يذكر بعضهم، بنّاء رومي، كلفه النعمان ببناء القصر، فلما فرغ منه تعجبوا من حسنه واتقان عمله، فقال لهم سنمار: "لو علمت أنكم توفونني أجري وتصنعون بي ما أنا أهله بنيته بناء يدور مع الشمس حيث دارت، فقال: وإنك لتقدر على أن تبني ما هو أفضل منه ثم لم تبنه، فأمر به فطرح من رأس الخورنق" ومن هذه القصة جاء المثل الشهير: جزاء سنمار!.

لقد نال النعمان الأكبر من الشهرة ما لم ينله أحد من ملوك الحيرة قبله أو بعده، ويبدو أن النعمان كان جديراً بهذه الشهرة، فقد وصفه الأخباريون بأنه كان صارماً حازماً ضابطاً لملكه وأنه اجتمع له من الأموال والأتباع والرقيق ما لم يملكه أحد من ملوك الحيرة، وكان أشد الملوك العرب نكاية بالأعداء، وأبعدهم مغاراً، وغزا الشام مراراً كثيرة وأكثر المصائب في أهلها وسبى وغنم، وكان يستعمل في هجومه على الشام كتيبتيه: الدوسر وأهلها من تنوخ والشهباء وأهلها من الفرس، وقد اشتهرت كتيبة الدوسر بشدة بطشها حتى ضرب بها المثل فقيل:

---

(١) الطبري ج٢ ص٦٥.

أبطش من دوسر، ويذهب بعضهم إلى حد القول أن جيشه كان يتكون من خمس كتائب: منها: الأشاهب وكتائب ثلاث أخرى هي:

الرهائن: وكانوا خمسمائة رجل رهائن لقبائل العرب يقيمون على باب الملك سنة، ثم يحل ملحهم خمسمائة آخرون في فصل الربيع، فكان الملك يغزو بهم ويوجههم في أموره.

الصنائع: وهم بنو قيس وبنو تيم اللات بن ثعلبه، وكانوا خواص الملك لا يبرحون بابه.

الضوائع: كانوا ألف رجل من الفرس يضعهم ملك فارس في الحيرة نجدة لملوك العرب، وكانوا يرابطون أيضاً لمدة سنة، ثم يأتي بدلهم ألف جدد، وينصرف أولئك[1].

وقد خلف المنذر الأول (٤١٨-٤٦٢م) أباه النُعمان على العرش، وكانت له منزلة رفيعة عند الملك الفارسي يزدجرد، حتى أنه "شرفه وأكرمه، وملكه على العرب" وأمر له بصلة وكسوة بقدر استحقاقه لذلك في منزلته، وقد فوض يزدحرد المنذر بحكم جميع العرب[2].

لقد كان للمنذر دور مهم في الحروب التي وقعت بين الروم والفرس بعد مدة قصيرة من تولي بهرام جور، ابن يزدحرد، العرش وكانت مشاركته بطلب من بهرام جور، الذي أراد أن يستعين بالمنذر ليخفف ضغط الروم عليه، وفعلاً شاركت جيوش المنذر في هذه الحملة، إلا أنها أصيبت بكارثة اضطرتها للتراجع

---

(١) جواد علي، ج٤ ص٣٨.

(٢) المصدر السابق، ج٤ ص٤٤.

والعودة إلى الحيرة، فقد غرق منهم خلق كثير في أثناء عبورهم نهر الفرات، وقد جرت هذه المعارك حوالي سنة ٤٢١م، وفي السنة التالية تجددت المعارك أيضاً بين الفرس والروم، وشارك فيها المنذر أيضاً، ولكن كان نصيبه فيها كنصيبه في العام الفائت.

حكم مملكة الحيرة بعد المنذر ابنه الأسود، وكان يعاصر من ملوك فارس فيروز بن يزدجرد، وبلاش بن فيروز وقباذ بن فيروز، وهناك من يقدر مدة حكم الأسود بعشرين عاما (٤٧١-٤٩١م). وقد وقعت بين الأسود والغساسنة حروب كان النصر فيها له، حتى أنه أسر عدداً من ملوكهم، كما أنه غزا بني ذبيان وبني أسد وأوقع فيهم، ولسنا نعرف الشيء الكثير عن نهايته سوى ما يذكره الطبري من أنه ظل أسيراً في فارس لمدة عشرين سنة[1].

وتتالى بعد ذلك عند المؤرخين أسماء الملوك اللخميين من بينهم المنذر بن المنذر (٤٩١-٤٩٨م) والنعمان بن الأسود (٤٩٨-٥٠٢م) وأبو يعفر بن علقمة الذميلي (٥٠٢-٥٠٥م) وامرؤ القيس الثالث بن النعمان (٥٠٥-٥١٢م)، وليس هناك من التفصيلات ما يستحق الذكر عن هؤلاء الملوك، حتى تحل ولاية المنذر بن ماء السماء.

يعرف المنذر بن امرئ القيس (٥١٢-٥٥٤م) عند الأخباريين بالمنذر بن ماء السماء، كما يعرف أيضاً بذي القرنين، وماء السماء هو لقب أمه مارية بنت عوف بن جشم بن هلال بن ربيعة بن زيد مناة بن عامر الضحيات بن الخزرج

---

(١) الطبري ج٢ ص٩٠.

بن تيم الله ابن النمر بن قاسط، وقد سميت بماء السماء لجمالها وسبب تسميته بذي القرنين فيرجع إلى ظفيرتين برأسه من شعره.

كان المنذر بن ماء السماء محارباً شجاعاً، قضى مدة حكمه في غزو بلاد الروم والإغارة على بعض القبائل العربية، ففي سنة ٥١٩م أغار على بلاد الروم، وتمكن في بعض حروبه من أسر قائدين هما ديموستراتوس ويوحنا، فأرسل إليه الإمبراطور البيزنطي جستين وفدا من إبراهام وشمعون الأرشامي وسرجيوس أسقف الرصافة سنة ٥٢٤م للمفاوضة في إطلاق سراح القائدين المذكورين، وفي سنة ٥٢٨م هاجم المنذر بلاد الروم مؤيداً الفرس، وتوغل في بلاد الشام، وغنم غنائم كثيرة، ثم عاود غزوه لبلاد الشام في العالم التالي، وتقدم حتى بلغ حدود انطاكية، ولم تنقطع المناوشات بين المنذر وبين الحارث الجفني بسبب تنازعهما على الأتاوة التي كانت تجبى من عرب منطقة تدمر، ولم تنته هذه الحروب إلا بمصرع المنذر بن امرئ القيس في موقعة حليمة أو موقعة خيار سنة ٥٥٤م[١].

ويروي الأخباريون أن المنذر بن ماء السماء هو صاحب الغَريين اللذين بناهما بظاهر الحيرة، والسبب في ذلك كما يقول الأخباريون أنه كان له نديمان من بني أسد شربا مرة فثملا فراجعاه في بعض كلامه فأمر وهو سكران أن يحفر لها حفرتين في ظهر ظهر الكوفة ودفنهما حيين، فلما أصبح استدعاهما، فأخبر بالذي أمضاه فيهمان فغمه ذلك، وقصد حفرتيهما، وأمر ببناء طربالين عليهما وهما صومعتان، فقال المنذر: ما أنا بملك إن خالف الناس أمري، لا يمر

---

١) جواد علي، ج٤ ص٥٣.

أحد من وفود العرب إلا من بينهما، وجعل لهما يوم في السنة يوم بؤس ويوم نعيم، يذبح في يوم بؤسه كل من يلقاه ويغرّي بدمه الطربالين، ويحسن في يوم نعيمه إلى كل من يلقى من الناس ويحملهم ويخلع عليهم.

وفي أيام المنذر، وقع الاحتلال الحبشي لليمن، الذي تحدثنا عنه سابقاً، فاتسع بذلك نفوذ الروم في بلاد العرب، وذلك لما بين الأحباش والروم من تحالفات ومصالح، فضلاً عن تدينهما بدين واحد، وفي سنة ٥٤٥م وقعّت فارس وبيزنطة هدنة جديدة مدتها خمس سنوات، ولكن هذه الهدنة لم تؤد إلى توقف المناوشات بين الحارث بن جبلة والمنذر بن ماء السماء، على أن الدولتين الكبيرتين، لم تتدخلا في هذه المنازعات المحلية تدخلا مباشراً، وتمكن المنذر في إحدى المرات من أسر ابن الحارث فقدمه للإله العزى، وكان رد الحارث على هذا الحادث أن جمع قوات كبيرة واشتبك مع المنذر في حرب طاحنة كان النصر فيها له وأسفرت عن أسر ولدين من أولاد المنذر وقتل عدد كبير من جنوده وفراره ناجياً بنفسه[1].

خلف المنذر بن ماء السماء على ملك الحيرة بعد وفاته ابنه عمرو بن هند (٥٤٤-٥٧٤م) وقد لقب عمرو بنت هند نسبة إلى أمه هند بنت عمرو بن حجر آكل المرار الكندي، فهو كندي من جهة أمه، ويعرف عمرو أيضاً بعمرو مضرط الحجارة إشارة إلى قوته وشدة بأسه، ويذكر الأخباريون أن عمرو قضى حياته يحارب العرب والروم، ويذكرون أنه غزا تميما في دارها فقتل من بني دارم ١٥ شخصا في يوم أوارة الثاني، وذكروا أنه ألقى بالقتلى في النار ولهذا

---

(١) جواد علي، ج٤ ص٥٤.

لقب أيضاً بالمحرق. وفي سنة ٥٦٣م أغار عمرو بن هند على بلاد الشام، وكان يحكم العرب هناك الحارث بن جبلة الغساني، ثم عهد إلى أخيه قابوس بمواصلة غزو ديار الغساسنة في عامي ٥٦٦م، ٥٦٧م لتأديب الروم الذين أساءوا إلى رسوله في القسطنطينية لمفاوضة القيصر على دفع الأتاوة، ونسبت إلى عمرو جملة غزوات منها غزوه لتغلب، وغزوة لطي.

ولعمرو بن هند شهرة وأخبار مطولة في كتب الأدب، ولأكثر الشعراء الجاهليين خبر عنه، فقد كانوا يفدون إليه من مختلف أصقاع الجزيرة العربية وينشدونه الشعر وينالون أعطياته وهداياه، ويدعي بعض الأخباريين أن عمرو هذا هو الذي توسط بين بكر وتغلب وأصلح بينهما بعد حرب البسوس، ويذكر المؤرخون أن عمرو بن المنذر قتل على يدي عمرو بن كلثوم، وكان سبب قتله غروره البالغ، فقد قال لجلسائه يوماً: "هل تعلمون أن أحداً من العرب من أهل مملكتي يأنف أن تخدم أمه أمي؟ قالوا: ما نعرفه إلا أن يكون عمرو بن كلثوم التغلبي، فإنه أمه ليلى بنت مهلهل بن ربيعة، وعمها كليب وائل، وزوجها كلثوم، وأبنها عمرو، فسكت مضرط الحجارة على ما في نفسه، وبعث إلى عمرو بن كلثوم يستزيده ويأمره أن تزور أمه ليلى أم نفسه هند بنت الحارث، فقدم عمرو بن كلثوم في فرسان بني تغلب ومعه أمه ليلى، فنزل على شاطئ الفرات، وبلغ عمرو بن هند قدومه، فأمر فضربت خيامه بين الحيرة والفرات، وأرسل إلى وجوه أهل مملكته فصنع لهم طعاماً، ثم دعا الناس إليه، فقرب إليهم الطعام على باب السراوق، وليلى أم عمرو بن كلثوم معها في القبة، وقد قال مضرط الحجارة لأمه: إذ فرغ الناس من الطعام ولم يبق إلا الطرف فَنّحي خدمك عنك، فإذا دنا الطرف فاستخدمي ليلى ومريها فلتناولك الشيء بعد الشيء، ففعلت هند ما أمرها

به ابنها، فلما استدعي الطرف، فقالت هند لليلى: ناوليني ذلك الطبق، قالت: لتقم صاحبة الحاجة إلى حاجتها. فألحت عليها، فقالت ليلى، وأذلاه يا آل تغلب، فسمعها ولدها عمر بن كلثوم، فثار الدم في وجهه والقوم يشربون، فعرف عمرو بن هند الشر في وجهه، وهرع ابن كلثوم إلى سيف ابن هند وهو معلق في السرادق، وليس هناك سيف غيره، فأخذه، ثم ضرب به رأس مضرط الحجارة فقتله، وخرج، فنادى يا آل تغلب، فانتهبوا ماله وخيله، وسبوا النساء وساروا فلحقوا بالحيرة. وإلى هذا تشير معلقة عمر بن كلثوم الشهيرة والتي مطلعها: "ألا هُبّي بصحنك فاصبحينا......[(١)]".

خلف قابوس بن المنذر أخاه عمرو بن هند على ملك الحيرة (٥٧٤-٥٧٨م) وكان أثيرا لدى أخيه الملك، حيث كان يعهد إليه بإدارة بعض شؤون الدولة، وقيادة بعض الجيوش وغير ذلك من جلائل الأعمال، وكانت مدة حكمه أربع سنين، وقد قام قابوس بعدة غارات على بلاد الشام التي كانت تحت حكم المنذر بن الحارث بن جبلة آنذاك، وقد استغل قابوس في هجومه هذا فرصة وفاة الحارث بن جبلة، فأراد أن يفاجئ ابنه المنذر قبل أن يأخذ استعداداته، ولكن المنذر بن الحارث جمع جموعه ورد على هجوم قابوس بهجوم معاكس لم يتمكن قابوس من الثبات له، وفر من ساحة المعركة باتجاه نهر الفرات تاركا وراءه عدداً كبيرة من القتلى من أمراء المناذرة، ولكن المنذر الغساني لم يقتنع، على ما يبدو، بهزيمة المناذرة بل تعقبهم حتى وصل إلى مشارف الحيرة، وهذه المعركة هي معركة "عين أباغ" بحسب رأي نولدكة، وقد حاول قابوس بعد مدة قصيرة

---

(١) ابن الأثير ج١ ص٣٣١.

من هذا الهجوم أن يرد بغارة على خصومه الغساسنة ولكن محاولته هذه بـــاءت بالفشل أيضا[1].

يبدو أن نفس قابوس ظلت تواقة للانتقام من الغساسنة، فـــاغتنم فرصـــة الخلاف الذي وقع بين الملك الغساني، المنـــذر وبيـــن الإمـــبراطور البـــيزنطي حوسيتن الثاني، فجدد غاراته على حدود الروم في بلاد الشام وتوغل فيها حتـــى استطاع أن يصل إلى حدود أنطاكية. واستمرت غارات عرب العراق على حـدود الروم في الشام مدة ثلاث سنوات، أي خلال القطعية التي قامت بين المنـــذر بـــن الحارث والبيزنطيين والتي كان خلالها المنذر بعيدا عن حاضرة ملكه مقيما فـــي الصحراء، ولما تم الصلح بين المنذر وبيزنطة عادت جيـــوش الغساســـنة إلـــى مهاجمة الحيرة.

تولى ملك الحيرة بعد قابوس المنذر بن المنذر، وقد حكـــم مـــدة أربـــع سنوات (٥٧٩-٥٨٣م) ولم يتميز حكمه بأي حدث كبير، وجاء من بعـــده ابنـــه النعمان بن المنذر الذي يعد من أشهر ملوك الحيرة[2].

كان النعمان (٥٨٣-٦٠٥م) أكبر أبناء المنذر من زوجته ســـلمى بنـــت وائل بن عطية الصائغ من أهل فدك، ونسبها بعضهم إلى كلب، وذكـــر الطـــبري أنها كانت أماً للحارث ابن حصن بن ضمضم بن عدي بن جنـــاب بـــن كلـــب، ونستدل من هذا أن أم النعمان كانت من طبقة وضيعة لا تليق بأســـرة الملـــوك، ولعلها من أصل يهودي، لأن معظم أهل فدك من اليهود، يضاف إلـــى ذلـــك أن

---

(١) جواد علي ج٤ ص٨٣.

(٢) الطبري ج٢ ص١٩٠.

جدها كان صائغاً، وهو أمر يزيد من احتمال كونها يهودية، لأن حرفة الصياغة كانت من الحرف الرئيسية التي يحترفها اليهود. ويفهم هذا المعنى أيضاً من شعر لعمرو بن كلثوم يهجو فيه النعمان ابن المنذر أن خاله كان صائغاً ينفخ الكير ويصوغ القروط، ويعرف النعمان بن المنذر بأبي قابوس، وكان النعمان أحمر الوجه، أبرشاً، قصير القامة، دميم الخلقة بخلاف أخوته الآخرين الذين كان يقال لهم الأشاهب لجمالهم(١).

كان جميع أبناء المنذر طامعين في الملك، حتى استعصى على أبيهم أن يختار واحداً من بعده، لذلك لم يصل النعمان إلى العرش بسهولة بعد وفاة أبيه، فقد نافسه الملك أخوته الثلاثة عشر، ولولا الحيلة التي ابتدعها ودربه عليها عدي بن زيد العبادي(٢) لما صار إليه الملك. ولا نعلم عن أعمال النعمان شيئاً كثيراً يتناسب مع المدة الطويلة التي حكمها، عدا بعض الغارات على حدود بلاد الشام، ولا نسمع إلا ببعض أخباره التي لها صلة بالقبائل المجاورة، وقد امتد سلطان النعمان جنوباً إلى منطقة البحرين وغربا إلى جبلي طي، وكانت قوافله التجارية تذهب إلى الحجاز، وقد أدى اتساع رقعة الأراضي التي حكمها إلى احتكاكه مع كثير من القبائل العربية، فاشتبك مع بني يربوع ومعْ بني عامر، ولم يكن المنذر موفقاً في حروبه مع العرب إذ لم يكتب له النصر في حروبه معهم.

وقد فتح النعمان بن المنذر أبواب قصره لكبار الشعراء، أمثال النابغة الذبياني والمنخل اليشكري والمثقب العبدي والأسود بن يعفر وحاتم الطائي، وعرف النعمان بأنه "صاحب النابغة" إذ كانت صلته به وثيقة للغاية، وقد جلبت

---

(١) الطبري ج٢ ص١٩٤.

(٢) أنظر التفاصيل في المصدر نفسه ج٤ ص١٩٤-١٩٥.

هذه الصلة للنابغة البلاد وأثارت أحقاد خصومه، كما حضر مجلسه طرفـــه بـــن العبد، وفي شعر هؤلاء جميعاً ذكر للنعمان وروعة بلاطه واتساع سلطانه.

تحدثت المصادر بأسهاب عن موضوع العلاقة التي ساءت بين النعمـــان وكسرى وكانت سبباً في نهايته، وقد اختلف المؤرخون في أسبابها، فمنـــهم مـــن يزعم أنها كانت بسبب سجن أبي قابوس لعدي بن زيد العبادي الذي كـــان ســـبب وصوله إلى الحكم والذي كان من المقربين إلى كسرى، وقتله إياه. وقـــد اســـتغل ذلك خصوم النعمان وأوغروا صدر كسرى عليه فقتله، ولكن الدنيوري ينفي هـــذا السبب مستنداً إلى نص رسالة من كسرى إلى ابنه توضح سبب قتـــل النعمـــان، يقول كسرى في نص رسالته إلى ابنه:

"... وأما ما زعمت من قتلي النعمان بن المنذر وإزالتي الملـــك عـــن آل عمرو بن عدي إلى إيس بن قيصة، فإن النعمان وأهل بيتـــه واطئـــوا العـــرب، وأعلموهم توكفهم (توقعهم) خروج الملك عنا إليهم، وقد كانت وقعت إليهم ذلـــك في كتب، فقتلته، ووليت الأمر أعرابيا لا يعقل من ذلك شيئاً"[1] وواضح من هـــذه الرسالة أن الذي جعل كسرى يقتل النعمان ويشتت شمل أسرته وينزع الملك منـــها هو ميولها العربية ونزعتها الاستقلالية، ولاسيما وأنه تثبت من هذه الأمور مـــن كتب وصلت إلى حوزته.

وقد أكدت المصادر موقف النعمان المتحدي للدولة الساسانية، والذي كـــان يعبر عن تبلور وعي قومي عربي في تلك الحقبة، كما كان انعطافاً خطيراً فـــي تاريخ العلاقات العربية – الساسانية التي شهدها القرن السادس الميلاد، فلقد تـــأكد

---

(١) الدنيوري، الأخبار الطوال ص١٠٩-١١٠.

للنعمان حقيقة مواقف الدولة الساسانية المناهضة للعرب، في الوقت نفسه الذي كانت فيه قوة القبائل العربية في العراق في تعاظم مستمر، تجسد من خلال وحدتها ومقاومتا للهيمنة الفارسية، لذلك اختط النعمان لنفسه سياسة جديدة هي بالتأكيد لا تنسجم والمصالح الساسانية.

فبعد أن لمس النعمان أن كسرى كان يحاول الاستخفاف بالعرب ويضمر لهم شراً للغدر بهم بعد لقاء جمعهما، أرسل إلى رؤساء القبائل العربية، واستقبلهم في قصره في الحيرة، وخاطبهم: "قد عرفتهم هذه الأعاجم وقرب جوار العرب منها، وقد سمعت من كسرى مقالات تخوفت أن يكون لها غور أو يكون أظهرها لأمر أراد أن يتخذ به العرب خولاً كبعض طماطمته في تأديتهم الخراج إليه كما يفعل بملوك الأمم الذين حوله" وأخبرهم بما دار بينه وبين كسرى من حوار يثير الريبة ويدعو إلى الحذر، وكان النعمان قد أوصاهم عندما أشار إليهم بالتوجه إلى كسرى لمقابلته: "... وإذا دخلتم نطق كل رجل منكم بما حضره ليعلم أن العرب على غير ما ظن أو حدثته نفسه، ولا تتخذلوا له انخذال الخاضع الذليل"، وعندما وصلوا المدائن واجتمعوا بكسرى وتحدث كل منهم بما كان عليه العرب من العز والإباء، وما يتمتعون به من الفصاحة والمنطق دهش كسرى وقال لمن حوله من الوزراء والمرازبة: "... ما خفت من العرب كخوفي قط منهم كاليوم وإني لأحسب الأمر الذي كنا نتوكفه من إفضاء الملك لهم قد دنا"[١].

يعلق كستر على ذلك بقوله: "ينبغي أن يكون هناك شيء من الحقيقة في شكوك كسرى"[٢] هذه، ويبدو أن الخوف من العرب قد سيطر على تفكير كسرى

---

(١) الدنيوري، الأخبار الطوال، ص١١٠.

(٢) كستر، الحيرة ومكة ص٤٢.

وبدأت شكوكه من نوايا النعمان الاستقلالية تتحول إلى حقيقة، وربما انحصر تفكيره وتخطيطه بالأسلوب أو الصيغة التي يمكن بواسطتها أن يأمن جانب العرب لذلك نراه يسرع بالتخطيط للغدر بالنعمان بن المنذر واغتياله، وقد أوكل أمر الحيرة إلى إياس بن قبصية الذي لا يتزعم عصبية قبلية تهدد النفوذ الفارسي في العراق، وبذا حاول أن يبدد أحلام العراقيين بالاستقلال في أرضهم، فكانت تلك التطورات سبباً مباشراً لقيام معركة "ذي قار" التي هزمت فيها قبائل ربيعة جيش كسرى وحققت انتصارها الباهر عليه.

## معركة ذي قار:

كانت معركة "ذي قار" تعدُّ أول مواجهة بين العرب والفرس على أرض مكشوفة وتستند أسباب نشوبها إلى تاريخ العلاقات بين الدول الساسانية ومملكة الحيرة، وهي العلاقات التي بلغت مرحلتها الأخيرة من التدهور، فقد تحدثت الروايات العربية أنه لما ساءت العلاقات بين كسرى والنعمان، كتب كسرى إلى النعمان يأمره بالقدوم إليه، فأدرك النعمان سوء المصير، فحمل سلاحه وما قوي عليه، ثم مضى لبني طي لصهر كان له فيهم، وعرض عليهم أن يمنعوه، ولكنهم أبوا خوفا من كسرى، فأخذ يطوف بقبائل العرب يطلب المنعة إلى أن نزل بذي قار في بني شيبان سراً، فلقي هاني بن مسعود بن عامر بن عمرو بن ربيعة بن ذهل بن شيبان، وكان سيدا منيعاً، فاستودعه سلاحه وأولاده، وهناك من يرى أن هاني بن مسعود هو الذي كان زعيماً لبني شيبان في هذه الحقبة، وهو الأرجح.

لقد حدث ما توقعه النعمان، فقد سجن ثم قتل بأمر من كسرى، ثم راح هذا الأخير يطالب بتركة النعمان، فأخبره إياس بن قبيصة بأنها وديعة عند بكر

ابن وائل، فأمره كسرى بضمها إليه، فأرسل إياس إلى هاني بن مسعود أو هـــاني ابن قبصة بن هاني بن مسعود يأمره برد ودائـــع النعمـــان مـــن أمـــوال ودروع وغيرها، وعدتها ثمانمائة درع، وقيل سبعة آلاف، فامتنع هاني وأبى أن يسلم مـــا استودعه النعمان، وبلغ الخبر كسرى فغضب، وهدد باستئصال بنـــي بكـــر بـــن وائل، وقد جرت بين كسرى وبين بني بكر مفاوضات وعرض عليـــهم كســـرى إحدى الشروط الآتية: الاستسلام لكسرى ويفعل بهم ما يشـــاء، أو الرحيـــل مـــن ديارهم، أو الحرب[1].

اجتمعت كلمة بني بكر على الحرب وعدم الاستســـلام، فأرســـل إليـــهم كسرى جيشاً من الفرس على رأسه الهرمز التستري المرزبان الأعظم لكســـرى وكان يقود ألف فارس من العجم، وجلابزين في ألف فارس آخرين، وإياس بـــن قبيصة في كتيبتين، هذا فضلاً عن عدد آخر من الزعماء العرب الموالين لدولـــة الفرس، وأمر أن تكون قيادة الجيش العليا لإياس بن قبيصة، كما أرســـل الفـــرس مع جيوشهم الفيلة، وجمع عرب العراق شتاتهم ورصوا صفوفهم وشـــعروا أنـــها المعركة التي ستقرر مستقبل العرب ومصيرهم، فخاضوها أياماً، وخاضها إلـــى جانب بني بكر وزعيمهم هاني، بنو عجل وبنو إياد، الذين في حلف مع الفـــرس، نقضوه وقاتلوه إلى جانب أبناء جلدتهم، وكذلك بنو شيبان وغيرهم مـــن القبـــائل، وكان النصر في النهاية للعرب، وفي هذا النصر يقول الرسول محمـــد ﷺ "هـــذا أول يوم انتصفت العرب فيه من العجم وبي نصروا" وقد سميت هـــذه المعركـــة بمعركة ذي قار نسبة إلى ماء لبكر بن وائل جنوب الكوفة[2].

---

(١) الطبري ج٢ ص١٩٣.

(٢) المسعودي ج١ ص٢٧٨، الطبري ج٢ ص٢٠٦، ياقوت ج٤ ص١٩٣، مادة "قار".

أما تاريخ حدوث هذه المعركة فقد اختلف المؤرخون فيه، فمنهم من جعلها يوم ولادة الرسول ﷺ، أو بعد أن هاجر النبي إلى يثرب، وبعضهم يحددها بعد وقعة بدر بأشهر، وبعضهم يجعلها عند منصرف الرسول من وقعة بدر، وآخرون يرون أنها حدثت لتمام أربعين سنة من مولد الرسول، وهو بمكة بعد أن بعث، وقد أدى الاختلاف في تاريخها من قبل الأخباريين، إلى تخبط المستشرقين والمؤرخين المحدثين كذلك، فهي قد حدثت عند بعضهم سنة ٦٠٤م أو ٦٠٩م أو ٦١٠م أو ٦١١م، والمرجح أن تاريخها كان بين سنة ٦٠٨م و٦١٠م[1].

ومهما يكن من أمر، فإن لهذه المعركة أهمية كبرى في التاريخ العربي والإسلامية، فهي أول معركة تنتصر فيها القبائل العربية على الجيش الفارسي، وقد منحهم هذا النصر ثقة كبيرة بأنفسهم، وتجرأت القبائل العربية الأخرى على رفض الهيمنة الفارسية وأخذت تهاجم قواتهم على أرض العراق بشكل منظم ومستمر، فكانت تلك الغارات بمثابة مقدمات لحركة الفتوح العربية الإسلامية، التي انطلقت مع الإسلام لتكتسح إمبراطورية الساسانيين وتقضي عليها إلى الأبد.

من نتائج معركة ذي قار قيام الفرس بإقصاء إياس بن قبيصة عن حكم الحيرة وتعيين حاكم فارسي يحكمها حكما مباشرا هو آذابه بن ماهان (٦١٤-٦٣١م)، وعلى الرغم من أنه حكم سبع عشرة سنة إلا أن المصادر لا تتحدث عنه بشيء، ويبدو أن سلطته اقتصرت على الحيرة فقط، ذلك أن بكر بن وائل منذ انتصرت في ذي قار أصبحت لا ترتبط بالدولة الساسانية بشيء، ويبدو أنها استقلت في منطقة البحرين، التي كانت تابعة لحكومة الحيرة في عصر المناذرة،

---

(١) أنظر: ياقوت الحموي ج٤ ص٢٩٤، المسعودي ج١ ص٢٧٨، جواد علي ج٤ ص١٠٤.

مع استمرار وجود بكر الكثيف على أرض العراق، كما حذت بعض قبائل العرب الأخرى حذر بكر بن وائل في الاستقلال ورفض الهيمنة الفارسية عليها، بسبب انقطاع الحكم العربي عن مملكة الحيرة، وبسبب ضعف الدولة الساسانية وانشغالها بأزماتها ومشاكلها الداخلية [1].

يبدو أن انقلابا سياسياً حدث في الحيرة في السنة الأخيرة من حكم آذاذبة الفارسي، فولى عرب الحيرة على أنفسهم ابناً للنعمان الأخير هو المنذر (المغرور)، فقد كانت العناصر العربية في الحيرة ما زالت تحتفظ بقوتها، وظهر منهم في العصر السابق مباشرة على الفتح العربي الإسلامي شخصيات عظمى مثل عبد المسيح بن عمر بن قيس بن بقيلة وغيره.

وقد استغل عرب الحيرة فرصة الفتن التي كانت تمزق الدولة الساسانية وعزلوا آذاذبة وأقاموا المنذر المغرور، غير أن المنذر لم يلبث أن فزع عندما بلغه خروج جيوش المسلمين إلى العراق، ويبدو أنه عزله من الحيرة إما بإيعاز من كسرى أو نتيجة ثورة قام بها أهل الحيرة، فمضى إلى البحرين، فوصلها في الوقت الذي ارتد فيه أهلها من ربيعة وقيس بن ثعلبة، فأمّروه عليهم، وزحف المنذر بمن أنضم معه من عرب ربيعة حتىنزل "جواثا" حصن البحرين، وفيها هزم جيوش المسلمين بقيادة العلاء بن الحضرمي، فلجأ المسلمون إلى الحصن، وحاصرهم، والحطم وهو شريح بن ضيعة بن عمرو بن مرثد من بني قيس بن ثعلبة، ولكن العلاء خرج من الحصن بغتة بمن معه من المسلمين واشتبك مع الحطم والمنذر في قتال عنيف انتهى بهزيمة الحطم ومقتله، ثم فر المنذر بمن

---

(١) الطبري، ج٢ ص٢١٣.

معه من فلول ربيعة إلى موضع الخط، ولكن العلاء أدركه وقتله هناك، وقيل إن المنذر نجا فدخل إلى المشقر، ثم لحق بمسيلمة وقتل معه وقيل قتل في يوم جواثا، وهكذا انتهت دولة المناذرة وزال آخر من حكم من أفرادها، أما الحيرة، فقد ظلت تنتظر مصيرها حتى وصلت طلائع الفتح العربي الإسلامي إلى غرب العراق بقيادة خالد بن الوليد، فتمكن من فتحها بعد مقاومة بسيطة، وفرض عليها مائة ألف درهم تدفعها كل عام للمسلمين، كما نصت شروط الصلح مع أهلها على أن يكونوا عيونا للمسلمين على أهل فارس، وأن لا يهدم المسلمون لهم قصراً ولا بيعة[1].

(١) البلاذري، فتوح البلدان ص٣٤٥.

# الفصل الرابع

# الحجاز قبل الإسلام

**المبحث الأول: حواضر الحجاز**

**المبحث الثاني: أحوال العرب العامة**

**المبحث الثالث: الحالة الدينية في الحجاز قبيل الإسلام**

# المبحث الأول

# حواضر الحجاز

## أولاً: مكة

**يواجه الباحث في دراسته لتاريخ الحجاز القديم صعوبات جدية لسببين:**

**الأول:** أن الحجاز -بعكس الجزء الجنوبي الغربي من الجزيرة ومن أقسامها الشمالية- أمضى قرونا طويلة من حياته في القديم وهو في شبه عزلة عن العالم المتمدن، اللهم إلا بعض ما كان له من نشاط تجاري، فجذب الحجاز، وقساوة إقليمه، وصعوبة الوصول إليه، ووعورة مسالك، كانت كلها عوامل أبعدت الطامعين من قادة الدول الكبرى في التاريخ القديم من غزو هذه البقعة من الجزيرة العربية أو محاولة ضمها إلى إمبراطورياتهم، لهذا كله عاش الحجاز حياته الخاصة بعيداً عن أضواء السياسة العالمية والاحتكاك المباشر بالدول الكبرى آنذاك، لذلك خلت مؤلفات المؤرخين الأجانب القدامى عن أية تفاصيل مهمة عن هذا البلد.

**الثاني:** أن المعلومات عن تاريخ الحجاز القديم يكتنفها الغموض، لأنها مستقاة، في أغلب الأحيان، مما كتبه المؤلفون العرب المسلمون الذين عاشوا في القرن الثاني من الهجرة/ الثامن للميلاد وما بعده، ولما كان هؤلاء يعيشون في ظلال الإسلام، فكان طبيعياً، أن تتأثر نظرتهم التاريخية بواقعهم المسلم، مما جعلهم ينظرون إلى تاريخ الحجاز القديم بعين امتلأت

بنور الإسلام، ومعطيات هذا الدين، وما ينجم عن ذلك من مواقف ومن قضايا ما قبل الإسلام وأحداثه على أساس مما يتوافق ومصلحة الدين الجديد ومعاييره وقيمه(١).

ولمكة وقع خاص في نفوس العرب خاصة، والمسلمين عامة، فهي محط أنظارهم ومهوى أفئدتهم، إذ فيها أقدم مقدساتهم "الكعبة المشرفة" وفيها ولد وعاش نبينا محمد بن عبد الله ﷺ، ومنها انطلقت دعوته الكبرى في التوحيد، لذلك يصبح لزاماً على الباحث أن يتعرف على تاريخ هذه المدينة القديم، حتى يتعرف على المهد الذي درج عليه الإسلام وصاحبه ﷺ وحتى تتوضح الأطر المختلفة التي انبثقت عنها الصور الإسلامية.

**التأسيس والجغرافيا:**

ظهرت مكة إلى الوجود واشتهرت في التاريخ القديم منذ عهد سيدنا إبراهيم الخليل عليه السلام حين نزلها هو وذريته، وأحدث أول بناء فيها هو الكعبة المشرفة، التي أضفت على مكة صفة القداسة، ثم صارت من أبرز عوامل ازدهارها، وارتفاع شأنها في التاريخ سواء قبل الإسلام أو بعده.

وتنسب الروايات العربية تأسيس مكة إلى سيدنا إبراهيم عليه السلام فيذكر الأزرقي "إن الله تعالى لما بوّأ لإبراهيم مكان البيت خرج إليه من الشام وخرج معه ابنه إسماعيل وأمه هاجر، وإسماعيل طفل يرضع، ومعه جبريل يدله على موضع البيت ومعالم الحرم... حتى قدم مكة وهي إذ ذاك عضاة من سَلَم وسمر وبها ناس يقال لهم العماليق خارجاً من مكة فيما حولها والبيت يومئذ ربوة

---

(١) نبيه عاقل، مرجع سابق ص٢٢٣-٢٢٤.

حمراء... ثم انصرف إلى الشام وتركهما عند البيت الحرام، ومـــع أم اســـماعيل شنة فيها ماء تشرب منها وتدر على ابنها وليس معها زاد... حتـــى فنـــي مـــاء شنتها... فجاع ابنها فاشتد جوعه..." وكاد يموت الطفل جوعاً فأخذت الأم تنظـــر حولها باحثة عمن يسعفها أو يعطيها ما ينقذ طفلها من الهلاك جوعـــاً، وأخـــذت تنظر إلى الصفا والمروه وقالت لو مشيت بين هذين الجبلين تعللت حتى يمـــوت الصبي ولا أراه، فمشت بينهما أم إسماعيل، سبع مرات، فخرج لها جبريل (عليـــه السلام) فتبعته حتى ضرب برجله مكان البير يعني زمـــزم فظـــهر مـــاء فـــوق الأرض حيث فحص جبريل...، فحاطته أم إسماعيل بتراب ترده خشية أن يفوتـــها قبل أن تأتي بشنتها فاستقت وشربت ودرّت على ابنها." وقد أصبح بـــئر زمـــزم أساساً للعمران في تلك المنطقة.

**أصل تسمية مكة:**

اختلفت وجهات نظر الأخباريين في أصل تسمية مكة، وذهبوا في ذلـــك مذاهب شتى: فمنهم من قال أنها سميت بهذا الاسم لأنها كانت تمك الجبارين مـــن البشر أي أنها تذهب نخوتهم[1].

وقيل أيضاً إنما سميت مكة لأن العرب في الجاهلية كانوا يقولون لا يتـــم حجنا حتى نأتي مكان الكعبة فنتمك فيه، أي نصفر صغير المكاء حـــول الكعبـــة، والمكاء هو نوع من أنواع الطيور كان يأوي إلى المنطقة، فقـــد كـــان العـــرب يصفرون ويصفقون في أثناء وجودهم بها، وهناك من يرى أن سبب هذه التســـمية

---

(١) ياقوت الحموي، ج٥، ص١٨١، "مادة مكة".

هو ازدحام الناس بها في مواسم الحج والتجارة، كما حاول بعض الإخبـــاريين أن يجد

صلة بين اسمها وموقعها الجغرافي، فهي تقع بين جبلين مرتفعين عنـــها، وهي في هبطة بمنزل المكوك، وهناك تفسير لغوي على أساسه تكون مكة مشـتقة من "أمتك" من قولهم أمتك الفصيل أخلاف الناقة إذا جذب جميع ما فيـــها جذبـا شديداً فلم يبق فيها شيئاً، ولما كانت مكة مكاناً مقدساً للعبادة، فقد امتكـت النـاس أي جذبتهم إليها من جميع المناطق، وهناك من يرجع تسميتها إلى قلـــة مياهـــها حيث يقال: سميت مكة من ملك الثدي، أي مصه لقلة الماء لأنهم كانوا يمتكـــون ملك الثدي، أي مصه لقلة الماء لأنهم كانوا يمتكون الماء ويستخرجونه، أو أنـــها تمك الذنوب أي تذهب بذنوبهم كما يمك الفصيل ضرع أمه فلا يبقى فيه شيئاً[1].

وقد ورد في القرآن الكريم اسم آخر لمكة، وهو "بكة"، قال تعـــالى: ﴿إن أول بيت وضع للناس ببكة مباركا وهدى للعالمين﴾[2]، فقيل إن بكـــة هـــي موضـــع البيت، بينما المقصود بمكة ما حول البيت، بينما قال آخرون إنما سميت بكـــة لأن أقدام الحجيج كانت تبك بعضها أمام البيت، ويرى الدكتور جواد علـــي أن اســم مكة وبكة واحد، وإنما جاء هذا الاختلاف بسبب لهجة بعض القبائل العربية التـــي تبدل الميم باء[3]. وقال آخرون أن مكة ذو طوى وهو بطن الوادي وبكة موضـــع البيت، ومكة الحرم كله[4]، وقد ورد في قوله تعـــالى: ﴿وهو الذي كف أيديهم

---

(١) ياقوت الحموي، ج٥، ص١٨١– ١٨٢.

(٢) آل عمران: ٩٦.

(٣) جواد علي، المفصل، ج٤، ص١٨١.

(٤) ياقوت الحموي، ج٥، ص١٨١.

عنكم وأيديكم بما تعلمون بصيرا﴾[1]. وقد عرفت مكة أو بكة بأسماء وألقاب عديدة، سواء التي أوردها الأخباريون أو التي ذكرت في القرآن الكريم، فهي كثيرة جداً نشير إلى أهميها، فقد أطلق عليها اسم "النساسة" أو "الناسة"، و"الباسة" لأنها تبس أي تحطم الملحدين، وقيل تخرجهم، وسميت أيضاً بأم رحم وأم القرى، وقد وردت بهذا الاسم في قوله تعالى: ﴿لتنذر أم القرى ومن حولها﴾[2]، كما قيل أنها سميت معاد والحاطمة لأنها تحطم من استخف بها، وسميت البيت العتيق لأنها عتق من الجبابرة، وفي قوله تعالى ذكر بهذا الاسم: ﴿وليطوفوا بالبيت العتيق﴾[3]، وكذلك البيت المحرم في قوله تعالى: ﴿ربنا اني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم﴾[4]. وسميت أيضاً كوثي نسبة إلى بقعة كانت منزل بني عبد الدار، فضلاً عن أسماء أخرى عديدة منها: الحرم، وصلاح والعرش والقادس لأنها تقدس أي تطهر من الذنوب، كما سميت أيضاً البلد الأمين في قوله تعالى: ﴿والتين والزيتون وطور سينين وهذا البلد الأمين﴾[5]. ونعتت بالبلد فقط في الآية الكريمة: ﴿لا أقسم بهذا البلد، وأنت حل بهذا البلد﴾[6] كما سمى الكعبة البيت الحرام في قوله: ﴿جعل الله البيت الحرام قياماً للناس﴾[7]. وكل الذي يمكن أن نستفيده من هذه التسميات جميعاً التي أطلقت على مكة أننا لا نستبعد أن يكون

(١) الفتح: ٢٤.

(٢) الأنعام: ٦٢.

(٣) الحج: ٢٧.

(٤) إبراهيم: ٣٩.

(٥) التين: ١-٣.

(٦) البلد: ١-٢.

(٧) المائدة: ٩٩.

هذه التسميات جميعاً التي أطلقت على مكة أننا لا نستبعد أن يكون اسم مكة كان يعرف باسم (مكرب) أي المقدس، ثم تحول إلى مكة التي أسسها إبراهيم لتكون مقاماً دينياً مقدساً للمسلمين.

**الموقع:**

تقع مكة في بطن واد يعرف ببطن مكة في قلب الحجاز في منخفض من الأرض تحيط به التلال، ويمتد وادي مكة من الشمال إلى الجنوب، فطولها من جهة الغرب ثمان وسبعون درجة، وعرضها ثلاث وعشرون تحت نقطة السرطان في الإقليم الثاني[١]. وتشرف عليها الجبال من جميع النواحي دائرة حول الكعبة، وكانت المناطق المنخفضة نسبيا من ساحة مكة تسمى البطحاء، وكل ما نزل من عن الحرم يسمونه المسفلة وما ارتفع عنها يسمونه المعلاة، وتحيط بمكة جبال أشهرها جبل أبو قبيس وهو الجبل الأعظم ويقع إلى الجبهة الشرقية من مكة ويشرف على المسجد الحرام. وجبل قعيقعان، وجبل فاضح والمحصب، وجبل ثور والحجون وسفر وحراء ويثرب وتفاحة والمطابخ والقلق، واشتهرت مكة بشعابها التي كانت مسرحاً لحوادث جرت في فجر الإسلام فإليها لجأ المسلمون الأوائل للتعبد عن أعين الوثنيين من أهل مكة، كما أنها احتفظت بأسماء الكثير من القبائل التي أقامت بها ومنها: شعب الحجون، وشعب دار مال الله، وشعب البطاطين، وشعب قلق بن الزبيب، وشعب ابن عامر، وشعب الجور وشعب الجوف[٢].

---

(١) ياقوت، ج٥، ص١٨١.

(٢) ابن الفقيه، ص١٥. المقدسي، ص٧١. ياقوت ج٥، ص١٨١.

## المنـــــــاخ:

لما كانت مكة تقع في وادٍ غير ذي زرع[١]، فهي إذن تقع فـــي منطقـة جافة قارية المناخ، إذ تشرف عليها جبال جرد تزيد من قسوة مناخها، خاصة فـي أثناء النهار إذ تصل في أغلب أيام الصيف إلى أكثر من خمس وأربعيــن درجـة مئوية، وتهب عليها الرياح الساخنة ويبدو أن درجة الحرارة بفعل هــذه الريــاح ترتفع ارتفاعاً شديداً في الصيف، وقد كان هذا المناخ سبباً في انتشـــار الأوبئـة والأمراض. وقيل أن مرض الجدري والحصبة تفشيا في مكة والمدينة في عـــام الفيل[٢]. وقد كان الوثنيون في مكة يعذبون المسلمين الأوائل بتعريضهم لحـرارة الشمس إذا حميت الظهرة ما يدل على شدة ارتفاع الحرارة في مكة، ومـــا يكـاد ينتهي الصيف حتى يأتي الخريف، فتسقط فيه -أحياناً- الأمطار الغريـــزة التـي تكون خلال فترات قصيرة، فتسبب السيول والانجراف مما كان يشـــكل خطـراً على سكان مكة وعلى الكعبة نفسها، وقد حدث ذات مرة أن تهدمت الكعبـة فـي عهد الجرهميين إثر سيل جارف عم بقاع مكة، ثم أعادت جرهــم بنــاء الكعبـة وكذلك حدث سيل آخر في عهد خزاعة وقد عرف بسيل قـــارة وغطـت الميـاه الكعبة، حتى دعا حكام مدينة مكة وضواحيها إلى القيام بعمل السدود في الأحيـاء المرتفعة بمكة، حتى تكون حاجزاً يحميها من الســيول، وحرصـاً منـــهم علـى سلامتها.

---

(١) إبراهيم: ٣٩.

(٢) ابن هشام، ق١ ص٥٦.

تعاني مكة من مشكلة شحة شرب فيها، مما دعا بعض الأخبـاريين إلى تفسير اسم مكة بأنه مشتق من "مك" أي امتص، لقلة مائها[1]. وكـان النـاس يعتمدون في شربهم على مياه الآبار بالدرجة الأساس، وأشهر تلك الآبـار بـئر زمزم، وهناك آبار أخرى قام بحفرها أصحاب البيوت، ولم تكن فيها ميـاه جاريـة أو عيون غزيرة، على ما نرى في أماكن أخرى مأهولة. وقد كان الناس يشـربون من آبار خارجة من الحرم، ويستسقون من بئر كر آدم بـالمفجر، وبـئر خـم، وكانت لبني مخزوم[2]. وكانوا يحملون مياه هذه الآبار في المزاد والقـرب، ثـم يسكبونها في حياض من آدم بفناء الكعبة، فيرده الحاج، ولمـا انتشـرت قريـش وكثر سكانها، قلت عليهم المياه، واشتدت المؤنة في الماء، فحفرت بمكة العديـد من الآبار، فقام مرة بن كعب بن لؤي بحفر بئر بالقرب من عرفـات يقـال "رم" كما حفر كلاب بن مرة بئر خم وبئر رم والجفر بظاهر مكة. ولما تولـى قصـي رئاسة قريش حفر بمكة بئراً يقال لها "العجول" كان يردها العرب عندما يقدمـون إلى مكة فيسقون منها ويتراجزون عليها، ومن قولهم:

نروى على العجول ثـم ننطلـق ... قبل صدور الحاج من كل أُفـق

إن قصيبا قد وفى وقـد صـدق ... بالشبع للنـاس درى مغتبـق(٣)

---

(١) اليعقوبي، كتاب البلدان، ص٣١٤.

(٢) الأزرقي، ج٢ ص٦٤.

(٣) المصدر السابق: ج٢ ص٦٤.

كذلك حفر قصي بئرا عند الردم الأعلى ثم دثرت فنثلها جبير بن مطعم بن عدي بن نوفل بن عبد مناف وأحياها، وتواصلت جهود أبناء قصي في حفر المزيد من الآبار في مكة لضمان توافر الماء في مواسم الحج بشكل خاص.

**سكان مكة:**

كانت مكة في القديم موطناً للعرب العاربة من العمالة، وكان العمالقة أول من سكنها، حيث استقروا في مكة وما حولها، وقد اتضح من خلال المصادر أن المنطقة كانت عامرة، فقد كان بها العمالقة أو ¨ جرهميين الوافدين ويعرفون بـ "قطورا" ورئيسهم هو السميدع بن هوثر بن لاوي بن قطورا، وقد كان ذلك قبل إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام. ما يهمنا من الأمر أن جرهم أخذت تفد على مكة من اليمن، وسكنتها إلى جانب الجرهميين القدامى أو العمالقة من آل السميدع زعماء قطورا، وقد أصبح الحيان الرئيسيان من المدينة وهما المعلاة: ويقصد بها الأماكن المرتفعة عند سفح جبل قعيقعان لجرهم، والمسفلة أو الأبطح: ويقصد بها المواضع المنخفضة من المدينة للعمالقة، وقد كان الوافدون الجدد وعلى رأسهم المضاض بن عمرو في المعلاة يفرضون الأتاوة على من دخل مكة من حيهم، وآل السميدع يجمعون الضريبة ممن يمر بحيهم بالمسفلة، ولذلك فإن التعايش السلمي بين الجماعتين لم يدم طويلاً، فقد نشبت حرب بين الفريقين انتهت بانتصار آل المضاض بن عمرو ومقتل السميدع، وبذلك صارت مكة مملكة لجرهم الثانية، ونتيجة لهذه الحرب ترجع تسمية أشهر جبلين في مكة،

وهما قعيقعان وأجياد، فالأول نسبة إلى قعقعة السلاح، والثاني نسبة إلى الجواد بالدم في هذه الحرب(١).

ولما أسكن إبراهيم عليه السلام ولده إسماعيل مكة مع أمه هاجر، وكان موضع المكان ربوة حمراء، ثم انصرف إلى الشام وتركهما هناك وقد أمر هاجر أن تتخذ عليه سكنا لهما. وقد ذكرنا سابقاً ما ذكره الأخباريون من روايات حول قصة حفر بئر زمزم، وما كابدته أم إسماعيل من عناء بسبب العطش حتى انبثق الماء من زمزم وارتوت هاجر وابنها وأقامت حوضها حول الماء حتى لا يسيل، وقد عرف هذا المنبع ببئر زمزم، وقد مر ركب من قبيلة جرهم كانوا راجعين من بلاد الشام، وكانوا قد رأوا الطير تحوم حول موضوع الماء، فتيقنوا أن في هذا الموضع أناساً يسكنونه، فحولوا طريقهم إلى المكان الذي رأوا فيه وجود الماء، فوجدوا هاجر وابنها إسماعيل، فاستأذنوها في النزول والاستراحة والشرب من البئر فأذنت لهم بالنزول وقضاء بعض الوقت، فأعجب الركب بالمكان واستأذنوا من هاجر أن تأذن لهم بالإقامة معها فيه، فسمحت لهم بذلك، فأرسل الركب رسولاً إلى أهليهم يستقدمونهم إليهم، وبذلك استقروا مع إسماعيل وهاجر وترعرع إسماعيل بينهم وتزوج من بناتهم(٢).

لقد أصبح بئر زمزم أساساً للعمران بتلك المنطقة، وغير بعيد من هذا البئر كان هناك مكان فيه عمران قليل، وكان هذا المكان يسمى مكة، وبحكم وجود مكة في منتصف الطريق بين جنوب الجزيرة العربية وشمالها صارت مكاناً مناسباً لاستراحة القوافل، كما كان البدو يحطون بها رحالهم مدة قصيرة في

---

(١) ابن هشام، ق١، ص١١-١١٣.

(٢) أنظر الأزرقي، ج١، ص٢٤-٤٤.

أثناء تجوالهم في الجزيرة، وكان انبثاق بئر زمزم خيراً وبركة على المنطقة، فقد اتسع عمرانها وامتد حتى وصل البئر أو كاد، كما كثر زوارها الذين أخذوا يتوافدون للتبرك بماء زمزم ولرؤية إسماعيل الذي انبثق الماء تكريما له.

وبعد زمن جاء سيدنا إبراهيم من الشام لزيارة ابنه إسماعيل وزوجته هاجر، وهي الزيارة الثانية له إلى مكة، وقد رأى المكانة التي يحظى بها ابنه بين سكان مكة الجرهميين الذين استمروا يتوافدون من اليمن على المنطقة، وما أخذ إسماعيل بلسانهم العربي، فأمر ابنه أن يتزوج منهم، وقد خطب له زعلة ابنته المضاض بن عمرو، زعيم الجرهميين فزوجها له، وقد ولدت له اثني عشر ولداً ومنهم نشر الله العرب.

ويوضح لنا القرآن الكريم بأن الله قد أمر سيدنا إبراهيم ببناء الكعبة، وساعده في البناء ابنه إسماعيل حيث كان يأتي بالحجر من الجبال القريبة، وقد ذُكر ذلك في القرآن في قوله تعالى: ﴿وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم﴾(1). ولما انتهيا من بناء الكعبة ودعا سيدنا إبراهيم ربه مناجيا له بأن يجعل أفئدة الناس تهوى إلى هذا المكان، ويبسط الرزق على أهله، قائلاً كما ورد في الآيات الكريمة من سورة إبراهيم ﴿... ربنا ليقيموا الصلوة فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم، وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون، ربنا إنك تعلم ما نخفي وما نعلن وما يخفى على الله من شيء في الأرض ولا في السماء﴾، وقد استجاب الله سبحانه وتعالى لدعاء سيدنا إبراهيم عليه السلام ويتضح لنا ذلك من خلال الآيات الآتية: ﴿وإذا بوأنا لإبراهيم مكان البيت أن لا

---

(1) البقرة: ١٢٧.

تشرك بي شيئاً وطهر بيتي للطائفين والقائمين والرّكع السجود . وأذن للناس بالحج يأتوك رجالاً وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله في أيام معلومات على ما رزقهم من بهيمة الأنعام﴾[1].

وقد أرسل الله سبحانه وتعالى جبريل يعلم سيدنا إبراهيم وابنه إسماعيل كيفية الطواف حول البيت والسعي بين جبلي الصفا والمروة، وبقية مناسك الحج ثم أمرهما بأداء الصلاة، وبالمناداة على الناس إلى أداء مناسك الحج، فاستجابت أفواج كثيرة حاجين ملبين النداء من مختلف المناطق، وتولى إسماعيل وأولاده خدمه هؤلاء الوافدين حتى وافاه الأجل. وتولى بعده الحارث بن مضاض الجرهمي وهو أول من ولى البيت، واشترك معه أبناء إسماعيل في أثناء أداء الشعائر بها.

ولما طالت ولاية جرهم بغت وظلمت وفسقت في الحرم ولم يتوقفوا عن أعمالهم السيئة، وقد استمروا في طغيانهم، وفي ذلك الوقت كانت هناك قبائل يمنية من الأزد تزحف نحو الشمال على أثر ما أصابهم من خراب ودمار بعد انهيار سد مأرب وحدوث السيل العرم، وقد توقفت إحدى هذه القبائل التي تعرف بخزاعة في مكة، ونزلوا بظاهرها ولكن جرهم رفضت أن تسمح لها بالإقامة معها في مكة، وقد حدثت بينهما حرب انتصرت فيها خزاعة، وأصبحت سيادة مكة لخزاعة. ولكن مكة أصابتها الحمى آنئذ فرحل ثعلبة بن عمرو، زعيم خزاعة إلى الشام، وآلت ولاية مكة وحجابة الكعبة إلى ابن أخيه عمرو بن لحي، وقد أكدت المصادر علو مكانة عمرو بن لحي بين العرب إلاّ أن قوله أصبح دينا

(١) الحج: ٢٨.

لا يخالف، وأنه كان أول من أطعم الحجاج بمكة لحوم الإبل، كما أنه أول من غيّر دين إبراهيم ونصب الأصنام حول الكعبة -كما سنبين ذلك في نهاية هذا الفصل- وقد استمرت خزاعة في ولاية البيت نحو ثلثمائة سنة وكان آخر من ولى من خزاعة خليل بن حبشية بن سلول الذي جعل ولاية البيت إلى ابنته حبي، فقالت أنها لا تقدر على فتح الباب وإغلاقه، فجعل أبوها شأن الفتح والإغلاق إلى رجل من خزاعة يقوم لها واسمه "أبو غبشان" فكانت له سدانة الكعبة قبل قريش، وتذكر أغلب المصادر أنه اجتمع مع قصي في شرب بالطائف فأسكره قصي ثم اشترى مفاتيح البيت الحرام منه، وكان ذلك بزق خمر، وقد أشهد عليه ودفع المفاتيح إلى ابنه عبد الدار وطيره إلى مكة، فلما أفاق "أبو غبشان" ندم على البيع وقيل أنه قد ضرب به المثل في الحمق والندم فقالوا: "أخسر من صفقة أبي غبشان" وقد نشبت حرب بين خزاعة وقريش واستنجد قصي ببعض أخوته لأمه من بني عذره في الشمال، واستمرت الحرب بين الطرفين حتى تداعى القوم للصلح، وقد حكم بينهما نفر من كنانة، فقضي لقصي بولاية الكعبة، وبذلك انتصرت قريش وزال حكم خزاعة عن مكة، وآل أمر البيت ومكة إلى قريش ورثة إسماعيل الحقيقيين[١].

## قبيلة قريش:

كانت قريش تسكن مكة، ولكنهم لما كثروا وقلت المياه فيها تفرقوا في الشعاب، وقد كان كلاب بن مرة من ساداتها، وقد تزوج من فاطمة بنت سعد فولدت له عدداً من الأولاد ومن بينهم قصي، وعندما توفي والده، تزوجت أمه

---

(١) الحلبي، الشافعي، السيرة الحلبية، ج١ ص٩.

من ربيعة بن حرام العذري، وحملت قصياً معها إلى ديار بني عذرة، حيث أقامت مع زوجها، وبذلك نشأ قصي في ديار بني عذرة، وعندما بلغ مبلغ الرجولة وعرف أصله الحقيقي عاد إلى مكة، حيث نفوذ الخزاعيين فيها وملكهم خليل بن حبشية، فتزوج قصي من حبي ابنة ليل وكان يأمل أن يرث امتيازاته، وكان خليل قبل موته قد جعل مفاتيح الكعبة لأبي غبشان وبدأ قصي برمي شباكه حول أبي غبشان، فأسكره واشترى منه مفاتيح الكعبة بزق خمر كما بينا سابقا. وبذلك انتزع قصي ولاية البيت من خزاعة، بعد أن حكمتها لمدة ثلاثة قرون، وإلى قصي يرجع الفضل في جمع أفراد قريش المبعثرين في نواحي متعددة من وادي مكة، وترتيبها على منازلها بمكة، وقد جعل لكل بطن حياً خاصاً به على مقربة من الكعبة، وقد كان الناس من قبل لا يجرؤون على البناء بجوار الكعبة مبالغة في تقديسها، وقد أمر قصي الناس ببناء بيوتهم على مقربة من البيت وكانت حجة قصي أن البناء قرب البيت حماية له، على أن يتعهده بالصيانة، ويدفعوا عنه الخطر، ولم يترك بين الكعبة والبيوت التي بنتها قريش إلا بمقدار يسمح بالطواف حولها(١).

لقد ميز قصي بين قريش البطاح وقريش الظواهر فقسمها إلى قسمين: فقريش البطاح هم البطون التي كانت تسكن مكة نفسها، وقد كان منهم الأثرياء والتجار، وهم بنو عبد مناف وبنو عبد الدار وبنو عبد العزى وبنو زهرة، وبنو مخزوم وبنو تيم مرة، وبنو عدي، وبنو عتيك بن عامر.

---

(١) ياقوت الحموي، ج٥، ص١٨٦.

أما قريش الظواهر فقد سكنوا خارج مكة، ومنهم بنو محارب، والحارث ابن فهر، وبنو هصيص بن عامر بن لؤي[1]، وبهذا التنظيم استطاع قصي أن يوحد بطون قريش ويجمع كلمتهم وحاز شرف قريش كلها وتمكن من السيادة على مكة.

ويوصلنا الحديث عن "قريش" إلى مناقشة الآراء التي قيلت في أصل هذه التسمية، إذ هناك من يقول أنه نسبة إلى قريش بن النظر بن كنانة بن فهر بن مالك بن النظر، غير أن كثير من المؤرخين يرون تفسيرات أخرى لهذا الاسم فمنهم من يرى أن قريشاً تصغير قرش وهو الحوت الكبير المفترس، وهذا تفسير مقبول عند القبائل العدنانية التي عاشت على سواحل تهامة، وكذلك بالنسبة لأهل مكة والمدينة الذي كانت لهم موانئ على السواحل القريبة من البحر الأحمر، كما كانت لهم هناك بيوت عبادة، وسمك القرش المفترس معروف في البحر الأحمر[2]، بينما يرى آخرون أن الاسم مشتق من التقرش، بمعنى التجارة، وهذا الأمر مقبول نظراً لاشتهار قريش في ميدان التجارة، في حين يذكر الطبري أن قريش من التقرش بمعنى التجمع[3]، والمقصود هو تجمع القبائل القرشية داخل مكة واستقرارها بعد أن كانت تحيا حياة بدوية في أطرافها أو ظواهرها، وأصحاب هذا الرأي يرون أن الذي قصد باسم قريش هو قصي الذي عرف عن المؤرخين باسم مجمع، لأنه هو الذي جمع القبائل، كما يروي بعضهم أن الذي

---

(١) المسعودي، ج٢، ص٢٧.

(٢) ابن هشام، ق٢، ص٩٣.

(٣) الطبري، ج٢، ص٢٦٣-٢٦٥.

يسمى بقريش هو فهر الذي تنتسب إليه البطون القرشية أو النظر وهو جد القبيلة الأكبر، والأولى باللقب[١].

ومهما يكن من أمر، فإن قصي بن كلاب كان أول بانٍ لمجد قريش، وموطد لنفوذها بعد أن استخلص أمر مكة وشؤون البيت من جرهم وخزاعة وأسكن القرشيين حول الحرم وجمع قبائلهم وملكه قومه عليهم، فنظم شؤونهم. وقد كان تنظيمه قبلياً في جوهره، يتكيف تكيفاً خاصاً بحسب ظروف الاستقرار، وبحسب علاقات قريش التجارية الواسعة، واتصالها بالعالم المتحضر.

**التنظيمات الإدارية في مكة:**

ينسب الأخباريون بدايات التنظيم الإداري في مكة إلى قصي عندما ابتنى لنفسه داراً جعل بابها إلى الكعبة، وجعل منها مجلس شورى لقريش، ودار حكومة لها سمّاها دار الندوة، حيث كان يدار فيها تحت رئاسته كل أمر قريش، وفيها يجتمع قصي بوجهاء البطون ويتشاور معهم في الأمور العامة، وقد سميت بـ "دار الندوة" لأن القوم إذا حز بهم أمر ندوا إليها، فما كان لرجل ولا امرأة الزواج إلا فيها، وما كان لفتاة من قريش أن تدرع إلا فيها، ومن ثم فقد كان صاحب الدار أن يشتق درعها بيده، وقد كان القوم يفعلون ذلك ببناتهم إذا بلغن الحلم، وقد كان الغرض من ذلك التعريف بالبالغين من قريش إناثاً كانوا أم ذكورا[٢]. ولم يكن هناك من أمر يهم قريشا إلا ويحل فيها، ففيها كان يعقد لواء الحرب إذا قدمت قريش على حرب، وفيها يتم تجهيز القوافل التي تستعد للرحيل،

---

(١) جواد علي، المفصل، ج٤، ص١٨-٢٤.

(٢) الحلبي الشافعي، ج١، ص٨.

وفي فنائها تحط عند عودتها محملة بالبضائع، وفيها يعذرون غلمانهم "يختتونهم" وهكذا كانت دار الندوة بمثابة دار مشورة ودار حكومة في آن واحد، يديرها "الملأ" من القوم، أصحاب الرأي والحكمة منهم للنظر فيما يعترض القوم من صعاب وكان لا يسمح بدخول هذه الدار إلا لمن بلغ عمره الأربعين سنة، إلا إذا كان من سلالة قصي، وبذلك نظم قصي أمور مكة الداخلية والخارجية وهو الذي رتب بوظائف الكعبة، وحدد مدلولاتها وهذه الوظائف هي:

- السقاية: وهي جمع الماء من آبار مكة المختلفة، وحمله على الإبل في المزاود والقرب وسكبه في حياض من أدم توضع في فناء الكعبة، فيرده الحاج ويستقون منه.
- الرفادة: وهي تقديم الطعام لغير القادرين من الحجاج، ويقول الطبري الرفادة: هي خرج تخرجه قريش في كل موسم من أموالها إلى قصي بن كلاب، فيضع به طعاماً للحاج يأكله من لم تكن له سعة ولا زاد ممن يحضر الموسم[١].
- اللواء: وهو الدعوة إلى الحرب برفع راية فوق رمح ويتبعها قادة الجيوش، وليس لهذه الوظيفة صيغة دينية، بل تتعلق بشؤون الحرب فقط، وفي العادة يدافع أفراد القبيلة عن هذه الراية حتى الموت.
- الحجابة: القائم بهذه الوظيفة يمتلك مفاتيح الكعبة، فهو الذي يأذن للناس بالدخول إليها ولا تقام شعائر دينية إلا بإذنه، وليس هناك من دليل على أنه كان يفترض فيمن يقوم بهذه الوظيفة أن يكون عالماً بالشؤون الدينية أو له

---

(١) الطبري، ج١، ص٣٦٠.

صفة الكهانة، وقد أخذ قصي الحجابة من خزاعة وسلمها من بعده لابنه عبد الدار ومن بعده لأبنائه.

وهناك وظائف أخرى لا تعيرها المصادر اهتماماً كبيراً، على الرغم من أنها أيضاً من مظاهر السيادة في مكة وتتعلق بالبيت الحرام وتنظيم العبادة فيه، وهاتان الوظيفتان هما:

**١- النَّسِيء:**

هذه الوظيفة لها علاقة بالأمن والاستقرار، الذي بدونهما لا تزدهر التجارة ولا تتطور، فهي إذن ذات صفة دينية ولها أهداف اقتصادية، فهذه الوظيفة تتعلق بتحديد الأشهر الحرم الأربعة التي يحرم فيها الحرب والقتال ويسود السلم والأمن، لما لهذا الأمن من أهمية في انتقال القبائل من أماكن سكناها إلى مكة لأداء مناسك الحج. والأشهر الحرم عند قريش هي: ذو القعدة، ذو الحجة، المحرم وصفر. وكان شهر الحرم هو شهر الحج، وشهر صفر هو شهر العمرة. ويذكر القرآن الكريم الأشهر الحرم في قوله تعالى: ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ﴾[١]. وكانت العرب تستخدم التقويم القمري، وتختلف الشهور في هذا التقويم عن التقويم الشمسي، مما يخل بحلول الأشهر الحرم في مواعيد فصلية معينة، وبالتالي مما يخل برحلتي الشام والصيف التجاريتين المعروفتين اللتين تقعان في فصلين ثابتين بقطع النظر عن الأشهر الحرم ووقوعها في فصول تختلف من عام إلى عام، هذا التباين بين التقويمين دفع العرب قبل الإسلام إلى أن "تكبس"

(١) التوبة: ٣٦.

في كل ثلاث سنوات شهراً وتسميه "النسيء" أي أنه كان يضاف شهر في كل ثلاث سنوات[١] لكي تتطابق السنة الشمسية مع السنة القمرية[٢] وهذا يؤدي إلى تغيير في الأشهر الحرم. وكان المسؤول عن النسيء هو الذي يعين الشهر الذي أضيف، ويقول المسعودي في ذلك: "والنسيء للشهور الحرم، وكانت النسأة في بني مالك بن كنانة، وكان أولهم أبو القَلَمّس حذيفة بن عبد... وذلك أن العرب كانت إذا فرغت من الحج وأرادت الصدر اجتمعت إليه، فيقوم فيهم، فيقول: اللهم إني قد حللت أحد الصفرين الصفر الأول، وأنسأت الآخر للعام المقبل"[٣].

وعندما ظهر الإسلام أبطلت هذه العادة، وكان القرآن الكريم واضحاً في قوله تعالى: ﴿إنما النسيء زيادة في الكفر﴾[٤] ثم حدد الإسلام أول شهور السنة القمرية وهو شهر المحرم[*]، وفيه تحرم الحرب والغارة، وتتابع من بعده دونما نسيء أو تغيير في مواقع الأشهر، وفي حجة الوداع كان الأمر حاسما حين وقف رسول الله ﷺ وقال: أيها الناس، إن الزمان قد استدار كهيئة يوم خلق الله السموات والأرض فلا شهر يُنسأ ولا عِدةً تخطأ، وإن الحج في ذي الحجة إلى يوم القيامة[٥]، فتتابعت بعد ذلك أشهر السنة القمرية دون أي تغيير.

---

(١) ذلك أن السنة القمرية تقل عن السنة الشمسية بعشرة أيام تقريباً.

(٢) المسعودي، ج٢، ص٢٠٤.

(٣) المصدر السابق: ج٢، ص٥٧.

(٤) التوبة: ٣٧.

(*) تحدد ذلك في خلافة عمر بن الخطاب ﷺ.

(٥) الأزرقي: ج١، ص١٢٨.

**أما الوظيفة الثانية فهي الإجازة:**

وهي منصب من المناصب التي تتعلق بشؤون الكعبة والحج إليها، ولنـــا حديث عنها في موضع آخر من هذا الفصل.

لقد جمع قصياً في شخصيه كل الوظائف الرئيسية الدينية منها والمدنيـــة، فقد كان ملك العرب في الحجاز ورئيسها الديني الأعلى، وقد أضفى على قبيلـــة قريش مجداً وجاها عظيماً، وأقام فيها حكومة مستقرة بعد أن عمَّـــر أكـــثر مـــن ثمانين سنة، وترك من الأبناء عبد الدار وعبد مناف وعبد العزى، وعلى الرغـــم من أن عبد الدار كان أكبر أخوته، إلا أن عبد مناف كان أثر شهرة مـــن أخيـــه وأرفع شأنا وأعظم مهابة، فقد رأى قصي أن يعوض عبد الدار عما فقـــده مـــن مقومات الزعامة، فأسند إليه الكثير من الوظائف، ومن هذه الوظائف أن جعل لـــه دار الندوة والحجابة واللواء، فكان يعقد لقريش ألويتهم، وسقاية الحجيج والرفادة.

وتمر الأيام، ويرث الأبناء الآباء، حتى قام بينهم النزاع، وكادت الحـــرب أن تقع بين الأشقاء، ولكن مساعي في الصلح قد نجحت في التسوية بين الفريقين، وقد قضى الاتفاق بأن يتولى عبد مناف السقاية والرفادة، أما الحجابة ورئاسـة دار الندوة واللواء فقد ظلت في بني عبد الدار[1].

لقد تولى بنو عبد مناف سقاية الحجاج وإطعامهم، مما يدل علـــى أنـــهم كانوا أغنياء مياسر بفضل عملهم في التجارة ما بيـــن اليمـــن والشـــام، ويقـــول البطري أن الذي قام بأمر بني عبد مناف هو هاشم بن عبد مناف واسمه عمـــرو، وهو أكبر أبناء عبد مناف، وقد قيل له هاشم لأنه أول من هشم الثريد لقومه بمكـــة

---

(1) ابن هشام، ج1، ص135.

وأطعمه، فقد ذكر أن قومه من قريش كانوا قد أصابتهم لزبة وقحط، فرحل إلى فلسطين فاشترى منها الدقيق وقدم به إلى مكة وبذل طعامه لكل نازل بالبلد المقدس[1]. وقد ورث عبد المطلب زعامة أبيه هاشم، واسمه الحقيق "شيبة"، وقد عرف بين الناس بـ "عبد المطلب" لأن عمه المطلب عندما جاء به من يثرب إلى مكة، كان يقول للناس هذا عبدي أو عبد لي، فسمي من ثم بعبد المطب، وشاعت بين قومه من أهل مكة حتى طغت على اسمه، كما عرف بين أهل مكة بشيبة الحمد لكثرة حمد الناس له، وكذلك كان يقال له الفياض لجوده، ومطعم طير السماء، لأنه كان يرفع من مائدته للطير والوحوش على رؤوس الجبال، إن هذه الصفات العظيمة في هذا الرجل قد شرفت قومه شرفا لم يبلغه أحد، ويبدو أن عبد المطلب لم يكن عظيما عند قريش فحسب، وإنما كان عظيما في جميع أنحاء شبه الجزيرة العربية، حيث يذكر المؤرخون أنه قد ذهب إلى اليمن مهنئاً بالملك، عندما تولى "معد يكرب" عرش اليمن مما يدل على مكانته عند قريش، حيث أنه كان رئيساً لوفدها في المهمات الكبيرة، التي تعطيه الحق في الاتصال بالملوك وتهنئتهم بعروشهم، التي ربما كان من نتائجها أن يأخذ إيلافاً لقومه من ملوك اليمن، ومن ثم فقد أصبحت قريش تنظم عيراً إلى اليمن في كل عام[2]، كما تميز عبد المطلب جد النبي ﷺ بالأنفة والكرم ومكارم الأخلاق، والاستقلال، ومواجهة الغيب على ثقة وصبر، وذكر عنه أنه كان يأمر أولاده بترك الظلم والبغي، وينهاهم عن دنيات الأمور، وكان يقول: لن يخرج من الدنيا ظلوم حتى ينتقم الله منه، وأن وراء هذه الدار دار أخرى يجزي فيها المحسن بإحسانه، ويعاقب

---

(١) البطري، ج١، ص٤-١٠.

(٢) جواد علي، المفصل، ج٣، ص١٧٤.

المسيء بإساءته، وتذكر المصادر العربية أن عبد المطلب عندما تولى أمر السقاية والرفادة لقي الكثير من المتاعب في توفير المياه للحجيج وذلك بسبب دفن بئر زمزم منذ أيام جرهم، ومما زاد في الأمر صعوبة أن مكة آنذاك كانت تمر بفترة قاسية سببها ندرة الأمطار فيها، وجفاف مياه الآبار، فقام عبد المطلب بتجديد حفر بئر زمزم(١)، كما أنه وضع سنناً وردت فيما بعد في القرآن الكريم وأقرتها سنة النبي ﷺ منها الوفاء بالنذر وتحريم الخمر والزنا، وأنه أول من سن دية النفس، وهي مائة من الإبل، ومما يجدر ذكره أن عبد المطلب لم يكن أغنى رجل في قريش، ولم يكن سيد مكة الوحيد المطاع، فقد كان في مكة من هو أكثر مالاً وسلطاناً، إنما كان عبد المطلب وجيهاً من وجهاء قومه لأنه كان يتولى السقاية والرفادة وبئر زمزم، فهي وجاهة ذات صلة بالبيت. وكانت مكة في حياة عبد المطلب قد مرت بحدث هام كان له أبلغ الأثر في نفوس القرشيين، وهو حملة أبرهه الحبشي، ونظراً لأهميتها بالنسبة لمكة فقد صارت الحملة مبدأ للتاريخ بدليل إشارة القرآن الكريم إليها.

**الحروب والأحلاف:**

تشكل القبيلة بفروعها المختلفة وحدة متماسكة تقف صفاً واحداً في وجه أعدائها أو من يشن عليها الغارات أو يعتدي على حرماتها أو على أحد من أفرادها، على أن وجود هذا التضامن لا يعني عدم خروج بعضهم، أفراداً أو جماعات، عليه طلباً للمصلحة الخاصة، أو انفرادهم بمواقف لا تنسجم ومصلحة القبيلة مما يدفع هذه الأخيرة إلى طردهم أو نفيهم من صفوفها.

---

(١) ابن خلدون، ج٢، ص٣٨٧.

إن الباحث في تاريخ العرب قبل الإسلام تستوقفه كثيراً أخبار المنازعات والحرب التي وقعت بين القبائل المختلفة، كما يرى من جانب آخر أن التحالف يمثل أساساً من أسس الروابط القبلية، ويكون التحالف عادة بين قبيلة ضعيفة تنظم بواسطة الحلف إلى قبيلة أقوى منها لتضمن سلامتها وحمايتها، وفي مكة ظهر إلى جانب التضامن القبلي المبني على أساس المصالح التجارية وعلى هذا الأساس قامت الأحلاف المختلفة.

لقد بدأت الحروب في مكة عندما تنافست جرهم وقطورا في الملك، وتداعوا للحرب، فخرجت جرهم من قعيقعان وهي أعلى مكة وعليهم مضاض ابن عمرو، وخرجت قطوراء من أجياد وهي أسفل مكة وعليهم السميدع، وانهزمت قطوراء وقد سمي "فاضحاً" لأن قطوراء افتضحت فيه، ثم تداعوا بعد ذلك للصلح واجتمعوا في الشعاب وطبخوا القدور فسمي المطابخ(١).

وقد ذكرنا سابقاً أن جرهم عندما تولت أمر البيت اتسع سلطانها وعظمت شوكتها فعاثوا فساداً في الأرض وأكلوا أموال الكعبة، واضطهدوا من دخل مكة من غير أهلها، وعندما قدمت خزاعة من اليمن طلبوا من جرهم أن تسمح لهم بالإقامة في مكة، فرفضوا طلبهم فنشبت الحرب بين الفريقين، وقد استمرت لمدة ثلاثة أيام انتهت بهزيمة جرهم وانتزعت خزاعة مكة، فتولى ربيعة بن حارثة بن عمرو أمر مكة وحجابة الكعبة(٢).

---

(١) ياقوت الحموي، ج٥، ص١٨٥.

(٢) الحلبي الشافعي ج١، ص٨.

وعندما تولى قصي أمور مكة نظم شؤونها -كما مر بنا سابقاً- وبقيت قريش على ذلك زمناً، ولما كبر قصي وأحس بدنو أجله، عهد إلى كبير أبنائه عبد الدار بوراثة وظائفه ومكانه، ولكن لم يلبث أحفاد عبد الدار وأحفاد أخيه عبد شمس أن تنازعوا سيادة المدينة وما يتعلق بهذه السيادة من وظائف، وغدت مكة هكذا تنقسم إلى فريقين متخاصمين، فريق بني عبد مناف يساندهم بنو أسد وزهرة وتيم والحارث بن فهر، وفريق عبد الدار ويساندهم بنو مخزوم وسهم وجُمَح وعدي. في حين ظل على الحياد كل من بني عامر بن لؤي ومحارب. وعقد كل قوم على أمرهم حلفاً مؤكدين ألا يتخاذلوا ولا يسلم بعضهم بعضاً، وأخرجت بنو عبد مناف وأحلافهم جفنة مملوءاً طيباً فوضعوها حول الكعبة، ثم غمس القوم أيديهم فيها وتعاهدوا وتعاقدوا وتحالفوا ومسحوا الكعبة بأيديهم توكيداً على أنفسهم، فسمو "المطيبين" وأخرجت بنو عبد الدار ومن كان معهم جفنة من دم فغمسوا أيديهم فيها وتعاقدوا وتحالفوا على أن لا يتخاذلوا فسموا الأحلاف أو "لعقة الدم". وتهيأ الطرفان للقتال، ولكن مساعي الصلح نجحت في التوصل إلى اتفاق بين الطرفين تقاسما بموجبه الوظائف المتعلقة بخدمة الكعبة ورئاسة مكة[1]. كما تعد حروب الفجار من الحوادث المؤثرة في تاريخ مكة على الرغم من كونها حدثت لأسباب تافهة، إلا أنها أدت إلى قيام بعض الحروب والنزاعات بين القبائل، وسميت بهذا الاسم لاستحلال كنانة وقيس عيلان القتال في الأشهر الحرم، وهي الشهور المقدسة التي يحرم العرب فيها القتال، فعد ذلك خروجاً على العادات القديمة وفجوراً وخلافاً لما هو عليه[2]، وأيام الفجار عديدة، أولها

(١) ابن هشام، ق١، ص١٤٩-١٥٠. ابن سعد، ج١، ص٧٧.

(٢) الذهبي، تاريخ الإسلام "السيرة النبوية"، ج١ ص٦١.

حدث بين كنانة وهوازن على أثر تفاخر حدث بين مجموعة من الشبان العرب في سوق عكاظ، إذ تطاول بدر بن معشر الغفاري على الناس، وأخذ ينشد أبياتاً من الشعر يفتخر فيها عليهم، ثم مد رجله وقال: أنا أعز العرب فمن زعم أنه أعز مني فليضربها بالسيف، فوثب رجل من بني نصر بن معاوية من هوازن فضربها بسيفه فقطعها، فأثار ذلك مناوشات بين الحيين كادت أن تسيل بينهما الدماء، ثم تراجعوا ورأوا أن الحدث بسيط لا يستدعي أن تسيل الدماء بين الطرفين(١).

وفي اليوم الثاني سفكت دماء يسيرة وكان سببه عبث شباب من قريش بامرأة من بني عامر بن صعصعة في سوق عكاظ، وكانت هذه المرأة جميلة، فرغب الشباب أن تكشف لهم عن ردائها فغضبت تلك المرأة وصاحت بأعلى صوتها قائلة: يا آل عامر، ونادى الشباب في الوقت نفسه قومهم فالتحم الطرفان في قتال لم ينته إلا بتوسط حرب بن أمية(٢).

أما اليوم الثالث: فسببه أن رجلاً من كنانه كان قد استدان مالاً من رجل من بني نصر من هوزان، وعجز عن الوفاء به، فجاء النصري إلى سوق عكاظ، ومعه قرد وصار ينادي: من يبتغي مثل هذا بمالي على فلان الكناني، تحقيراً للرجل وقومه، فما كان من رجل كناني مر به وسمع القول إلا أن ضرب بسيفه القرد فقتله، فصرخ هذا في قيس عيلان، بينما صرخ الكناني في قومه، واجتمع

---

(١) ابن الأثير، ج١، ص٥٨٨.

(٢) المصدر السابق: ج١، ص٥٨٨.

الناس وتحاوروا ثم اصطلحوا[١] وقد عرفت هذه المناوشـــات بحـــروب الفجـــار الأولى.

أما حروب الفجار الثانية فهي خمسة أيام، وهي الأشهر في تاريخ العـــرب قبل الإسلام[٢]، وقد وقعت بعد عشرين سنة من عام الفيل، ولم يكـــن فـــي أيـــام العرب أشهر منها وأهمها اليوم الأول: الذي يسمى بيوم نخلـــه وكـــان ســـببه أن رجلاً خليعاً شريراً فاسقاً يدعى البراض الكناني أتعب قومه فخلعوه وتبرأوا منـــه، فصار ينتقل من قبيلة إلى أخرى ومن سيد إلى آخر يطلـــب الحمايـــة والجـــوار وكلهم يرفضونه، وكان يضرب المثل بفتكه "أفتك من الـــبراض"، فخـــرج مـــن الحجاز حتى قدم على النعمان بن المنذر ملك الحيرة، وكان النعمان يرســـل كـــل عام بلطيمة[*] تباع له في سوق عكاظ، وهناك عرض على النعمان أن يتولى لـــه حماية القوافل التي كان يرسلها إلى الحجاز، ولكن النعمان اختار عروة بن عتيبـــة الكلابي من قيس عيلان، فغضب البراض الكناني من هذا، وأخذ يتعقـــب عـــروة حتى تمكن من مغافلته وقتله، وساق القافلة إلى خيبر، وأوفد رسولاً مستعجلاً إلـــى حرب بن أمية وهو كبير قريش آنذاك يخبره عما فعل بعروة وأن يأخذ الحذر من قيس.

ولما بلغ الخبر هوازن ثارت الثائرة عندهـــم، واســـتعدوا لقتـــال كنانـــة، واشتبك الطرفان في موضع نخلة، فاضطرت هـــوازن أن ترجـــع عـــن قريـــش

---

(١) جواد علي، ج٥، ص٥٨١.

(٢) وقد عاشها الرسول محمد صلى الله عليه وسلم في شبابه قبل البعثة، انظر القسم الثـــاني، الفصل الأول من هذا الكتاب.

(*) اللطيمة: هي الإبل المحملة بالمسك والطيب.

وتواعد الطرفان على اللقاء في السنة القادمة بسوق عكاظ، وقد عاد كل فريق إلى قومه يحرض أهله ضد الآخر على الأخذ بالثأر.

وقد تأثرت كنانة من الهزيمة التي لحقت بها في هذه الحرب، وأخذت تستعد للانتقام من هوزان، وجمعت جموعها ورؤساءها واشتروا الأسلحة، وسارت إلى عكاظ، وكانت هوازن قد وصلت الموقع هي أيضاً، والتقى الفريقان في اليوم الرابع من أيام سوق عكاظ وجهاً لوجه، وقد حدثت بينهما مناوشات كلامية، ثم اشتد بينهما القتال وكان عنيفاً تعرض فيه الطرفان لخسائر كثيرة في الأرواح والعتاد، وقد كان النصر في بادئ الأمر إلى جانب قيس وانهزم بنو كنانه وقريش والتجأت إلى الحرم، فكفت قيس عنها، ثم وقعت معارك أخرى أدت إلى اضطراب الأمن في مواسم وفي أماكن حرم فيها القتال عند العرب(١).

كما حصل في العام التالي قتال في يوم شمطة حيث تجمعت قريش وكنانة بأسرها، وكان على رأسهم حرب بن أمية ومعه عبد الله بن جدعان على الميمنة، وهشام بن المغيرة على الميسرة، كما لحق بقريش الأحابيش ومن تبعهم من بني أسد بن خزيمة لملاقاة سليم وهوازن من قيس، وكان على رأسهم مسعود بن معتب الثقفي، وكان النصر أول النهار لكنانة على هوازن وحلفائها حتى إذا كان آخر النهار تداعت هوازن وصبرت وأحرزت النصر على كنانة(٢).

ثم عادت هوازن وكنانة إلى الحرب في يوم عرف بيوم العبلاء، واقتتلوا فيه وكانت الهزيمة من نصيب كنانة، وقد حز في نفس كنانة أن تهزم في يومي

---

(١) المسعودي، ج٢، ص١٦٧.

(٢) ابن الأثير، ج١، ص٥٩٥.

شمطة والعبلاء وقد راح رؤساؤها يستعدون للانتقام، وحمل عبد الله بن جدعان ثري قريش ألف رجل من كنانة على ألف بعير، وتولى قيادة كل بطن رئيسه، وحدث قتال شديد في يوم عرف باسم يوم عكاظ، انتصرت فيه كنانة على قيس، أما اليوم الأخر الذي عرف باسم يوم الحريرة، فقد اقتتل فيه الطرفان قتالا فاتراً دون أن يحرز فريق على الآخر أي نصر، وتداعياً إلى الصلح على أن يعدوا القتلى فأيهما له فضل من القتلى على الآخر يقوم بدفاع ديتهم، ويبدو أن حروب الفجار قد دفعت إليها قريش على غير هواها، بدليل أنها حاولت إيقافها أول مرة، وما أنكرت من أعقابها آخر الأمر حيث عمدت إلى حلف الفضول، عندما شعرت بتضعضع قوتها ووحدتها وبخاصة بعد موت هاشم وعبد المطلب حيث أشرفت على التفرق بسبب التطلع إلى الرئاسة[١].

ومن الأحداث الهامة التي يذكرها أهل السيرة والأخبار في تاريخ مكة أنه عقد بعد حرب الفجار بشهور حلف الفضول، والذي ساعد على علو مكانة قريش بين القبائل، ويقال أن أول من دعا إليه الزبير بن عبد المطلب، وقد شهد حلف الفضول بنو هاشم ونبو زهرة وبنو تيم، وقد تعاقدوا على أن يكونوا مع المظلوم حتى يرد إليه حقه، كذلك تحالفوا ألا يظلم أحد بمكة إلا قاموا معه حتى ترد ظلامته[٢]، وتنسب إلى الزبير بن عبد المطلب أبياتاً من الشعر قال فيها:

حلفت لنعقدن حلفا عليهم ... وإن كنا جميعاً أهل دار
نسميه الفضول إذا عقدنا ... يعز به الغريب لدى الجوار

---

(١) المسعودي، ج٢، ص١٦٧.

(٢) ابن سعد، ج١، ص١٢٩.

ويعلم من حوالـــي البيـــت أن أباة الضيم مهجر كل عـــار[1]

وقد ذكر الأخباريون أن الهدف من هذا الحلف هو إنصـــاف المظلوميـــن من أهل مكة، والضعفاء والمساكين ومن لا يجدون عوناً يحميـــهم ويدافـــع عـــن حقوقهم وإنصافاً للغرباء الوافدين على مكة من حجاج أو تجار ممن يعتدى عليهم أو على تجارتهم.

ويعد حلف الفضول -الذي حضر انعقاده الرســـول محمـــد ﷺ قبـــل أن يبعث- امتداداً متطوراً لحلف المطيبين، وكان أعضاء هذا الحلف هم فئات مـــن قريش اشتركت في حلف المطيبين وتتألف من بني هاشم والمطلـــب ابنـــي عبـــد مناف، وزهرة بن كلاب وتيم بن مرة وبني الحارث بن فهر، وكان بنـــو عبيـــد شمس وبنو نوفل هم المطيبون الوحيدون الذين لم يشتركوا في الحلـــف الجديـــد، وقد يكون سبب ذلك أن خصاماً كان قد وقع قبل عقد حلف الفضول بيـــن نوفـــل وعبد المطلب بن هاشم، ويبدو أن بني عبد شمس وبني نوفل قد كانا على جـــانب من القوة كبير لا يحتاجان معه إلى حلفاء يساعدونهم، في حيـــن أن بنـــي هاشـــم والمطلب كانا أضعف ولابد لهما من حلف يشد أزرهما.

لقد استمرت التحالفات والتكتلات القبلية في مكة وبيـــن فـــروع قريـــش المختلفة في تطورها حتى عصر الرسول ﷺ، حيث كان هناك عند بعثته ثـــلاث فئات قرشية متطاحنة هي كما يلي: فئة أولى وتضم بني هاشم والمطلب وزهـــرة وتيم والحارث بن فهر وعدي، وفئة ثانية وتضم: بني عبد شمس ونوفـــل وأســـد وعامر، وفئة ثالثة وتضم: بني مخزوم وسهم وجمع وعبد الدار، ويلاحظ أن الفئة

---

(١) المسعودي، ج١، ص١٦٨.

الأولى كانت تضم جماعة حلف الفضول باستثناء اسد، التي حـــل مكانــها بنــو عدي، كما كانت بين الفئتين الثانية والثالثة علاقات ود ومصلحة مشتركة خاصــة في المجال التجاري، أما الفئة الثالثة فهي جماعة حلف "لعقة الدم" –الــذي ســبق الحديث عنه– باستثناء عدي التي انتقلت إلى الفئة الأولى[1].

**أهمية مكة الاقتصادية:**

تعد مكة عاصمة الحجاز قبل الإسلام دينيا وتجاريــاً، إذ كــان لموقعــها أهمية تجارية عظيمة، فهي نقطة التقاء لطرق عديدة تأتيها من جميع الجهات مــن اليمن ومن الخليج العربي ومن الحبشة عن طريق البحر الأحمر ومـــن مصــر وفلسطين وسوريا.

والواقع أن مكة قد استفادت من وقوعها على طريــق الــهند التجــاري، وذلك أن القوافل التجارية الآتية من اليمن ببضائع الهند إلى الشام أو الذاهبة إليــها كانت تمر بها بوصفها محطة تجارية، لابد من النزول فيها، والإقامة بــها أيامــاً بسبب توفر مياه للشرب الأمر الذي أدى إلى ارتفاع شأنها، وذلك لوجـــود بــئر زمزم الذي بفضله أصبحت مكة محطة تجارية، ووجود الكعبة المشــرفة فيــها، والتي يعظمها العرب ويقدسونها، ويحجون إليها من جميع أنحاء الجزيرة العربيــة منذ قديم الزمان، وكان العرب يعظمونها ويقسمون بها بالإيمان كقول زهير:

فأقسمت بالبيت الذي طاف حوله    رجال بنوه من قريش وجرهـــم

---

(١) wattp: 6.

كما كان يرافق ذلك طقوس دينية تجري في مكة في شهور معلومة من السنة، وفي هذه الشهور يتم إقرار نوع من الهدنة بين القبائل عرفت عند العرب بالأشهر الحرم يتوقف خلالها القتال بين تلك القبائل. وفي الوقت الذي كان فيه الناس يؤدون طقوس الحج ويقومون بفرائضهم الدينية كان التجار يعرضون متاجرهم في الأماكن المجاورة، وهكذا كانت تلتقي المصالح الدينية والمصالح الاقتصادية في آن واحد. وكان الحج فرصة لكي يتعارف أبناء القبائل المختلفة وليناقشوا مشاكلهم المشتركة ويعملوا على تسوية ما يقوم بينهم من نزاعات. كما كانت تلك الأسواق فرصة لسماع آخر ما أبدعه الشعراء العرب من مختلف أرجاء الجزيرة العربية.

وقد زاد من أهمية مكة وارتقاء دورها التجاري تدهور العلاقات بين حكام فارس والدولة البيزنطية، وقيام حروب طويلة وطاحنة بين الطرفين، على مدى القرنين الخامس والسادس للميلاد اللذين سبقا ظهور الإسلام مما أدى إلى تعطيل التجارة مع شبه الجزيرة العربية، وبخاصة مع ساحلها الغربي الواقع على البحر الأحمر فكان ذلك فرصة للمكيين في الانصراف للنشاط التجاري، من جانب آخر كان وقوع اليمن تحت سيطرة الأحباش قد أدى إلى خروج مقاليد التجارة من أيدي أهل اليمن وانتقالها بطبيعة الحال إلى أيدي المكيين، فعوضتهم التجارة ما حرمتهم الطبيعة من موارد الزراعة، بسبب كون الحجاز إقليما يسوده الجفاف والفقر في النبات.

إن نشاط المكيين التجاري لم يقتصر على كون مدينتهم محطة على طريق القوافل التجارية، بل ساهموا بأنفسهم في النشاط التجاري العالمي، فتاجروا مع مصر والحبشة عبر البحر الأحمر عن طريق ميناء الشعبية الذي

كان ميناء لمكة قبل الإسلام، وبفضل مهارة أهل مكة تمكنوا من تحويل جزء كبير من تجارة الهند نحو مدينتهم، وعبر الحجاز بدلاً من الخليج العربي نحو بلاد الشام وهو الطريق الذي صار ميداناً للقتال بين الفرس والروم.

ومع مرور الزمن أخذت مكة تتحول من مركز تجاري فحسب، إلى مركز مالي هام تتم فيه عمليات مالية واسعة النطاق، وقد عرف الكتاب اليونان ودعوها في كتبهم باسم "مكورابا" (أي المقدسة)، كما عرف البيزنطيون أهمية مكة التجارية فحاول أيليوس غالوس احتلالها وهو في طريقه إلى اليمن، ولما احتل الأحباش اليمن نظروا إلى مكة نظرة الطامع وحاولوا احتلالها على يد القائد إبرهة الأشرم عام الفيل وذلك لأهداف تجارية إلى جانب ما يذكر عادة من أهداف أخرى.

وتأكيداً على أهمية التجارة عند المكيين يمكننا أن نذكر أن الألفاظ المتعلقة بالتجارة كثيرة جداً في القرآن الكريم، حيث نجد كلمات تجارية مثل: حساب وميزان وقسط وذرَّة ومثقال وقرض... الخ، بل اشتغلت بها النساء كخديجة بنت خويلد وهند بنت عبد المطلب وغيرهما.

## ثانياً: يثرب

**أصل التسمية:**

عرفت عند الأخباريين باسم أثرب ويثرب، وذكروا أن يثرب أم قرى المدينة، وحددوا امتدادها ما بين طرف "قناة" إلى طرف "الجرف" وما بين المال

الذي يقال له البرناوي إلى "زبالة"[1] وهناك من يقول أنها سميت يثرب نسبة إلـى يثرب بن قانية بن مهلائيل بن إرم بن عبيل بن عوص بن إرم بن سام بن نـوح، وهو أول من نزلها عند تفرق ذرية نوح[2]، بينما اعتقد آخرون أن اسـم يـثرب مأخوذ من الثرب بمعنى الفساد أو التثريب أي المؤاخذة بـالذنب. ومعـروف أن الرسول ﷺ بعد الهجرة نهى عن تسمية يثرب بهذا الاسم القديم، وسماها طيبـة وطابة كراهية للتثريب[3]، وهناك من يرى أن يثرب سميت باسم رئيس العمـاليق الذين نزلوها بعد أن أخرجوا منها بني عبيل بن عوص ابن إرم بن سام من ولـد نوح. وقد ورد اسم يثرب في القرآن الكريم عند تعرضه لما يقولـه المنـافقون، يقول تعـالى: ﴿إذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله إلا غرورا، وإذ قالت طائفة منهم يا أهل يثرب لا مقام لكم فارجعوا ويستأذن فريق منهم النبي يقولون إن بيوتنا عورة، وما هي بعورة إن يريدون إلا فرارا﴾[4].

وهناك اختلاف آخر بين المؤرخين فيما إذا كان "يثرب" هو اسم للمدينـة نفسها أو لموضع مخصص من أرضها، أو أنه اسم للناحية التـي منـها مدينـة الرسول ﷺ، أما اسم "المدينة" الذي صار اسماً ليثرب بعد الـهجرة النبويـة فقـد يكون مأخوذاً من لفظة Medinta الآرامية، ومعناها الحِمـى أو المدينـة، وقـد

---

(١) ياقوت الحموي، ج٥، ص٤٣٠ "مادة يثرب".

(٢) المسعودي: مروج الذهب، ج٢، ص١٤٨.

(٣) ياقوت الحموي: ج٥، ص٤٣٠.

(٤) الأحزاب: ١٢، ١٣.

يكون اختصاراً لتسمية "مدينة رسول الله"، على الرغم من أن هناك من يرجح أن لفظة المدينة كانت تطلق قبل ظهور الإسلام على يثرب[١].

من جانب آخر ذكر الأخباريون أسماء كثيرة أخرى ليثرب، إلا أن تلك الأسماء عرفت بها المدينة بعد الهجرة، أي في العصر الإسلامي باعتبارها دار هجرة، ومركز الدولة الإسلامية في عصر النبوة وعصر الخلفاء الراشدين، ومعظم تلك الأسماء صفات لها وصفت بها لتعظيمها وإظهار فضائلها ومآثرها، ومن تلك الأسماء: طيبة، وطابسة، والسكينة، والعذراء، والجابرة، والمحببة، والحبورة، والناجية، والموفية وأكالة البلدان، والمحفوفة، والمسلمة، والمجنة، والقدسية، والعاصمة، والمرزوقة، والشافية، والخيرة، والمحبوبة، والمرحومة، والمختارة، والمحرمة، والقاصمة، وطبابا[٢].

**جغرافية يثرب:**

يثرب مدينة قديمة ورد ذكرها في الكتابات المعينية، حيث كانت تخضع لسيادة دولة معين ثم آل أمرها إلى السبئيين، ذلك أن معين وسبأ كانتا تفرضان نفوذهما على بلاد العرب الشمالية، وقد ذكرها بطليموس في جغرافيته باسم "Iathrippa"، وتقع على أرض عوارض فيها، مبسوطة ومكشوفة من سائر الجهات، وأقرب الجبال إليها هو جبل أحد، وأرضها كثيرة المياه والشجر والدوحات، يقع جبل أحد في شمالها في حين يقع جبل عير في جنوبها الغربي؛ وهذا الأخير عبارة عن جبلين أحمرين متقاربين ببطن العقيق، أحدهما عبر

---

(١) جواد علي: ج٤، ص١٨١.

(٢) ياقوت الحموي: ج٥، ص٤٣٠.

الوارد، والآخر عبر الصادر[1]، وإلى الشرق من يثرب بقيع الغرقد، وإلى الجنوب قرية قباء التي تبعد عن يثرب بنحو ميلين مما يلي القبلة.

تحيط بيثرب وديان عديدة، أشهرها وأكثرها خصباً وادي العقيق الذي يبعد عنها من جهة الغرب بنحو ثلاثة أميال، وهذا الوادي عبارة عن مجموعة وديان شقتها السيول: "أحدها عقيق المدينة، عق عن حرتها، وهذا العقيق الأصغر، وفيه بئر رومة"، وتقع بئر رومة إلى الشمال الغربي من يثرب على مسيرة ساعة منها[2]، ويحيط العقيق أيضاً بيثرب أيضاً من جهة الجنوب الغربي، ولكنه بعيد عنها من هذه الجهة، فهو يقع بعد قباء، إلى الشمال من وادي النقيع، وكانت تشغله غابات كثيفة.

وهناك وديان أخرى منها: وادي بطحان ويقع إلى الغرب من يثرب، ووادي رانون، ويبدأ من جبل عير ويمر بقباء ثم يتصل بوادي بطحان، وهناك وادي مذينيب في الجنوب الشرقي، وهو شعبة من بطحان، ووادي قناة ويقع إلى الشمال الشرقي من يثرب، ووادي مهزور في الجنوب الشرقي، ويأتي من حرة واقم[3].

وفي يثرب ثلاث حرات هي: حرة الوبرة في الغرب، وحرة قباء في الجنوب، وحرة واقم في الشرق، وهناك ثلاث حرات أخرى قريبة منها هي: حرة

---

(١) المصدر السابق: ج٥، ص٤٣٠.

(٢) ياقوت الحموي: ج٤، ص١٣٩ و١٧٢.

(٣) المصدر السابق: ج٢، ص٢٤٧.

شوران وتقع على يسار الواقف ببطن العقيق يريد مكة، وحرة ليلى لبني مرة بن عوف بن ذبيان، وحرة النار بالقرب من حرة ليلى[1].

تعد حرة واقم من أشهر حرات إقليم الحجاز، فتربتها من أخصب بقاع يثرب، وذكروا أن اسمها نسبة إلى رجل من العماليق سكان يثرب القدامى، وقيل أنه اسم أطم من آطام بني الأشهل إليه تضاف الحرة، وقد عرفت حرة وأقم أيضاً بحرة قريظة، لأنهم ينزلون بطرفها القبلي، كما عرفت أيضاً بحرة زهرة، نسبة إلى القرية المجاورة لها، أما حرة الوبرة فتعرف بحرة بني بياضة، وتقع على ثلاثة أميال من يثرب، وتشرف هذه الحرة على وادي العقيق الذي يليها غرباً، ومنها يبدأ الطريق إلى مكة[2].

**المناخ:**

مناخ يثرب يشبه إلى حد ما مناخ مكة، وكأي مناخ صحراوي فإن الحرارة تشتد فيه صيفاً، في حين تشتد البرودة شتاء[3]، أما الأمطار فهي شتوية وتحدث سيولاً في كثير من الأحيان، وتسقط عادة في أوقات قصيرة، ولكنها تهطل في عنف فتحدث تلك السيول، وتتخلف عن تلك الأمطار غدران ومستنقعات وبرك، ومن الغدران المشهورة بوادي العقيق غدير السدر، وغدير خم، وغدير سلافة، وغدير البيوت، وغدير حصير، وغدير المجاز،وغدير

---

(١) المصدر السابق: ج٢، ص٢٤٨.

(٢) ياقوت الحموي: ج٥، ص٨٣.

(٣) السمهوري: كتاب وفاء الوفا، ج٢، ص٢٩٠.

المرسى[1]، وكانت هذه الغدارن والبرك عندما تتعرض لحرارة الشمس تتبخر مياهها فتزداد ملوحة، بالإضافة إلى ما يسببه ركود المياه فيها من أمراض وحميات، وظاهرة انتشار الأوبئة والأمراض بالمدينة من الظواهر المألوفة فيها[2].

**سكان يثرب:**

سكنت يثرب قبل الإسلام مجموعتان رئيسيتان من السكان هما:

**١- اليهود:**

فرت جموع كثيرة من اليهود من بلاد الشام إلى جزيرة العرب بعد سنة ٧٠م، وذلك على أثر قيام الرومان الذين يحتلون بلاد الشام آنذاك بتشتيتهم وطردهم بعد أن قاموا بعدد من الثورات ضد الوجود الروماني، وقد استوطن هؤلاء اليهود أخصب بقاع الحجاز في يثرب وخيبر وفدك ووادي القرى وتيماء، كما نزل بعضهم اليمن[3]، وكان يعيش في يثرب عند هجرة هؤلاء إليها جماعات يهودية قديمة كانت قد نزحت إليها في عهود قديمة، وتغلبت عليها من أصحابها العماليق، فمجتمع يثرب سنة ٧٠م كان يتألف من اليهود القدامى الذين تغلبوا على عماليق يثرب، ومن اليهود الجدد الذين اتخذوا من بلاد العرب دار هجرة بعد مغادرتهم بلاد الشام بسبب اضطهاد الرومان لهم كما أشرنا.

---

(١) المصدر السابق: كتاب وفاء الوفا، ج٢، ص٢٩٠.

(٢) ابن هشام: ق١، ص٢٣٩.

(٣) جواد علي: ج٤، ص١٧٨.

أقام اليهود لهم في يثرب حصونا (أطاما) يلجؤون إليها وقـــت الحــرب واشتداد الغارات فيتحصن فيها النساء والأطفال والشيوخ عندما يخـــرج رجالـــهم إلى القتال، وقد أشار القرآن الكريم إلى قرى اليهود المحصنة هـــذه فـــي قولـــه تعالى: ﴿لا يقاتلونكم جميعا إلا في قرى محصنة أو من وراء جدر بأسهم بينهم شديد تحسبهم جميعا وقلوبهم شتى، ذلك بأنهم قوم لا يعقلون﴾[١].

كانت قبائل اليهود عند وصول الأوس والخزرج إلى يثرب تزيـــد علـــى العشرين قبيلة، وآطامهم تقارب الستين أطما، في حين كان للعرب النازلين معـــهم قبل الأوس والخزرج ثلاثة عشر أطما، ومن أشهر قبائل اليـــهود آنـــذاك: بنـــو قريظة، وبنو النضير، وبنو محمحم، وبنو زعورا، وبنو قينقـــاع، وبنـــو ثعلبـــة، وأهل زهرة، وأهل زبالة، وأهل يثرب، وبنو القصيص، وبنـــو فاعصـــة، وبنـــو مرانة[٢]، وأكبر هذه القبائل اليهودية ثلاث: بنو قريظة، وبنـــو النضـــير، وبنـــو قينقاع، وكانت بجوارهم تقيم بطون يهودية صغيرة، وقد تأثر اليـــهود بجيرانـــهم العرب فانقسموا إلى قبائل وبطون، واتخذوا أسماء عربيـــة، وكـــانوا يتخـــاطبون بالعربية.

**٢- العرب:**

أشرنا إلى أن أول من سكن يثرب هم العرب العماليق، ثم تغلب اليـــهود الوافدون على العرب وأصبحت لهم السيادة على المدينة بعد أن تكاثر عددهم فـــي أعقاب هجرتهم من فلسطين بعد عام ٧٠م، وكان يسكن يثرب مع اليهود بطـــون

---

(١) الحشر: ١٤.

(٢) ابن رسته، الأعلاق النفسية، ص٦٣.

عربية من اليمن ومن بلي ومن سليم بن منصور بن عكرمة من قيس عيلان، فضلاً عن بقايا العماليق.

وبعد السيل العرم وتفرق أغلب قبائل اليمن، كانت هجرة الأوس والخزرج اليمنيين إلى يثرب، فنزلوا فيها وأقاموا مع اليهود، وكانت الأموال والآطام والنخيل في أيدي اليهود، وكانت الغلبة والمنعة لهم أيضاً. فسألهم الأوس والخزرج أن يعقدوا معهم حلفاً وجواراً يأمن به بعضهم من بعض، فتعاقدوا وتحالفوا، واشتركوا وتعاملوا، وقد سكن الأوس جنوب وشرق يثرب، أما الخزرج فسكنوا في الشمال الغربي من يثرب.

رحّب اليهود بعقد هذا الحلف مع القبيلتين الوافدتين، وذلك لضمان سيادتهم على يثرب، ولكي يستخدموا هؤلاء الحلفاء في صد أي هجوم خارجي على المدينة فضلاً عن أن هذا التحالف يضمن لهم الإبقاء على صلات الجوار بينهم وبين قبائل العرب في المدن والتجمعات العمرانية المجاورة ليثرب، ويقوي تظاهرهم بالإندماج بين العرب، ويمكّن نفوذهم وسيادتهم على المدينة ويسبغ عليه نوعاً من الشرعية، غير أن هذا الترحيب اليهودي كان مؤطراً بشيء من الخوف والقلق من العرب، ومع أنهم -أي اليهود- كانوا متفوقين على العرب من حيث الغلبة العددية والقوة، فقد كانوا يخشون أن يقوى العرب عليهم ذات يوم، فيتمكنوا من انتزاع السيادة على يثرب من أيديهم، فنراهم يكثرون من اتخاذ الحصون والآطام، ويراقبون العرب عن كثب.

من جانب آخر، اقتنع الأوس والخزرج بادئ ذي بدء بتحالفهم مع اليهود، وبالاشتغال معهم في استغلال مصادر الثروة في يثرب، ومضى على الحلف المنعقد بين اليهود والعرب زمان طويل، فأثرى الأوس والخزرج، وصار لهم

مال وعدد، فلما رأى اليهود ذلك تخوفوا أن يغلبوهم علـــى دورهـــم وأموالـــهم، فتنمروا عليهم، وتنكروا لحلفهم مع العرب، ودخلوا معهم في صراع ونزاعـــات انتهت بالغلبة والسيادة للعرب على يثرب[١].

عاش الأوس والخزرج بعد انتصارهم وغلبتهم على يثرب متفقي الكلمـة، متحدي الصفوف حيناً من الزمن، ثم ساءت العلاقات بين الأخوين، ووقع الخلاف وانتهى الأمر بقيام حروب بينهما كثيرة امتدت حتى قبيل الهجرة النبوية[٢]، ويبـــدو أنه كان لليهود في يثرب يد في نشوب الخلاف بين العرب بعضهم مـــع بعـض، وأنهم كانوا يسعون إلى تفتيت وحدتهم حتى ينالوا منهم وتعود لهم الســـيادة فـــي يثرب.

**الحياة الاقتصادية في يثرب:**

اعتدال المناخ بوجه عام في يثرب، فضلاً عن توافر الميـــاه وخصوبـــة التربة، هيأ المجال لاشتغال سكانها بالزراعة، وكان النخيـــل أهـــم مزروعـــات يثرب، أما الشعير فيؤلف المصدر الثاني لثروة يثرب الزراعيـــة، وكـــان طعـــام الناس بيثرب الشعير والتمر، وكان يزرع فيها أيضاً القمـــح والكـــروم، وفواكـــه أخرى كالرمان والموز، ومن مصادر الثروة الزراعية فيها حب البـــان، وكـــان يصدر إلى بلدان أخرى، كما زرعت بيثرب الخضراوات والأعناب[٣].

---

(١) السمهوري: ج١، ص١٥٥.

(٢) ياقوت الحموي: ج٥، ص٨٧.

(٣) اليعقوبي، كتاب البلدان ص٣١٣. ياقوت الحموي، ج٢، ص٩٣.

وتحتل التجارة المرتبة الثانية في نشاط أهل يثرب الاقتصادي، وخاصة التجارة الداخلية، حيث كانت تقام بيثرب الأسواق المختلفة لبيع المنتجات الزراعية والسلاح والصوف، ومن أشهر الأسواق المعروفة قبل الإسلام: سوق بني قينقاع، وسوق زبالة، وسوق الجسر، وسوق الصفاصف، وسوق البطحاء.

وكان يجلب إلى أسواق يثرب سلع متنوعة، مثل الزبيب من الطائف، والمنسوجات القطنية والحريرية من اليمن، والحنطة من بلاد الشام، وكانت التجارة مع بلاد الشام واليمن تتبع الطريق البري المعروف، والطريق البحري عبر البحر الأحمر(١).

## ثالثاً: الطائف

### التسمية والجغرافيا:

تعد الطائف المركز الوثني الثاني في الحجاز بعد مكة، ويعتقد أن تسميتها بـ "الطائف" كانت نسبة إلى الطواف حول "بيت اللات" أحد أشهر بيوت الأصنامٌ فيها، وكانت الطائف تسمى في القديم باسم "وج" وهو اسم وادي ينسب إلى وج بن عبد الحي من العماليق، وهناك من يرى أسباباً أخرى لتسمية الطائف، فيذكرون أنه كان نسبة إلى طوف "حائط" بناه أحد التجار الأثرياء ليحجز ثقيف عن العرب، ويكون حصناً لهم(٢).

---

(١) البكري، معظم ما استعجم: ج١، ص٦٧. ياقوت الحموي: ج٤، ص٩.

(٢) الهمداني، صفة جزيرة العرب: ص١٢٠-١٢١.

والطائف مدينة صغيرة، قريبة من مكة، تقع على ظهر بجـــل غــزوان، أعظم جبال السراة، تلك السلسلة الجبلية الممتدة بحذاء البحر الأحمـــر، وتشـــرف واجهة السراة الشرقية على أودية تنتهي إلى البحر، ومن بين تلك الوديـــان وادي نعمان بين الطائف وعرفة، وفيه طريق الطائف المختصرة إلـــى مكـــة، وجبـــال السراة جنوب الطائف امتداد لجبال اليمن، وهي جبال كانت تتخذ أسماء القبـــائل التي سكنتها مثل سراة بني علي وفهم وسراة بجيلة والأزد بن ســـلامان وســـراة ألمع ودوس وعازر، ويحيط بالطائف نطاق من المزارع والبساتين تمتد إلى نحـــو ثلاثة أو أربعة كيلو مترات من المركز العمراني بالمدينة، ويطوق جبل غـــزوان جانبا من هذه المزارع بينما ينفتح سهل الطائف تجاه مكة[١].

أما مناخ الطائف فهو معتدل، لذلك كانت مصيفاً لأهل مكة، يأتونها فـــي الصيف عندما تشتد حرارة مكة، وأن سبب اعتدال مناخها وطيبة هوائها، وبـــرودة مائها، هو وقوع الطائف على منطقة مرتفعة، أما فهي الشتاء في باردة، وربمـــا تجمد الماء فيها[٢].

**السكان:**

أغلب سكان الطائف من قبيلة ثقيف المعروفة، وكان يسكن معهم جماعـــة من حمير وقوم من قريش، فالحميريون من أزد السراة، والقرشيون مـــن كنانـــة وعذرة، كما سكنها جماعة من هوازن والأوس والخزرج ومزينة وجهينة وهذيل، وإلى جانب هذه الطبقة من العرب كان يسكن الطائف جماعات من اليهود، أقـــاموا

---

(١) ياقوت الحموي: ج٤، ص١٢.

(٢) المصدر السابق: ج٤، ص١٠. ابن هشام: ق٢، ص٦٢.

فيها لممارسة نشاطهم التجاري، كما سكنها قوم من الروم[1]، وقد كـــانت ثقيــف سيدة الموقف في هذه المدينة وضربت المثل في الدفاع عنها والحفاظ على عزتها ومكانتها، وينسب إلى أبي طالب بن عبد المطلب القول:

منعنا أرضنا من كـــل حـــي كما امتنعت بطائفـــها ثقيــف

أتاهم معشر كـــي يسـلبوهم فحالت دون ذلكم السـيوف[2]

## الحياة الاقتصادية:

كانت الطائف المدينة الثانية في الحجاز من حيث الأهمية الاقتصاديـــة، و اشتهر أهلها بممارسة حرفة الزراعة، وإلى جانب هـــذه الحرفـــة اشـــتغل أهـــل الطائف بحرف أخرى مثل تربية النحل وإنتاج العسل والتجارة، وقد ساعد اعتدال مناخ الطائف وخصوبة تربتها فضلا عن توافر المياه العذبة فيها على قيام نشـــاط زراعي على نطاق واسع، واشتهرت الطائف من بين مناطق الحجـــاز بزراعـــة القمح، وعلى حنطة الطائف كانت تعتمد كل حواجز الحجاز، وخاصة مكة، كمـــا اشتهرت الطائف بفواكهها المتعددة الأنواع، وفي مقدمتها الأعناب والتمـــور ثـــم يأتي الموز والرمان والتين والخوخ والبطيخ. وقد اشتهر تمر الطائف بجودتـــه، أما العنب فعليه تعتمد ثورة الطائف الاقتصادية[3].

---

(١) ياقوت الحموي: ج٤، ص١١.

(٢) المقدسي: ص٧٩. ابن قتيبة، عيون الأخبار: ج٣، ص٢٢٧.

(٣) ابن قتيبة: ج٣، ٢٠٥.

أما تربية النحل فكانت من الأعمال الهامة التي اشتهر بها أهل الطـــائف، وكان عسل الطائف يصدر إلى معظم المدن المجاورة، ويشـــكل مصـــدراً هامــاً لثروة المدينة، كما مارس أهل الطائف حرفة التجارة وكانوا يتجرون في الزبيــب والحنطة والعسل والأدم، وكانت القوافل تخرج إلى مكة حاملة هذه الســـلع كــل يوم.

# المبحث الثاني

# أحوال العرب العامة

## أولاً: معنى مصطلح الجاهلية

قبل أن نتعرف أحوال العرب السياسية والاجتماعية والاقتصادية والدينية قبل الإسلام، لابد من وقفة قصيرة عند مصطلح (الجاهلية) و(العصر الجاهلي) الذي درج جمهور واسع من المؤرخين والباحثين في الأدب – قديما وحديثا – على استخدامه عند تناول العصر الذي سبق الإسلام.

ولتوضيح معنى هذا المصطلح لا يجب الخلط بين الجهل الذي هو ضد العلم ونقيضه، أو انعدام المعرفة في لغتنا المعاصرة، وبين الجهل المناقض للحلم في اللغة العربية قبل الإسلام، فالجهل في لغة ما قبل الإسلام يعني الخضوع لسطوة الانفعال والاستسلام لقوة العاطفة دون الاحتكام إلى رزانة العقل وقوة المنطق، وهكذا نفهم افتخار بعض الشعراء في هذا العصر بالقدرة على مقابلة الجهل بهذا المعنى بمثله، وذلك جرى على لسان أكثر من شاعر فقد قال عمرو بن كلثوم في طويلته:

ألا لا يجْـهلن أحـد علينـا      فنجهل فوق جـهل الجاهلينـا

وقول آخر:

وبعض الحِلم عند الجهـ      لِ للذلة إذعـان

وذهب الفرزدق إلى المعنى نفسه في نقيضته المشهورة حين قال:

أحلامُنا تزن الجبال رزانةً | وتخالُنا جِناً إذا ما نجهل

وكذلك الشريف الرضي في قولهِ:

وللحلم أوقات وللجهلِ مِثْلُها | ولكن أوقاتي إلى الحِلْم أقربُ

إذا فالجهل هنا ينصب على السلوك المنافي للعقل والمنطق، وهو كما يفهم من سياق الاستخدام من شعر ما قبل الإسلام، العدوان الذي لا سبب له ولا مبرر من جهة العقل والمنطق. إن التأويل الاجتماعي للغة الاستناد إلى مبدأ القوة والقهر في العلاقات بين القبائل من جهة وبين الأفراد والجماعات من داخل القبيلة من جهة أخرى، إنه المبدأ الذي صاغه زهير بن أبي سلمى الشاعر في قوله:

ومن لم يذد عن حوضه بسلاحه | يهدم... ومن لا يظلم الناس يظلم

ولا شك أن العلاقات الاجتماعية القائمة على الظلم والجهل كانت من أهم أسباب التخلف العام في ذلك الواقع.

وهكذا نجد بين المعنى التاريخي لمصطلح الجاهلية، وبين معنى الجهل باستخدامنا المعاصر علاقة وصلة ووشائج، فعدم العلم وانتفاء المعرفة ركيزة أساسية للخضوع لسطوة الانفعال والاستسلام لقوة العاطفة أو لنقل التعصب.

وبمرور الأيام تحولت كلمة (الجاهلية) في لغة ما بعد الإسلام إلى يومنا هذا لتكون مصطلحاً دالاً على مرحلة تاريخية في تطور المجتمع العربي، ولكن ما الفرق بين مصطلح (الجاهلية) ومصطلح (ما قبل الإسلام) من الناحية التاريخية؟.

إلى عهد قريب كان كثير من الباحثين يكتفون بدراسة تاريخ العرب قبل الإسلام مقدمة لما يقومون به من أبحاث في العصور الإسلامية تحت عنوان (العصر الجاهلي)، ولما كان المقصود بالعصر الجاهلي هو العصر الذي سبق الإسلام بزمن لا يتجاوز أل (١٠٠ أو ١٥٠ سنة) على أكثر تقدير، وهو التاريخ الذي يمكن أن يرجع إليه أقدم ما يوثق به مما وصل إلينا من الشعر العربي أو من الأحداث التي عرفتها القبائل العربية مما عرف بأيام العرب، التي تداولها القصّاص والرواة شفاها إلى أن سجلها أوائل المؤرخين الذين يعرفون بالأخباريين.

إن هذه الحقبة قصيرة نسبياً عندما يتعلق الأمر بتاريخ الأمم والشعوب ولا تفي بالغرض المطلوب بالنسبة للباحثين المهتمين بالدراسات التاريخية.

وهكذا ظهرت الحاجة إلى توسيع مجال البحث زمنياً إلى ما وراء المائة وخمسين سنة من تاريخ بلاد العرب حتى يتوافق من الناحية التاريخية ما اصطلح على تسميته بالعصور الوسطى المبكرة "من القرن الثالث إلى القرن الخامس من ميلاد السيد المسيح" فكان من المناسب اتخاذ تسمية أخرى بدل تسمية العصر الجاهلي، فأطلق على هذه الدراسة تسمية "تاريخ العرب قبل الإسلام"[١].

## ثانياً: الحالة السياسية

كان هناك نوع من التنظيم السياسي في أماكن التجمعات الرئيسية في إقليم الحجاز، ولكن ذلك التنظيم لم يكن قائماً على منهج منظم للإدارة، على نحو

---

(١) جواد علي: ج١، ص٤٠ وما بعدها.

ما نعرفه الآن، فقد كان الأساس في الحياة السياسية لعرب ما قبل الإسلام هو العصبية القبلية، حيث ألفت كل قبيلة جماعة مستقلة إلى حد ما، وكل فرد منها كان لا يرى في زعامة شيخ القبيلة أو سلطته إلا رمزاً لفكرة عامة شاءت الظروف أن يأخذ هو منها نصيب، بل كان مطلق الحرية في أن يرفض ما اجتمع عليه رأي الأغلبية من أبناء قبيلته، وأبعد من هذا أنه لم يكن هناك نظام لنقل سلطة رئيس القبيلة، فكان يختار لها غالباً أكبر الأفراد سناً وأكثرهم مالاً، وأعظمهم نفوذاً، وأجدرهم بكسب الاحترام الشخصي، وإذا ما تضخمت قبيلة ما تشعبت فروعاً كثيرة يتمتع كل منها بحياة منفصلة ووجود مستقل.

كان شيخ القبيلة يتمتع بسلطات سياسية واسعة فهو الذي كان يحق له إعلان الحرب والدعوة إلى السلام، وأن طاعته بين أبناء قبيلته تعد ديناً واجب الوفاء به، كما أن عليهم الدفاع عن سمعته.

ركن آخر من أركان القبيلة الأساسية يتمثل في شاعرها، فالشاعر هو صوت القبيلة والمعبر عن آرائها والمادح لأفعالها والذاكر لنسبها وفضلها وتاريخها وهو المهاجم لأعدائها، لقد كان الشاعر في عصره يقوم بدور مهم في الحياة السياسية لا يقل عن دور أجهزة الأعلام في العصر الحديث.

من جانب آخر لم يعرف إقليم وسط الجزيرة العربية الاستقرار بسبب الحروب الكثيرة بين القبائل العربية التي عرفت في التاريخ باسم (أيام العرب)، وقد سميت هذه الأيام بأسماء الأماكن التي وقع فيها أبرز أحداثها، أو القبائل التي اشتركت فيها، وأشهر تلك الحروب: حرب البسوس بين قبيلتي بكر وتغلب ابن وائل، وهما من القبائل العدنانية بسبب قتل ناقة، واستمرت حوالي ٤٠ عاماً التقوا خلالها في معارك كثيرة، وفشلت كل مساعي الصلح بين الطرفين، وكذلك حرب

داحس والغبراء بين قبيلتي عبس وذبيان بسبب سباق للخيـــل واســـتمرت لعـــدة سنوات وكذلك حروب الفجار التي أشرنا إليها[1].

## ثالثا: الحالة الاجتماعية

*القبيلة هي الوحدة الأساسية في المجتمع العرب قبـــل الإسـلام*، وهـــي جماعة من الناس ينتمون إلى أصل واحد مشـــترك، تجمعـــهم وحـــدة الجماعـــة وتربطهم رابطة العصبية للأهل والعشيرة، ورابطـــــة العصبيـــة: هـــي شـــعور التضامن والتماسك والاندماج بين من تربطهم رابطة الـــدم، وهـــي علـــى هـــذا الأساس مصدر القوة السياسية والدفاعية التي تربط بين أفراد القبيلة.

وكان لكل قبيلة مجلس يتكون من شيوخها، يرأسه شيخ يختارونـــــه مـــن بينهم يسمونه الرئيس أو الشيخ أو الأمير أو السيد، وكان يشترط في اختيـــاره أن يكون من أشرف رجال القبيلة، وأشدهم عصبية وأكثرهم مـــالاً وأكـــبرهم ســـناً وأعظمهم نفوذاً وتتوافر فيه شروط أخرى حسنة كالشجاعة والكـــرم ومســـاعدة الضعفاء ودفع ديات الفقراء من قبيلته، وأن يكون حكمه نافذاً على جميع أفـــراد قبيلته.

**طبقات المجتمع:**

كان المجتمع القبلي قبل الإسلام يتكومن من عدة طبقـــات هـــي: طبقـــة الأشراف وهم كبار القوم، وطبقة الموالي وتضم الحلفاء أيضـــاً، وأخـــيراً طبقـــة العبيد الذين يشترون من الأسواق أو يجلبونهم عن طريق الأسر فـــي الحـــروب،

---

(١) جواد علي: ج٤، ص١٥٩ وما بعدها.

وهؤلاء لا يتمتعون بحقوق كثيرة، كما أثقل كاهلهم بالواجبات ويعهد إليهم عـــادة بالأعمال التي يأنف العرب من القيام بها.

والأسرة في مجتمع الحجاز هي بيت العربي وملاذه، ولقد عُرف العربـي قبل الإسلام بحبه لأسرته وحمايته لها وتعبه في سبيلها، وكانت الأسرة تقوم علـى الزواج، وقد وجدت عدة أنواع من الزواج في ذلك العصر حرمها الإسلام فيمـا بعد إلا زواج الصداق الذي أقره وأبقى عليه.

عرفت الأسرة في المجتمع القبلي قبل الإسلام تعـدد الزوجـات، كذلـك الطلاق الذي كان بيد الرجل في معظم الأحيان، وكان العرب يفضلـون البنيـن على البنات، وكان هذا أمراً طبيعياً في مجتمع قبلي يقوم على العصبية والنسـب، وكانت البنات في منزلة أدنى، وذلك لاعتماد العرب على الذكـور فـي الصيـد والغزو والحروب[١].

## رابعاً: الحالة الاقتصادية

قامت الحياة الاقتصادية في وسط شبه الجزيرة العربية علـى نشـاطين اقتصاديين أساسيين هما الرعي والتجارة بالإضافة إلى الزراعـة التـي كـانت محدودة في بعض المناطق التي توافرت فيها المياه، أما الصناعات فكانت يدويـة وقليلة.

---

(١) جواد علي: ج٤، ص٢٧١ وما بعدها.

إن طبيعة المناخ الجاف وشحة الأمطار كانتا سبباً فـــي نــدرة الغطــاء النباتي، لذلك احترف العرب مهنة الرعي وقاموا بتربية الحيوانات التي لا تتطلـب تربيتها كميات وافرة من المياه والخضرة مثل الماعز والأغنام والجمال والخيول.

كذلك عرف عن العرب قبل الإسلام اشتغالهم الواسع في التجارة، حتـــى قيل "كل عربي تاجر" وكان هناك طريقان رئيسان للقوافل التجارية أحدهما مـــن الشمال إلى الجنوب يكون بمحاذاة البحر الأحمر، وهذا الطريق يتفرع في الشـمال إلى فرعين: فرع إلى الشرق باتجاه بلاد الشام، وفرع إلى الغرب باتجاه فلســطين ومصر.

أما الطريق الثاني فكان يخترق جزيرة العرب من الغرب إلـــى الشــرق، أي من البحر الأحمر إلى الخليج العربي مروراً بمكة، وفي وسط جزيرة العــرب يتفرع هذا الطريق إلى فرعين أيضاً، فرع يتجه نحو الشمال الشرقي حتى يصـــل الأبلة جنوب العراق "البصرة" في أعلى الخليج العربي بينما يتجــه الآخــر إلــى الجنوب الشرقي ويسير بمحاذاة سواحل الخليج العربي مروراً بـــالبحرين حتـــى عمان.

وقد تعود أهل مكة على القيام برحلتين تجـاريتين ســنوياً الأولـــى فـــي الصيف وتتجه شمالاً إلى بلاد الشام، والأخرى شتاء وتتجه جنوباً إلى بلاد اليمن، وقد حدثنا القرآن الكريم عن هاتين الرحلتين في سورة قريش.

وكان قصي بن كلاب زعيم قريش وأولاده من بعده قـــد نظمـوا هــذه الرحلات وضمنوا انسياب التجارة المكية بأمان من خلال الاتفاقيات التي عقدوهـا مع ملوك الدول المجاورة في العراق والشام واليمـــن والحبشــة، فضــلاً عــن الاتفاقيات مع رؤساء القبائل التي تقع أراضيها على طرق التجارة بتأمين الحمايــة

والخدمات للقوافل التجارية التي تمر بها، ومجمل هذه الاتفاقات المنظمة للنشاط التجاري اصطلح على تسميتها بالإيلاف، الذي ورد ذكره في القرآن الكريم(١).

من جانب آخر عرفت شبه جزيرة العرب نشاطاً اقتصادياً من نوع آخر هو الأسواق الموسمية التي كانت تتنقل على مدار العام في أنحاء مختلفة من شبه الجزيرة العربية، ولم يقتصر دور هذه الأسواق على التبادل السلعي والنشاط الاقتصادي فقط بل كان لها أدوار ثقافية واجتماعية، ومن أشهر هذه الأسواق: سوق عدن، وسوق عكاظ، وذو المجاز وغيرها(٢).

---

(١) سورة قريش: ١-٢.

(٢) جواد علي: ج٧، ص٣١٨ وما بعدها.

# المبحث الثالث

## الحالة الدينية في الحجاز قبيل الإسلام

عرب الحجاز مثل سائر الشعوب الأخرى عبدوا الآلهة، وفكروا في وجود قوى عليا لها عليهم حكم وسلطان، فحاولوا، كما حاول غيرهم، التقرب منها واسترضاءها بمختلف الوسائل والطرق، ووضعوا لها أسماء وصفات وخاطبوها بألسنتهم وقلوبهم، وكان الدين عند عرب الحجاز قبل الإسلام نتيجة تطور طويل وعوامل مختلفة، فكانت ديانتهم وثنية، وأهم معبوداتهم الحجارة والأشجار، وهذه الحجارة والأشجار لم تعبد لذواتها بل عبدت على أساس أنها بيوت الآلهة.

وتعد مكة قلب الحجاز النابض، الذي فيه البيت الحرام والكعبة المشرفة بيت إبراهيم وإسماعيل –عليهما السلام– هذا البيت الذي جعله الله مثابة وآمنا كي يذكر فيه اسمه، هذا البيت لم يبق له المشركون قداسة وحرمة، بعد أن جعلوه بيتاً للأصنام وللطواغيت، تلك الأصنام التي قيل أن عددها بلغ ثلثمائة وستين صنماً، وكان العرب قبل الإسلام يأتون البيت فيطوفون به، وحظيت مكة بمكانة رفيعة نظراً لوجود الكعبة فيها، ولم يكن أهل الحجاز قبل الإسلام على دين واحد، وإنما كانوا مللاً مختلفة ومذاهب شتى، منهم المؤمن بالله، ومنهم من آمن بالله لكنه أشرك بعبادته الأصنام زاعماً أنها تشفع له عند الله وتقربه منه، فكانوا يحجون إليها ويقدمون لها القرابين والهدايا، ويؤدون عندها المناسك والمشاعر وهؤلاء هم الوثنيون، ولكن بعضاً منهم آمن بالله منكرا الحساب، وبعضهم أنكر الخالق

ويوم الحساب على السواء، ومنهم الحنفاء الذين اهتدوا عن طريق التفكير إلى أن لهذا الكون خالقاً وأن ثمة حياة أخرى فيها يجازي الإنسان خيراً بخير وشراً بشر، يضاف إلى هؤلاء بطبيعة الحال أهل الكتاب أصحاب الديانات السماوية من اليهود والنصارى.

## أولاً: وثنية العرب، أصلها ومظاهرها

يكاد يجمع كتّاب السيرة وأهل الأخبار على أن العرب قبل أن تتسرب إليهم الوثنية كانوا على دين إبراهيم وأنهم كانوا يحجون إلى البيت على أنه بيت لعبادة الله الواحد. ولكن كيف ومتى تحول العرب إلى الوثنية؟ وما الأصل في عبادتهم للأصنام، وما مظاهر الوثنية عندهم؟.

لقد اختلف المؤرخون في أصل عبادة العرب للأصنام، فمنهم من زعم بأنها محلية، ومنهم من قال بأنها مجلوبة من الخارج، ويذكر مؤيدو الرأي القائل بأنها محلية: أن أهل الموتى أرادوا إحياء ذكراهم، فنحتوا صوراً من الحجر على شكلهم تمثلهم وعبدوها بعد ذلك. ويقول الدكتور جواد علي: إن عبادة الأوثان التي كانت في قوم نوح، كانت في الأصل أشخاصاً صالحين من قوم نوح، فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا في مجالسهم التي كانوا يجلسونها أنصاباً، وسمّوها بأسمائهم، ففعلوا، فلم تعبد، حتى إذا هلك أولئك ونوسخ العلم بهم عبدت[1]، على أن العرب لم ينحتوا الأصنام لجهلهم بالفنون الجميلة، لذلك يرجح الرأي القائل بأن الأصنام مجلوبة من الخارج.

(١) جواد علي: ج٦، ص٧٠.

يؤكد ذلك ما ذكره مؤرخو العرب في قصة عمرو بن لحي، فيذكر ابن هشام أن عمرو بن لحي (زعيم خزاعة) خرج من مكة إلى الشام في بعض أموره، فلما قدم ماب من أرض البلقاء (الأردن) وبها يومئذ العماليق، رآهم يعبدون الأصنام، فقال لهم ما هذه الأصنام التي أراكم تعبدون؟ فقالوا: هذه أصنام نعبدها فنستمطرها فتمطرنا، ونستنصرها فتنصرنا، فسألهم أن يعطوه منها فأجابوه طلبه، وقدم مكة بهبل ودعا الناس إلى عبادته وإلى مفارقة الحنفية، فأجابه جمهور وأكره من لم يجبه حتى تم ما له ما أراد(١).

وهناك من يرى أن عمرو بن لحي جلب هبل من هيت بالعراق(٢)، مما يؤكد أن الأصنام مجلوبة من الخارج.

وهناك رواية أخرى تقول أن عمرو بن لحي مرض مرضاً شديداً، فرحل إلى البلقاء بالشام ليتشفى في إحدى حماماتها، فاستحم وشفى ووجد أهل البلقاء يعبدون الأصنام فأعجبه ذلك فطلب منهم صنماً من أصنامهم، فدفعوا إليه بهبل، فسار به إلى مكة، ووضعه في الكعبة(٣).

أما سبب عبادة العرب للأوثان والحجارة، أنه كان لا يضعن من مكة ضاعن، إلا وحمل معه حجراً من حجارة الحرم تعظيماً له، ويذكر أهل الأخبار أنهم كانوا يضعون هذه الحجارة أينما حلوا أو ارتحلوا، ثم يأخذون بالطواف حولها استشعاراً بها واستمرار لعادة طوافهم بالبيت، ثم أن الأمر آل بهم في نهاية المطاف إلى عبادة هذه الأحجار بعد أن كانوا على دين إبراهيم فبعدوا الأوثان،

---

(١) ابن هشام: ق١، ص٩٤.

(٢) جواد علي: ج٦، ص٧٩.

(٣) ابن هشام: ق١، ص٩٤.

وصاروا إلى ما كانت عليه الأمم قبلهم من ضلالات[1]، وفيهم على ذلك بقايا من عهد إبراهيم وإسماعيل يتمسكون بها: مثل تعظم البيت، والطواف به، والحج، والعمرة، والوقوف على عرفة، ومزدلفة، وإهداء البدن والإهلال بالحج والعمرة مع إدخالهم فيه ما ليس فيه[2].

**ومن أبرز مظاهر الوثنية عند العرب:**

**١- تقديس الأشجار والأماكن والأشياء المادية:**

اعتقد بعض العرب قبل الإسلام بأن الأرواح تحل في بعض الأشجار فينظرون إليها نظرة تقديس، ويعرضون عن إلحاق الأذى بها أو قطعها، خوفاً من انتقام الروح التي حلت فيها، وكانوا يقدمون لها القرابين وينذرون النذور، ويتخذون مواضعها حرماً مقدساً يحجون إليه في بعض الأحيان[3].

وأشهر هذه الأشجار نخلة نجران التي جعلوا لها في كل سنة عيداً، وشجرة ذات الأنواط، وكانت شجرة عظيمة ملتفة الأوراق، متشابكة الأغصان كانت بالقرب من مكة وكان يأتيها القرشيون ومن جاورهم من الأعراب كل سنة فيعكفون عليها ويذبحون عندها. فإذا قصدوا مكة للحج علقوا أرديتهم على أغصانها، ودخلوا الحرم بغير أردية تعظيماً للبيت، ولذا سميت "ذات الأنواط"[4].

---

(١) المصدر السابق والجزء: ص٩٥.

(٢) جواد علي: ج٦، ص٧٧.

(٣) المصدر السابق: ج٦، ص٤٠-٤١.

(٤) يحيى الشامي: ص١٠٩.

### ٢- عبادة الكواكب والأجرام السماوية:

لقد نظر الإنسان إلى السماء فوقف بها وقفة المتحير معتقداً أن فيها قوى خفية تهيمن على هذا الوجود، وأن ثمة في أجرام السماء أرواحاً حية، الأمر الذي مال به إلى اعتبارها آلهة، أو إنصاف آلهة تهب الموت والحياة فهي تستحق العبادة والتكريم، ولعل في قصة سيدنا إبراهيم -عليه السلام- ووقوفه إزاء الشمس والقمر ما فيه الكفاية للدلالة على مثل هذا الشعور أو الإحساس الذي راود الإنسان، ويجب أن لا يغرب عن البال أن بني الله إبراهيم ما كان بالمشكك أو المنكر لوجود الله تعالى -حاشى ذلك- ولكنه تساءل بلسان قومه الذين كانوا يعبدون الأصنام على سبيل التعجب والسخرية والإنكار والتنديد[١].

والشمس هي أول الأجرام السماوية التي لفتت إليها أنظار البشر بتأثيرها في الإنسان وفي الزروع والنماء، وهذا التأثير جعل الإنسان يتصور في الشمس قدرة خارقة وقوة غير منظورة كامنة فيها، فعبدها وألهها، وقد تعبد العرب للشمس في مواضع مختلفة في جزيرة العرب وترجع عبادتها إلى ما قبل الميلاد، في زمن لا نستطيع تحديده، لعدم وجود نصوص تكشف لنا وقت ظهور عبادة الشمس عند العرب[٢]، ويبدو أن عبارة الكواكب جاءت العرب عن طريق الصابئة وبقايا الكلدان الذين تأثر بهم العرب، حتى الآلهة الأرضية ونعني بها الأصنام فإنها -حسبما تذهب بعض المصادر- إلا تمثيلاً لما علاها وعلاهم من الجواهر العلوية والأجسام السماوية التي هي سبعة من الأشخاص الفلكية

---

(١) يحيى الشامي: ص١٠٣.

(٢) جواد علي: ج٦، ص٥٥.

الرئيسية المؤلفة من الشمس والقمر وعطارد والزهــــرة، والمريـــخ والمشـــتري وزحل، وبحسب رأي العديد من الباحثين فإنه يمكن إرجاع عبادة العرب لآلهــــة الفلك والسماء إلى ثالث معبود هو القمر (واسمه ود) عند المعينيين، و الشــمس (وهي اللات) وعشترا، والعزى وهي الزهـــرة ألمــع الكواكــب بعــد الشــمس والقمر[١].

## ثانياً: التحنف والأديان السماوية

إلى جانب الوثنية وجدت في الحجاز عقائد موحدة وأديان سماوية رفــض أصحابها أي مظهر من مظاهر الشرك والكفر، وعلى الرغم من قلة عدد هــؤلاء إلا أن أثرهم في الحياة الاجتماعية كان واضحاً وأهم هذه العقائد.

**١- الحنيفية:**

الحنفاء في اللغة من حنف (ح ن ف) والحنيف المسلم، وتحنف الرجـــل عمل الحنفية، ويقال اعتزل الأصنام وتعبد[٢].

والحَنَف: الاستقامة – وحنف: مال – والحنيــف الصحيــح الميــل إلــى الإسلام الثابت عليه وكل من حج أو كان على دين إبراهيم –عليــه الســلام–[٣].

والحنفاء اصطلاحاً هم الذين اهتدوا عن طريق التفكير إلى أن لهذا الكون خالقـــاً وأن ثمة حياة أخرى يجازى بها الإنسان.

---

(١) يحيى الشامي: ص١٠٤-١٠٦.

(٢) الرازي مختار الصحاح: ص١٥٩ (حنف).

(٣) الطاهر أحمد الزاوي، مختار القاموس: ص١٥٨.

وحنيف في الأصل "صابيء" أي خارج من ملة قوم، تـــارك لعبادتـــهم، والحنفاء كما يفهم من روايات أهل الأخبار، كانوا طراراً من النساك، نسكوا فـــي الحياة الدنيا وانصرفوا إلى التعبد للإله الواحد الأحد إله إبراهيم وإسماعيل، ومـــن أشهر الرجال الذين قال عنهم أهل الأخبار كانوا من الأحناف: قس بـــن ســاعدة الإيادي، وزيد بن عمرو بن نفيل، وأمية بن أبي الصلت، وأربابـــا بـــن رتـــاب، وورقة بن نوفل القرشي، وعبد الله بن جحش الأسدي[١]، وذكروا أن هؤلاء التقوا ذات يوم فقال بعضهم لبعض: تعلمون والله ما قومكم على شيء، لقد أخطؤوا ديـــن أبيهم إبراهيم، ما حجر نطوف به لا يسمع ولا يبصر ولا يضر ولا ينفع، يا قـــوم التمسوا لأنفسكم دينا، فتفرقوا في البلاد يلتمسون الحنفية دين إبراهيم. فأما ورقـــة ابن نوفل فقد خرج إلى بلاد الشام يبحث عن الحنفية فدخل النصرانية وعاد إلـــى مكة حيث مات في الأيام الأولى للبعثة النبوية، وأما عبد الله بن جحش فقد ظـــل متلبساً في أمره لا يشارك قريشا في عبادتها حتى جاء الإسلام فأسلم ثـــم ارتـــد ودخل النصرانية، وكان زيد بن نفيل قد اعتزل أيضاً عبادة قريش وأخـــذ يـــهاجم معتقداتها فأخذت قريش تؤذيه وتضيق عليه فخرج من مكة ينشد ديـــن الحنفيـــة، وقيل أنه قتل في بلاد الشام حين عزم على الرجوع إلى مكة بعد ســماعه ببعثـــة النبي محمد ﷺ[٢]، ولقد كان للحنفية أثر كبير في إضعاف عبادة الأوثـــان وإعـــداد العرب قبل الإسلام وتهيئتهم لعقيدة التوحيد.

---

(١) جواد علي: ج٦، ص٤٦٨.

(٢) محمد عثمان علي: دراسات في أدب العرب قبل الإسلام، ص٨٤.

## ٢- اليهودية:

يقيم اليهود عاد في القرى والمدن حيث المال والاستقرار وأسباب الزراعة والتجارة والصناعة، ولا سيما في يثرب، وقد سبق الحديث عنهم في هذه المدينة، كما كان لهم وجود في تبوك وتيماء، ويبدو أنه لم تكن لليهود جاليات كبيرة في مكة، لعدم وجود إشارات في المصادر إليهم، ولا يستبعد وجود أفراد أو أسرة منهم في مكة، غير أن وجودهم في هذا الموضع لم يكن له أثر واضح فلم يتجاوز محيط التجارة والاتجار[١].

## ٣- النصرانية:

أقام النصارى في عدة مواضع من شبه الجزيرة العربية، ولا سيما في بلاد اليمن وبحران وفي المناطق الشمالية المجاورة للعراق ولبلاد الشام، وكان بين سكان مكة عند ظهور الإسلام جماعة من النصارى هم من الغرباء النازحين إليها لأسباب عديدة منها: الرق والاتجار والتبشير والحرفة، فأما الرقيق فمنهم الأسود والأبيض، والأسود من أفريقيا، والأبيض من أوروبا، أو من أقطار الشرق الأدنى، وكان من بين هؤلاء النصارى عدد كبير من الأحباش[٢] ويمكن إرجاع أسباب اعتناق بعض سكان الحجاز للديانة النصرانية إلى تأثرهم بالقساوسة والرهبان، أو نتيجة سفرهم إلى بعض المدن أو البلدان المجاورة التي تسود فيها هذه الديانة.

---

(١) جواد علي: ج٦، ص٥٣٠.

(٢) المصدر السابق: ج٦، ص٥٠٥.

## ثالثاً: الكعبة وأشهر أصنام العرب

كعبة مكة تمثل بيتاً من أعظم بيوت العرب قاطبة لأنها حظيت بمكانة رفيعة لا يدانيها فيها أي بيت من البيوت، إنها البيت الحرام الذي أمر الله تعالى نبيه إبراهيم ومعه ولده إسماعيل بإرساء قواعده وبشرع مناسكه وإقامة مشاعره، ليعبد فيه الله تعالى، وليذكر فيه أسمه بالغدو والآصال، وكيف لا تحظى الكعبة بهذا المقام الرفيع وهي أقدم بيت للعبادة.

**أما أشهر الأصنام التي عبدها عرب الحجاز فهي:**

**- هُبَل:**

"بالضم ثم الفتح، بوزن زُفَر، أظنه من الهابل وهو الكثير اللحم والشحم"[١]. وهناك تفسيرات أخرى لكلمة هبل على أنها الهبلة ومعناها القبلة وآخر بالهيبلي بمعنى الراهب كذلك هبل بمعنى الغنم، وغيرها من التفسيرات، ويرجع اضطراب الناس والعلماء في تسميته إلى أنه استورد من الخارج وحافظ على تسميته الأصلية[٢]، وكان هبل أعظم الآلهة الوثنية في مكة، وكان موضعه داخل الكعبة، وهو مصنوع من عقيق أحمر على صورة إنسان مكسور اليد اليمنى، أدركته قريش كذلك فجعلوا له يداً من ذهب، وكان أول من نصبه خزيمة بن مدركة بن إياس بن مضر، وكان يقال له هبل هزيمة، وهناك روايات تنسب هبل إلى عمرو بن لحي، تقول أنه جاء به إلى مكة من العراق فنصبه على البئر

---

(١) ياقوت الحموي: ج٥، ص٣٩١.

(٢) جواد علي: ج٦، ص٢٥٢.

في بطن الكعبة، فكان الرجل إذا قدم من سفره بدأ به على أهله بعد طوافه بـــالبيت فحلق رأسه عنده[1].

وكان عند هبل سبعة قداح، كل قدح منها فيه كتاب، وقـــدح فيـــه العقـــل (الدية)، وإذا اختلفوا في من يحمل (العقل) منهم ضربوا بالقداح السبعة قدح فيـــه "نعم" للأمر إذا أرادوه يضرب به في القداح، فإن خرج قدح "نعـــم" عملـــوا بـــه، وقدح فيه لا إذا أرادوا أمرا ضربوا به في القداح، فإن خرج ذلك القداح لم يفعلـوا ذلك الأمر، وقدح فيه "منكم" وقدح فيه "ملصق" وقدح فيه "من غيركم" وقدح فيـــه "المياه" إذا أرادوا أن يحفروا للماء ضربوا بالقداح، وفيها ذلك القدح، فحيثما خرج عملوا به، وكانوا إذا أرادوا أن يختنوا غلاما أو ينكحوا منكحا، أو يدفنوا ميتـــا أو شكوا في نسب أحدهم، ذهبوا به إلى هبل وبمائـــة درهـــم وجـــزور، فأعطوهـــا صاحب القداح الذي يضرب بها، ثم قربوا صاحبهم الذي يريدون به ما يريـــدون، ثم قالوا: يا إلهنا هذا فلان بن فلان قد أردنا به كذا وكذا، فأخرج الحق فيـــه، ثـــم يقولون لصاحب القداح: اضرب، فإن خرج عليه "منكم" كان منهم وســـيطا، وإن خرج عليه "من غيركم" كان حليفا وإن خرج عليه "ملصق" كان على منزلته فيـــهم لا نسب له ولا حلف، وإن خرج فيه شيء مما سوى هذا يعملون به "نعم" عملـــوا به وإن خرج "لا" أخره عاما ثم عاودوا الكرة في العام التالي. وعند هبل ضـــرب عب المطلب بالقداح على ابنه عبد الله[2]. ويبدو أن هبل كان صنما معبودا علـــى نطاق واسع، ومن الأصنام التي لها شأن كبير عند مشركي عموم منطقة الحجـــاز

---

(١) جواد علي: ج٦، ص٢٥١.

(٢) ابن هشام: القسم الأول، ص١٥٢-١٥٥.

يأتونه مستقسمين ويأتونه حاجين ملبين ويقولون لبيك الله لبيك، إننا لقاح، حرمتنا على أسنة الرماح، يحسدنا الناس على النجاح[١].

- **إساف ونائلة:**

يقول ابن هشام كان إساف ونائلة رجلاً وامرأة من جرهم، فوقع إساف على نائلة في الكعبة فمسخهما الله حجرين، فأُخرجا إلى الصفا والمروة فنصبا عليها لكيونا عبرة وموعظة، فلما طال مكثهما وعبدت الناس الأصنام عبدا معها، وكان أحدهما بلصق الكعبة والآخر في موضع زمزم، فنقلت قريش الذي بلصق الكعبة إلى الآخر، فكانوا ينحرون ويذبحون عندها، ويذكر أن عمرو بن لحي هو الذي وضع إساف ونائلة كل واحد منهما على ركن من أركان البيت، فكان الطائف إذا طاف بدأ بإساف فقبله وختم به[٢].

- **اللات:**

اللات من الأصنام القديمة المشهورة عند العرب وكانت صخرة مربعة بيضاء، بنت ثقيف عليها بيتاً صاورا يسيرون إليه، يظاهون به الكعبة وله صحبة وكسوة ويحرمون واديه، وكانت سدانته لآل أبي العاص من ثقيف، وكانت قريش وجميع العرب يعظمونه أيضاً، ويتقربون إليه، وكان مبعد اللات الشهير في الطائف يقصده الناس للتبرك به[٣].

---

(١) جواد علي: ج٦، ص٢٥١.

(٢) المصدر السابق: ج ٦، ص٢٦٦.

(٣) ياقوت الحموي: ج٥، ص٢٥٤.

- **العزى:**

وهي من الآلهة التي عبدها العرب عامة وقريش خاصة، وكانت رفيعة المنزل عندهم لدرجة أن المنذر بن ماء السماء قدم لها أربعمائة من أسرى الغساسنة ضحايا والعزى صنم أنثى وهي أحدث عهدا من اللات ومناة، وأما الذي اتخذ العزى فهو ظالم بن سعد، والعزى كانت بنخلة عندها وثن تعبده غطفان، وسدنتها من بني صرمة بن مرة، وكانت أعظم الأصنام عند قريش وكانوا يزورونها ويهدون لها ويتقربون عندها بالذبائح، وكانت قريش تطوف بالكعبة وتقول: واللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى فإنهن الغرانيق العلى وإن شفاعتهن لترتجى، وكانوا يعتقدون بأنهن بنات الله وهن يشفعن إليه، وكانت التلبية عند العزى هي: "لبيك اللهم لبيك، لبيك وسعديك، وما أحبنا إليك"(١).

- **مناة:**

وهي الثالثة من مثلث الشرك إضافة إلى اللات والعزى، ومناة لعله يكون من المناة وهو القدر، وكأنهم أجروه مجرى ما يعقل ويجوز أن يكون من المنا وهو الموت كأنه لما نسب الموت إليه تسمى به، ويجوز أن يكون من مناه الله بحبها أي ابتلاه كأنه أراد أنه المبتلى، ومناة اسم صنم في جهة البحر مما يلي المثلل بقديد بين المدينة ومكة والذي نصبه في ذلك الموضع عمرو بن لحي.

وكانت مناة للأوس والخزرج وغسان من الأزد ومن دان بدينهم من أهل يثرب وأهل الشام، وكانت على هيأة صخرة وتعبدها هذيل أيضا، وكان الأوس والخزرج ومن كان على دينهم من عرب أهل يثرب وغيرها، يحجون ويقفون

---

(١) جواد علي: ج٦، ص١٧٥.

مع الناس مواقف الحج كلها ولكن لا يحلقون رؤوسهم، فإذا نفروا من حجهم أتوا مناة وحلقوا رؤوسهم عندها، وأقاموا بقربها، ولا يرون لحجهم تماما إلا بذلك، وكان من عادة الآوسين والخزرجيين أن يهلوا لها ومن أهل لها يطف بين الصفا والمروة. وكانوا إذا أهلوا بحج أو عمرة لم يستظل أحدهم بسقف بيت حتى يفرغ من حجته أو عمرته، وكان الرجل إذا أحرم لم يدخل ببيته وإن كانت له فيه حاجة، وإذا اضطر إلى الدخول تسور من خلف البيت حتى لا يظله سقفه[1]، فلما جاء الإسلام أبطل هذه العادة وأنزل الله الآية الكريمة: ﴿وليس البر أن تأتوا البيوت من ظهورها ولكن البر من اتقى...﴾[2]، وكانت نهاية مناة على يد علي ابن أبي طالب ﷺ الذي بعثه الرسول ﷺ لهدمها، فهدمها وأخذ ما كان لها، وجاء به إلى النبي، فكان فيما أخذ سيفان أحدهما اسمه "مخدما" والآخر "رسوبا"، كان الحارث بن أبي شمر الغساني قد أهداهما لها، فوهب الرسول السيفين لعلي، ويقال أن ذا الفقار سيف علي، أحدهما، وكان ذلك عام الفتح سنة ثمان للهرة، وكانت اللات والعزى ومناة، مثلث الشرك الجاهلي، قد ذكرهن الله في قوله تعالى: ﴿أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى﴾[3].

---

(١) الأزرقي: ج١، ص٧٩.

(٢)البقرة: ١٨٩.

(٣)النجم: ١٩-٢٠.

- **مناف:**

وهو من أصنام العرب قبل الإسلام وكان مستقبل الركن الأسود وله غبغان أسود من حجرة يذبح بهما الذبائح، وقد تعبدت له قريش ولحيان، وورد ذكر "مناف" بين عرب الشام، يبدو أنه كان معبوداً عندهم كذلك[1].

- **الصنمان مجاور ومطعم الطير:**

وهما صنمان كانا منصوبين على الصفا والمروة مقابل الكعبة، الأول يقال له مجاور الريح والثاني مطعم الطير، ويقال أن عمرو بن لحي هو الذي نصب على الصفا صنما يقال له: مطعم، ويقال أن الناس كانت تضع عندهما شيئاً من الحبوب فتأتي الطير فتأكلها.

- **سواع:**

أصل تسميته غامض، وكانت تعبده بنو كنانه وهذيل ومزينة وعمرو بن قيس عيلان، ويقال أن هذيل اختصت بعبادته أكثر من غيرها.

- **يعوق:**

صنم في اليمن في قرية خيوان التي تقع على بعد ليلتين من صنعاء، وكانت تبعده بني همدان.

---

(١) ياقوت الحموي: ج٥، ص٢٠٤.

**- يغوث:**

موضعه في اليمن أيضاً في منطقة يقال لها مزحج، ولا يعرف عنه الشيء الكثير ويبدو أنه كان من الآلهة المحلية التي لم تنتشر عبادتها في مناطق أخرى.

**- ود:**

مكانة في دومة الجندل، وكان أول من عبده عوف بن عذرة، من بني كلب، وكان بعضهم يهدونه اللبن، وهو عبارة عن تمثال رجل كأعظم ما يكون من الرجال، وقد نقشت عليه حلتان متزر بواحدة ومرتد بأخرى، عليه سيف قد تلقده وقد تنكب قوساً، وبين يديه حربة فيها لواء، وجعبة فيها نَبْل، وقد بعث رسول الله ﷺ خالد بن الوليد من غزوة تبوك لهدمه، فلاقى مقاومة شديدة من أتباعه، فقاتلهم وتمكن من هدمه[1].

**- ذو السرى:**

يبدو أن اسمه مشتق من جبال السراة، وقد عبده الأنباط وكان عندهم على هيئة صخرة مربعة ارتفاعها أربعة أقدام وطولها قدمان، وهو صنم لبني الحارث بن يشكر من الأزد[2].

---

(١) ابن الكلبي، الأصنام: ص٢٨-٥٦.

(٢) المصدر السابق: ص٣٧.

- **نسر:**

لم يشع ذكره كثيراً ولم يتسم به أحد، وكان مكانه في اليمن في موضع من أرض سبأ، وكانت تعبده حمير وما جاورها[1].

- **الفَلْس:**

هذا الضم كان عبارة عن أخدود في وسط جبل أجا، شكله يشبه شكل إنسان كانت تعبده طي وتهدي إليه، وسدنته من بني بولان، وكان يلجأ إليه الخائفون والمطاردون وظلت عبادته قائمة حتى جاء الإسلام[2].

- **ذو الخلصة:**

كان موضع هذا الضم بمنطقة تبالة بين مكة واليمن على مسيرة سبع ليال من مكة، وكانت تعبده خثعم وبجيلة وأزد السراة ومن أقاربهم من بطون العرب من هوزان، وكانوا يستقسمون عندها بالأزلام ويهدون إليها الشعير والحنطة ويصبون عليها اللبن، وبعد فتح مكة كان من جلة الوافدين على الرسول محمد ﷺ جرير بن عبد الله البجلي، فطلب إليه الرسول أن يهدم ذا الخلصة، فخرج جرير لذلك وقاتلته خثعم وباهلة من أجله، فَقَتل منهم خلقاً كثيراً وظفر بهم وهدم بناء ذي الخلصة وأحرقه[3].

---

(١) المصدر السابق: ص١١.

(٢) المصدر السابق: ص٥٩.

(٣) المصدر السابق: ص٣٥-٣٦.

يضاف إلى تلك الأصنام المعروفة أصنام أخرى كثيرة ولكنها أقل أهمية وعبادتها محدودة، فضلاً عن وجود أصنام خاصة في البيوت، وكان عندهم إلى جانب الأصنام بيوت للعبادة يسمونها "الطواغيت" وهي بيوت تنظمها العرب كتعظيم الكعبة، لها سدنة وحجاب، وتهدي لها كما تهدي الكعبة، وتطوف بها كطوافها بها وتنحر عندها[1].

- مفهوم الحرم:

قيل سمي "الحرم" حرما لتحريم الناس فيه كثيراً مما ليس بمحرم في غيره من المواضع، ولا يجوز لأحد انتهاك حرمة الحرم والاعتداء عليه، وإذا دخل إنسان الحرم صار آمنا مطمئنا، ولا يجوز أن يعتدي عليه، ولا أن يمس بسوء، وإن كان قاتلاً، وحدود الحرم أنصابه، وهي علاماته، فمن اجتازها وصار داخلها دخل في حرمة الحرم، ولمكانة الحرم في نفوس الجاهليين، ولأنه موطن آمن، من دخل فيه صار آمناً، كان لابد من تحديده ووضع معالم تشير إلى نهايته، إما بوضع أنصاب على أطرافه، وإما ببناء حائل كجدار أو سياج، وقد جعل أهل مكة حدود البيت أنصاباً من تجاوزها إلى الداخل صار من حرمة الحرم وفي حماية رب البيت، وكانت أرض الحرم واسعة في الأصل، ثم تقلصت وضيقت وحددت بحدود، بسكن الناس حولها، كالذي حدث بمكة، إذ كان الحرم واسعاً كبيراً، يشمل الوادي كله، فلما هبط "قصي" به وابتنى البيوت، اعتدى من جاء بعده على الحرم حتى صغر، وقد كانت الكعبة أقدم موضع عند قريش وعند

---

(١) ابن هشام: ق١، ص٨٣.

غيرهم من عبدة الأصنام الذين كانوا يقدسون "البيت الحرام" وذلك بسبب وجـود الأصنام فيه[1].

- **كساء الكعبة:**

كسوة الكعبة عادة قديمة، كان يقوم بها العرب قبل الإسلام، ويذكر ابـن هشام أن تبع الحميري أول من كسا الكعبة في الجاهلية، فكساها الخصف (حصـر من خوص النخل) ثم كساها المعافر، ثم كساها الملاء والوصائل (ثياب يمنيـة)[2]. ويظهر من روايات أهل الأخبار أن كسوة الكعبة لم تكن كسوة واحـدة ولا مـن نسيج واحد، بل كانت انطاعاً، أي بسط مـن أدم، وحـبرة وبـروداً، وكسـبت بمطارف الخز الخضراء والصفراء وبشقاق الشعر والكرار وهو الخيش الرقيـق، والحرير. وأول من كسا البيت الحرير "نتيلة بنت جناب بن كليب" وهي من بنـي عامر، وكان العباس بن عبد المطلب، قد ضاع وهو صغير فنذرت أمه إن وجدته أن تكسو البيت الحرير، فسكته، فهي أول من كساه ذلك. وقيل أن أول من كسـا البيت الديباج خالد بن جعفر بن كلاب، وروي أنهم كانوا يكسـون الكعبـة يـوم عاشوراء، ويكسونها يوم التروية[3].

وذكر أن قريشا كانت ترافد في كسوة الكعبة فيضربون ذلك على القبـائل بقدر احتمالها منذ أيام قصي بن كلاب إلى أن ظهر أبو ربيعة بن المغيرة بن عبـد الله بن عمر بن مخزوم، وكان يختلف إلى اليمن يتجر بها، فـأثرى مـن المـاء،

---

(١) جواد علي: ق٦، ص٤١٣-٤١٤.

(٢) ابن هشام: ق١، ص٣٩.

(٣) جواد علي: ج٦، ص٤٤٣.

فكان يكسوها وحده سنة، وجميع قريش تكسوها سنة أخرى على التعاقب، ويبدو أنهم كانوا يضعون الأكسية الجديدة فوق الأكسية القديمة فلا يرفعونها عنها، فكانت تتراكم بعضها فوق بعض(١)، وأول من حلّى البيت عبد المطلب لما حفر زمزم وأصاب فيه من دفن جرهم غزالتين من ذهب فضربهما في باب الكعبة(٢).

**بعض مظاهر الوثنية العربية:**

**- الكهانة:**

كان للعرب قبل الإسلام طقوس خاصة للعبادة في الكعبة وخارجها إرضاء للآلهة بالتقرب إليها وتنفيذ أوامرها، ومن مظاهر الشرك عندهم أنهم اتخذوا الكهان وسطاء بينهم وبين الآلهة، واعتقدوا أن منهم المطلعون على الأسرار، وهم العالمون بالغيب، وهم الذين اختصوا بالمعرفة من بين سائر الناس، ويقضون بالأمر، والكاهن هو الذي يشرف على الاحتفالات الدينية وينظم الطوافات ويشهد تقديم القرابين للآلهة.

**- الاستقسام بالأزلام:**

ومن مظاهر الشرك بالله ذات الصلة بالكهانة والكهان، الاستقسام بالأزلام، وكان العرب في الجاهلية يفعلونه بقصد معرفة عاقبة فعل يريدون فعله، هل هي النجاح والنفع أو هي خيبة وضر، والزلم: هو القدح الذي لا ريش عليه والجمع أزلام بضم الزاي، وهي السهام التي كان أهل الجاهلية يستقسمون بها،

---

(١) جواد علي: ج٦، ص٤٤٤.

(٢) ياقوت الحموي: ج٤، ص٤٦٦.

وزلم القدح سواه ولينه، والقداح أو الأزلام هي عبارة عن سهام غير متصلة يضربونها أي يستقسمون بها عند الأصنام[1].

ومن أشهر صور الاستقسام بالأزلام ثلاث قطع إحداهما مكتوب عليها "أمرني ربي"، وربما كتبوا عليها "أفعل" ويسمونه الأمر، والأخرى مكتوب عليها "نهاني ربي" أو "لا تفعل" ويسمونه الناهي، والثالث غُفل أي متروك بدون كتابة.

والصورة الثانية للأحكام وهي العقل في حالة الدية، وفي حالة إثبات النسب حيث هناك أقداح مكتوب عليها "منكم" "من غيركم" و"ملصق" وقد سبق الحديث عنها عند حديثنا عن "هبل".

أما قداح الميسر فهي سهام عشرة يتم الاستقسام بها للمقامر على أجزاء جذور ينحرونه ويتقامرون على أجزائه، أما ما يوضع في القداح فهو القربة الصغيرة وهي من الجلد والجعبة والكنانة التي تستعمل لحمل سهام الرمي.

وكان العرب قبل الإسلام إذا أرادوا سفراً أو تجارة أو نكاحاً أو اختلفوا في نسب أو أمر قتيل أو تحمل عقل أو غير ذلك من الأمور العظيمة جاءوا إلى "هبل" أو ذهبوا إلى صنم "ذي الخلصة". وكانوا يأتون إلى الصنم ويقدمون بين يدي السادن الذي يقوم بضرب القداح مائة درهم وجزوراً، تعطى جميعاً لصاحب القداح، والظاهر أن سدنة بيوت الأصنام كانت لهم أساليب وحيل للإقناع.

**- الهدايا والنحر:**

من المعروف أن للتضحية ولتقديم القرابين للآلهة أهمية كبرى عند جميع الأمم الوثنية وقلما استثنيت منها أمة لم تمارس هذه الشعيرة التي تدخل في صلب

---

(١) يحيى الشامي: ص٦٣-٦٩.

عقيدة تعدد الآلهة والعبادة للأصنام، فهي عادة وثنية عرفتها جميع الأمم والقبائل منذ فجر التاريخ، فقد كان العرب قبل الإسلام يعظمون البيت بالدم، ويتقربون إلى أصنامهم بالذبائح، ويرون أن تعظيم البيت أو الصنم لا يكون إلا بالذبح، وأن الذبائح من تقوى القلوب، والذبح هو الشعار الدال على الإخلاص في الدين عندهم، وكان الجاهليون يريقون دم الضحية على الأنصاب، وهي موضوعة في الكعبة، ويمسحون به جدران الكعبة، وذبح الهدايا على اختلافها كان يتم في مواسم معينة، إما تقربا من الآلهة أو وفاء لنذر، أو براً بيمين أو إنجاز لوعد موعود، أما الحجر الذي كان يذبح عنده للأصنام فاسمه "الغري"[(١)].

ومن مظاهر تكريم المشركين للآلهة وتعظيمهم لها والتقرب منها، أنهم كانوا يقومون بخدمتها، ويبذلون لها شيئاً مما يملكون من الأموال النقدية وغير النقدية من عين ومتاع، ولم يبخل الجاهليون على أصنامهم، فقدموا لها حتى المأكل والمشرب لاعتقادهم أنها تسر بذلك وتفرح، فقد علقوا على "ذي الخلصة" القلائد وبيض النعام والبرد النفيسة، وقدموا له الحنطة والشعير واللبن أيضاً ليشرب منه وذبحوا له[(٢)].

وللنذور دور خطير في الحياة الدينية عند العرب قبل الإسلام، وهي متنوعة قد تكون ذبيحة، وقد تكون جملة ذبائح وقد تكون نقوداً، وقد تكون فاكهة أو زرعاً، وقد تكون أرضاً، أو حبساً لإنسان يهب نفسه أو مملوكه أو ابنه للآلهة، وقد يوهب ما في بطن امرأة أو ما في بطن حيوان، وقد يكون النذر حيوانات حية، وهي أغلب هداياهم، وقد ذكر الله تعالى هذا النوع الأخير من

---

(١) جواد علي: ج٦، ص١٩٦.

(٢) المصدر السابق: ج٦، ص١٨٩.

الهدايا في الآية الكريمة: (ما جعل الله من بحيرة ولا سائبة ولا وصيلة ولا حام، ولكن الذين كفروا يفترون على الله الكذب وأكثرهم لا يعقلون)[1]. فما هذه الأنواع التي ذكرها القرآن الكريم.

## أ- البحيرة:

لقد جاء في كتب التفسير أنهم كانوا يمنعون در الناقة مدة من الزمن، فما يليها أحد من الناس وذلك ليكون نتاجها خالصاً لطواغيتهم وبيوت آلهتهم التي كانوا بها يؤمنون، وهذه الناقة التي يحبس درها يقال لها البحيرة، ويذكر ابن هشام أن البحيرة هي بنت السائبة، والسائبة الناقة إذا تابعت بين عشر إناث ليس بينهن ذكر، سيبت، فلم يركب ظهرها ولم يجز وبرها ولم يشرب لبنها إلا ضيف، فما نتجت بعد ذلك من أنثى شقت أذنها ثم أخلي سبيلها مع أمها[2].

وهناك من يقول أن البحيرة هي التي يمنح درها للطواغيت، فلا يحلبها أحد من الناس، وقيل لها بحيرة لأنهم بحروا أذنها أي شقوها، بينما يورد بعضهم أن البحيرة هي التي يحرم أهل الجاهلية وبرها وظهرها ولحمها ولبنها إلا على الرجال، فما ولدت من ذكر أو أنثى فهو على هيئتها، وإن ماتت اشترك الرجال والنساء في أكل لحمها، وورد كذلك أن البحيرة من الإبل: الناقة إذا نهجت خمسة أبطن أنحروا الخامس إن كن سقباً، وإن كان أربعة شقوا أذنها واستحيوها وهي

---

(١) المائدة: ١٠٣.

(٢) ابن هشام: ق١، ص٨٩-٩٠.

بحيرة، وكان أول من بحر البحائر عمرو بن لحي، إذ قيل إنه أول من بحر البحيرة وسيب السائبة[1].

## ب- السائبة:

أما السائبة فهي الناقة التي تسيب للآلهة فلا يحمل عليها شيء، وقيل هي الناقة التي ينذر الرجل أن يسيبها إن برئ من مرضه، أو إن أصاب أمراً يطلبه، فإذا كان أساب ناقة من إبله، أو جملاً لبعض آلهتهم، فسابت ورعت لا ينتفع بها[2].

## جـ- الوصيلة:

الوصيلة من الغنم هي الشاة تلد أنثى بعد أنثى فتسمى الأم الوصيلة لأنها وصلت أنثى بأنثى، وقد فسرها ابن هشام قائلاً: إن الوصيلة هي الشاة إذا أتأمت عشر إناث متتابعات في خمس أبطن، ليس بينهن ذكر، جعلت وصيلة.

قالوا: قد وصلت، فكان ما ولدت بعد ذلك للذكور منهم دون إناثهم إلا أن يموت منها شيء، فيشتركون في أكله ذكرهم وإناثهم[3]، وقد يطلق اسم الوصيلة على الشاه إذا ولدت ستة أبطن، نظروا فإذا كان السابع ذكراً ذبح وأكل منه الرجال والنساء، وإن كان أنثى تركت في الغنم، وإن كان ذكراً وأنثى قالوا: وصلت أخاها، ولم يذبح، وكان لحمه حرام على النساء[4].

---

(١) جواد علي: ج٦، ص٢٠٤.

(٢) ابن هشام: ق١، ص٩٠.

(٣) المصدر السابق: ق١، ص١٠٥.

(٤) جواد علي: ج٦، ص٢٠٦.

وفي رواية أخرى لابن هشام عن ابن اسحق: الوصيلة التي تلـــد أمـــها اثنين في كل بطن فيجعل صاحبها للآلهة الإناث منها، ولنفسه الذكـــور[1]، وقــد تكون الوصيلة الناقة البكر التي تبكر في أول نتاج الإبل، ثم تثني بعدهـــا بـــأنثى واصلة بين الاثنين وليس بينهن ذكر.

**د- الحام:**

الحامي: هو فحل الإبل الذي يضرب الإبل الضراب المعدود، فإذا قضـــى ضرابه دعوة للطواغيت وللأصنام، وقيل الحامي: الفحل إذا أنتج له عشر إنـــاث متتابعات ليس بينهن ذكر، حمي ظهره فلم يركب، ولم يجز وبره وخُلّي في إبلـــه يضرب فيها، ولا ينتفع منه بغير ذلك[2]، ويذكر جواد علي أن الحامي هو البعـــير إذا أنتج عشرة أبطن من صلبه، وقالوا قد حمى ظهره، فـــلا يركـــب ولا يحمـــل عليه، ولا يمنع من ماء ولا مرعى، وقالوا الحام من الإبل: كان الفحل إذا انقضى ضرابه جعلوا عليه من ريش الطواويس وسيبوه، وذكر أن الحام، الفحل يضـــرب في الإبل عشر سنين، ويقال: إذا ضرب ولده قيل قد حمى ظـــهره، فيتركونـــه لا يمس ولا ينحر أبداً ولا يمنع من كلأ يريده[3].

---

(١) ابن هشام: ق١، ص١٠٥.

(٢) جواد علي: ج٦، ص٢٠٦.

(٣) الطبري: ج١، ص١٢٤. جواد علي: ج٦، ص٣٥١-٣٥٤.

## رابعاً: الحج وشعائره

يعرف الحج عن الجاهلية الذهاب إلى الأماكن المقدسة في أزمنة موقوتة للتقرب إلى الآلهة، وإلى صاحب ذلك الموضع المقدس، والحج بهذا المعنى معروف في جميع الأديان تقريباً، وهو من الشعائر الدينية القديمة عند الجزريين، وكلمة "حج" من الكلمات الجزرية الأصيلة القديمة، وتعني قصد مكان مقدس وزيارته، وقد ميز الشهر الذي يقع فيه الحج عن الأشهر الأخرى بتسميته "شهر ذي الحجة" و"شهر الحج" وهي تسمية قديمة معروفة قبل الإسلام.

كان سيدنا إبراهيم الخليل -عليه السلام- أول من أذن إلى حج بيت الله، وذلك بعد أن أمره الله سبحانه وتعالى، فكان العرب قبل الإسلام يحجون إلى البيت منذ يوم تأسيسه وأنهم كانوا يقصدون مكة أفواجاً من كل مكان، وأن ملوكهم كانوا يتقربون إلى "بيت الله" بالهدايا والنذور، وأن الناس كانوا يقسمون بالبيت الحرام لما له من مكانة في نفوسهم، وكان عرب الحجاز يحجون إلى البيت ويعتمرون، وكانوا يحلون ويحرمون، فيتلمسون الحجر الأسود أو يلحون إليه بأيديهم ووجوههم، ثم يطونون سبعة أشواط متتالية، ثم يسعون بين الصفا والمروة سبعة أخرى تماماً كما يفعل المسلمون اليوم، كما كانوا يلبون ويفيضون من مزدلفة، وينفرون إلى منى، ويرمون الجمار ويهدون الهدي، ويحلقون أو يقصرون[١].

---

(١) جواد علي: ج٦، ص٣٥٣-٣٥٤.

ويظهر مما جاء في روايات أهل الأخبار عن حج البيت أن مناسك الحج لم تكن واحدة بالنسبة للحجاج بل كانت تختلف باختلاف القبائل، فقد انفردت قريش بأمور من أمور الحج واعتبرتها من مناسك حجها، وانفردت قبائل أخرى بمناسك لم تعتبرها قريش موجبة لها، ولم تعمل بها.

يستعد الجاهليون للحج عند حضورهم موسم "سوق عكاظ" فإذا انتهت أيام السوق، وأراد منهم من أراد الحج، ذهب إلى "مجنة" فأقام بها إلى هلال ذي الحجة، ثم ارتحل منها إلى "ذي المجاز" ومنه إلى "عرفة" فإذا كان يوم التروية، تزودوا بالماء وارتفعوا إلى عرفة، هذا بالنسبة للتجار الذين كانوا يأتون هذه المواضع للتجارة.

أما بالنسبة إلى غيرهم فقد كانوا يقصدون الحج في أي وقت يشاؤون، ثم يذهبون إلى عرفة، ويبدأ حج أهل الجاهلية بالإهلال، فكانوا يهلون عند أصنامهم، ويلبون إليها، فإذا انتهوا من ذلك قدموا إلى مكة، وطافوا بالبيت وبالأصنام، ركن من أركان الحج، ومنسك من مناسكه، وكانوا يفعلونه كلما دخلوا البيت الحرام، فإذا انتهوا من ذلك قدموا إلى مكة وطافوا بالبيت وبالأصنام، ركن من أركان الحج، ومنسك من مناسكه، وكانوا يفعلونه كلما دخلوا البيت الحرام، فإذا دخل أحدهم أكرم، كان أول شيء يفعله الطواف بالبيت[1].

---

(١) يحيى الشامي، ص٨١.

**مواكب الحج والعمرة:**

كان لحج البيت على الطريقة الجاهلية أثر كبير في تعزيز ظاهرة الشرك، وعلى إذكاء الروح الوثنية في نفوس المشاهدين، إذ كانت جماعات الحجيج تسير على شكل قوافل ومواكب متتابعة حيث الرايات مرفوعة والأصنام والثياب المصبوغة والحلل الزاهية، وهو ما يبعث على إلهاب الحماس وهياج المشاعر واستثارة الإعجاب[1].

أما بالنسبة للعمرة فكان أهل الجاهلية يقومون بها في شهر رجب وكانوا يؤدونها كما يؤدون الحج، وفي شهر رجب يذبحون الذبائح من الهدايا والنذر، حينما يأتون أصنامهم ويطوفون حولها، وكانت حجاً خاصاً مختلفاً ومستقلاً عن الحج الآخر الذي يقع في شهر ذي الحجة.

**الإفاضة:**

الإفاضة تكون من عرفة إلى مزدلفة وفيه يمضي الحجاج ليلتهم، ليلة العاشر من ذي الحجة، ومنه تكون الإفاضة عند الشروق إلى "منى" لرمي الجمرات ولنحر الأضحية، ويرجع أهل الأخبار رمي الجمرات إلى "عمرو بن لحي"، ويذكرون أنه جاء بسبعة أصنام، فنصبها بـ "منى" عند مواضع الحجرات، وعلى شفير الوادي، ومواضع أخرى، وقسم عليها حصى الجمار، إحدى وعشرين حصاة[2].

---

(١) جواد علي: ج٦، ص٣٨٤-٣٨٦.

(٢) ابن هشام: ق١، ص٢٢٥.

ومن مظاهر الوثنية العربية الأخرى ظهور فئات لها أساليب في العبادة وفي ممارسة طقوس الحج تتلف عن الشائع المألوف عند غيرهم ومن هذا النوع فئات الحُمس والحلة والطلس.

**الحُمس:**

جاء في لسان العرب مادة "حمس": (الأحمس: المتشدد على نفسه في الدين، والحُمس: قريش لأنهم كانوا يتشددون في دينهم...).

ويذكر ابن هاشم في حديثه عن الحمس فيقول: "إنّ الحمس تقول: نحن أهل الحرمة وولاة البيت، وقطان مكة وسكانها، فليس لأحد من العرب مثل حقنا ولا مثل منزلتنا، ولا تعرف له العرب مثل ما نعرف، فلا تعظموا شيئاً من الحل كما تعظموا الحرم، فتركوا الوقوف على عرفة، والإفاضة منها، وهم يعرفون ويقرون أنها من المشاعر والحج ودين إبراهيم -عليه السلام- ويرون سائر العرب أن يفيضوا منها إلا أنهم قالوا نحن أهل الحرم فليس ينبغي لنا أن نخرج من الحرمة، ولا نعظم غيرها، كما نعظمها نحن الحمس، ثم جعلوا لمن ولدوا من العرب من ساكني الحل والحرم مثل الذي لهم، وكانت خزاعة وكنانة من القبائل التي آمنت مع قريش بالحمس[1]، ثم ابتدعوا بعض الأمور تمييزاً لأنفسهم عن غيرهم وإظهاراً لتشددهم في أمر دينهم وتعظيم مقدساتهم فقالوا، لا ينبغي للحمس أن يأقِطوا الأقط (من ألبان الإبل) ولا يسلؤوا السمن وهم حرم. كما لا ينبغي لهم دخول بيت من الشعر أو الاستظلال إلا في بيوت من آدم ما داموا حرماً. ثم زادوا في تشددهم وقالوا لا ينبغي لأهل الحل أن يأكلوا من طعام جاؤوا به معهم

---

(١) الأزرقي: ج١، ص١٢٤-١٣٠.

من الحل في الحرم إذا جاؤوا حجاجاً معتمرين، ولا يجوز لـــهم أن يـــأكلوا فـــي الحرم إلا من طعام أهل الحرم سواء كان ذلك قراء أو شراءً. وفرضوا على كـل حاج من غيرهم رجلاً كان أم امرأة أن يطوف بالبيت إلا عريانا أو فـــي ثـوب أعاره إياه أحمسي، أما هم فيطوفون في ثيابهم، وقد أدى إجبارهم للنســـاء علـــى الطواف عريانات إلى بعض الحوادث الطريفة التي تزخر بأخبارها كتـــب الأدب، وكان الحمس يعظمون الأشهر الحرم ولا يحفزون فيها الذمة أو يظلمـــوا وكـــان الرجل منهم إذا أحرم وكان من سكان البيوت المبنية نقب نقباً في ظهر بيته فمنـــه يدخل ويخرج ولا يدخل من الباب لأن المرور تحت عتبـــة البـــاب محـــرم فـــي عرفهم، وقد امتنعوا عن الوقوف في عرفة وجعلوا موقفهم فـــي طـــرف الحـــرم عوضاً عن ذلك، ويظلون هناك طيلة وقوف الناس في عرفة منه يفيضون إلـــى المزدلفة.

**الحلـــــة:**

الحلة: هم ما عدا الحمس وأنهم كانوا يطوفون عراة إن لم يجدوا ثيـــــاب أحمس، وكانوا يقصدون من طرحهم ثيابهم طرحهم ذنوبهم معها.

وكان الحلة يحرمون الصيد في النسك ولا يحرمونه في غـــير الحـــرم، ويمنح غنيهم ماله أو أكثره للفقراء حين يتنسك. وهـــم علـــى عكـس الحمـــس، يسمحون لفقرائهم بسلئ السمن، ويغزلون من الصوف والوبر والشعر ما يكفـــي حاجتهم. وحين يتنسكون لا يلبسون الثياب الجديدة، ويمتنعون من دخول البيـــوت من أبوابها والجلوس في الظل ما داموا محرمين، وإذا دخلوا مكة بعد فراغهم من الحج تصدقوا بأحذيتهم وأثوابهم، واستعاروا من الحمس ثيابا يلبســـونها للطـــواف

تنزيها للكعبة من أن يطوفوا حولها في ثياب قد يكون أصابها دنس. وكانوا يستأجرون من الحمس ثيابهم ولا يشترونها لأنه محرم عليهم أن يشتروا شيئاً أو يبيعوه حتى يعودوا إلى منازلهم بعد انتهاء الموسم، ويذكر أن الحلة كانوا لا يطوفون عراة دوماً، بل يطوفون عراة فقط في أول حجة يحجونها، وأنهم كانوا ينزلون عرفة بعكس الحمس، وقد فعل النبي ﷺ فعلهم قبل الهجرة[1].

**الطلس:**

وهم فئة دينية بين الحلة والحمس، يصنعون في إحرامهم ما يصنع الحلة، ويصنعون في ثيابهم ودخولهم البيت ما يصنع الحمس، وكانوا لا يطوفون عراة ولا يستعيرون ثياب الحمس ولا يحرمون دخول البيوت من أبوابها، والطلس لا يختلفون عن الحلة إلا في قضية الألبسة ودخول البيوت من أبوابها، ولقد سميت هذه الفئة بالطلس لأنهم كانوا يأتون من أقصى اليمين طلساً من الغبار فيطوفون بالبيت في تلك الثياب فسموا بذلك والطلس هم سائر أهل اليمن وأهل حضرموت وعك وإياد[2].

**التلبية:**

كان هناك نوعان من التلبية عند العرب قبل الإسلام في موسم الحج، تلبية عند البيت الحرام، وتلبية عند الأصنام، ويبدو أن تلبية المشركين وهم يطوفون البيت لم تكن واحدة، إذ كانت قيس عيلان تطوف بالبيت وهي تلبي ما يشبه تلبية المسلمين القائمة على أساس الإيمان بإله واحد، فتقول: "لبيك اللهم لبيك

---

(١) جواد علي: ج٦، ص٣٧٣.

(٢) المصدر السابق: ج٦، ص٣٧٦.

أنت الرحمن،، انتك قيس عيلان راجلها والركبان"، وكانت العرب إذا أرادت حج البيت الحرام وقفت كل قبيلة عند صنمها وصلّوا عنده ثم لبوا حتى يقدموا مكة فكانت تلبياتهم مختلفة، وكانت تلبية كنانة: لبيك اللهم لبيك، اليوم يوم التعريف يوم الدعاء والوقوف، وكانت تلبية بني تميم: لبيك اللهم لبيك، لبيك عن تميم قد تراها، قد اختلفت أثوابها وأثواب من ورائها، وأخلصت لربها دعاءها، وكانت تلبية ثقيف: لبيك اللهم أن ثقيفاً قد أتوك، وأخلفوا المال وقد رجوك[١].

أما التلبية عند الأصنام فقد كان أهل الجاهلية يطوفون بالبيت أسبوعياً، وكان يمسحون الحجر الأسود ويسعون بين الصفا والمروة وكانوا يلبون، فكانت التلبية "للعزى" "لبيك اللهم لبيك، بما هو أحب إليك". وكانت تلبية من نسك مناة "لبيك اللهم لبيك، لبيك لولا أن بكرا دونك، يبرك الناس ويهجرونك، ما زال حج عثج يأتونك، إنا على عدوانهم من دونك، والتلبية تعني إجابة المنادي، أي إجابة الملبي ربه، وقولهم لبيك اللهم لبيك، معناه: إجابتي لك يا رب وإخلاصي لك، وقد كان الجاهليون يلبون لأصنامهم تلبيات مختلفة[٢].

### بعض الوظائف ذات الصلة بالحج:

### الإجازة بالحج:

ذكر ياقوت الحموي "... كانت قبيلة من جرهم أسمها (صوفة) بقيت بمكة تلي الإجارة بالناس مدة"، وفيهم يقول الشاعر:

---

(١) المصدر السابق: ج٦، ص٣٧٥-٣٧٦.

(٢) ياقوت الحموي: ج٥، ص١٨٦.

ولا يريمون في التعريف موقعهم      حتى يقال أجيزوا آل صوفانا

ثم أخذتها منهم خزاعة، وأجازوا مدة، ثم غلبتهم عليها قيس عيلان، وصارت إلى رجل منهم يقال له أبو سيارة وفيهم يقول الشاعر:

جلو السبيل عن أبي سيارة      وعن مواليهِ بن فزاره
حتى يجيز سالما حماره      مستقبل الكعبة يدعو جاره

فلما قوي قصي أتى أبو سيارة وقومه فمنعه قصي من الإجازة وقاتلهم عليها، فهزمهم فصار إلى قصي البيت، فلما كبر قصي ورق عظمه جعل الأمر كله في ذلك إلى ابنه عبد الدار لأنه أكبر أولاده، وهلك قصي وبقيت قريش على ذلك زماناً[(١)].

**الحجابة أو السدانة:**

وهي حجابة الكعبة أوسدنتها، فلا يفتح بابها إلا بأمره، وهو الذي يلي أمر خدمتها، وكان القائم بأمر الحجابة يمتلك مفاتيح الكعبة، وهو الذي يأذن للناس بالدخول إليها، ولا تقام شعائر دينية إلا بإذنه، وليس هناك من دليل على أنه يفترض فيمن يقوم بها أن يكون عالماً بالشؤون الدينية أو له صفة الكهانة، وقد أخذ قصي الحجابة من خزاعة، فكان قصي بيده مفاتيح الكعبة فيأذن للناس بدخولها، وبايعت قريش قصياً بالملك فكانت له الحجابة والإشراف على الكعبة،

---

(١) جواد علي: ج٦، ص٢١٣.

وربما عدت الحجابة والسدانة منصباً واحداً، والسدانة تنتقل بالإرث من الآباء إلى الأبناء وتنحصر في الأسرة فتكون من حلها ونصيبها لا يمكن انتزاعها إلا بقوة لا يمكن التغلب عليها، ومن واجب العشيرة التي تنتمي إليها هذه الأسرة الدفاع عنها إن حاول غريب انتزاع هذا الشرف منها[١]، وكانت السدانة في أيدي بني عثمان بن عبد الدار وظلت في يدهم حتى فتح النبي مكة في سنة ٨هـ، فأقر المفتاح في يد عثمان بن عبد الدار[٢].

**الرفادة:**

كانت قريش تؤدي الرفادة إلى قصي، وهو خرج يخرجونه من أموالهم يترافدون فيه فيصنع طعاماً وشراباً للحاج أيام الموسم، فيأكله من لم يكن له سعة ولا زاد، وذلك أن قصياً فرضه على قريش فقال: "يا معشر قريش، إنكم جيران الله، وأهل بيته وإنه يأتيكم في هذا الموسم زوار الله وحجاج بيته وهي ضيف الله وأحق الضيف بالكرامة ضيفه، فأجمعوا لهم ما تصنعون لهم به طعاماً أيامهم هذه التي لابد لهم من الإقامة بها فإنه والله لو كان مالي يسع لذلك ما كلفتموه، فيخرجون لذلك خرجاً من أموالهم كل امرئ بقدر ما عنده، فيصنع به للحجاج طعاماً، حتى يصدروا منها، ويضيف ابن هشام: إن هاشماً أول من أطعم الثريد للحجاج بمكة، ثم صارت الرفادة بعد المطلب إلى عبد المطلب ثم لأبي طالب.

---

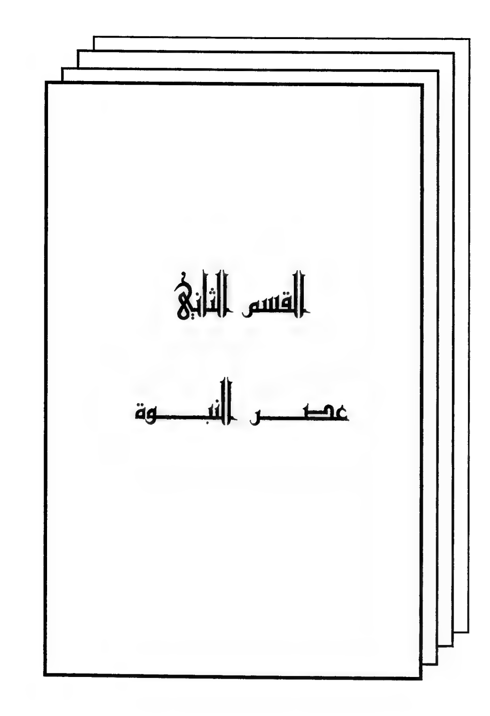
(١) ياقوت الحموي: ج٥، ص١٧٧.

(٢) ابن هشام: ق١، ص١٥٨.

**السقايـــــة:**

كانت السقاية في بني هاشم وصاحبها يتولى سقاية الحجيج لقلـــة المـاء العذب في مكة فينشئ حياضاً من الجلد توضع في فناء الكعبة، وينقل إليها المـاء في القرب من آبارْ مكة، وكان العديد منها قد حضر في زمن قصي وعبد شـمس إلى أن حضر عبد المطلب بئر زمزم. أما الماء فكان يحلى بنقيع الزبيب ليستطيع الحاج شربه، لما كان فيه من غلظة، ويرى أنه كان لعبد المطلب إبل كثيرة، كـان يحلبها ويمزج حليبها بالعسل في حوض من أدم ويقدمه للحجاج، كما كان يشـتري الزبيب فينبذه بماء زمزم ويسقيه الحاج لأنه يكسر غلظ مائها.

وقد كانت السقاية في يد بني هاشم ثم للمطلب بن عبد مناف، ثـم لعبـد المطلب وللزبير بن عبد المطلب ثم لأبي طالب، ولكنه لم يكن قادراً على ذلـك، فآلت السقاية والرفادة معاً إلى العباس بن عبد المطلب، وقد دامت له حتـى فتـح الرسول ﷺ مكة.



# القسم الثاني

# عصر النبوة



# الفصل الأول

## سيرة الرسول محمد بن عبد الله ﷺ

## من المولد حتى المبعث

## المبحث الأول: المولد والنشأة

أولاً: محمد بن عبد الله: الأصل والنسب.

ثانياً: المولد والنشأة.

## المبحث الثاني: المشاركة في الحياة الاجتماعية

- الرحلة الأولى إلى الشام.
- المشاركة في حرب الفجّار.
- حلف الفضول.
- زواجه من خديجة بنت خويلد.
- المشاركة في إعادة بناء الكعبة.

# المبحث الأول

# المولـــــد والنشـــأة

## أولاً: محمد بن عبد الله

### الأصل والنسب:

هو محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصـــي بن كلاب بن مرة بن كعب، ويرتفع نسبه الكريم إلى معد بن عدنـــــان بـــن ولـــد إسماعيل بن إبراهيم الخليل (عليهما السلام)، وأمه ﷺ آمنة بنت وهب بـــن عبـــد مناف بن زهرة بن كلاب بن مرة، فهو من قريش، ومن أسرة من أشرف أسرها.

كان جده قصي بن كلاب زعيم قريش، وقد تمكن من انتزاع السيادة فـــي مكة من قبيلة خزاعة وجعلها لقريش، وإلى قصي هذا يرجع الفضل فـــي جمـــع قريش وترتيبها على منازلها، فميّز بين قريش البطاح وقريش الظواهر، وقريـــش البطاح هم البطون التي كانت تسكن مكة نفسها، وكان منهم التجار والأثريـــاء، أمـــا قريش الظواهر فقد سكنوا خارج مكة.

بدأ نجم قبيلة قريش في الصعود والارتفاع بعد أن قام زعيمـــــها قصـــي بتجميعها وتنظيمها، وهو أول من أعز قريش، وبقيادته ظهر مجدهـــا وارتفعـــت سمعتها، وبعد أن استقامت لقصي الأمور بنى داره بجوار الكعبـــة فســـميت "دار الندوة"، ثم توجهه لتنظيم الحياة الاقتصادية، فكان "الإيلاف" أهم منجزاته، ومنــــه

استمدت مكة سلطتها الحقيقية إلى جانب سلطتها الدينية، فالتجارة كانت أهم ما شُغل به قصي وأولاده من بعده، وهم الذين عقدوا الاتفاقيات التجارية والأمنية مع الدول المجاورة، وآل إلى أربعة منهم أمر رئاسة قوافل قريش إلى تلك البلدان، فقد ذكر الطبري متحدثاً عن بني عبد مناف:

"... فكانوا أول من أخذ لقريش العِصَم، فانتشروا من الحرم، أخذ لهم هاشم حبلاً من ملوك الشام الروم وغسان، وأخذ لهم عبد شمس حبلاً من النجاشي الأكبر، فاختلفوا بذلك السبب إلى أرض الحبشة، وأخذ لهم نوفل حبلاً من الأكاسرة فاختلفوا بذلك السبب إلى العراق وأرض فارس، وأخذ لهم المطلب حبلاً من ملوك حمير فاختلفوا بذلك السبب إلى اليمن..."(١)، وإلى هذا النشاط التجاري الواسع يعزو المؤرخون غنى أولاد قصي، والثراء الذي كانوا ينعمون به، وكان لموت هاشم المبكر أثره في إضعاف أولاده وعشيرته. وآل أمر هذه العشيرة من بعده إلى أخيه المطلب الذي لم يكن له من المكانة واليسار ما كان لأخيه، وظل حال بني هاشم في ضعف حتى انتقلت رئاستهم إلى ابن هاشم، الذي ولد له من زوجه سلمى بنت عمرو من بني عدي بن النجار وهي من أهل يثرب وكانت لشرفها لا تنكح الرجال في قومها حتى يشترطوا لها أن أمرها بيدها، إذا كرهت رجلاً فارقته، ولما ولد لها عبد المطلب تركه أبوه في رعايتها ورعاية أخواله، وظل عبد المطل في يثرب حتى غدا غلاماً دون المراهقة ثم خرج إليه عمه المطلب فأعاده إلى أهله في مكة على كره من أمه.

---

(١) الطبري: ج٢، ص٢٤٠.

توفي المطلب في اليمن في أثناء تجارة له، فتولى عبد المطلب رئاسة بني هاشم وآل إليه ما كان لأبيه وعمه من بعده أمر السقاية والرفادة، أهم وظائف حكومة مكة، وقام بحفر بئر زمزم التي أصبحت المصدر الرئيس للماء في مكة وسقاية الحجيج، وقد أدى حفره لهذه البئر إلى منازعات ومصادمات بينه وبين قريش التي كانت تريد أن يكون لها نصيب من هذا الشرف، وكانت حجتها أن البئر بئر إسماعيل ويحق لها أن تشاركه في حفره، وكان عبد المطلب يرى أنه قد خص وحده بهذا الأمر دون غيره (ولهذا الموضوع قصة طويلة فيها مسحة أسطورية تفقدها الكثير من أهميتها التاريخية)[1].

لم يكن لعبد المطلب من الأولاد إلا ولد واحد هو الحارث الذي ساعده في حفر البئر، وقد نذر حين لقي ما لقي من الأذى والمنافسة من قريش في أثناء حفره البئر، لئن ولد له عشرة أولاد ذكور وكبروا وأعزه الله بهم، لينحرّن أحدهم لوجه الله عند الكعبة، ولما تحققت هذه الأمنية، وصار لعبد المطلب عشرة أولاد ذكور، أخبرهم بقصة نذره وطلب منهم الوفاء به، فاستجابوا له جميعاً، وتركوا له القرار في اختيار الطريقة التي يوفّى بها نذره، فاقترع بينهم بالقداح عند هبل في جوف الكعبة، وضرب القداح، فخرج القدح على عبد الله وكان أصغرهم وأحبهم إليه، وعلى الرغم من كل ما يحمله عبد المطلب من حب لابنه الصغير، همَّ بذبحه، إلا أن قريشا منعته من الإقدام على هذا الفعل، وطلبت منه أن يستشير العرافين فيما يفعل، فأشاروا عليه أن يقترح بالقداح مرة أخرى على عبد الله وعلى عشرة من الإبل، فإن رضيت الآلهة كان الأمر كذلك وإلا زيدت الإبل،

---

(١) أنظر: ابن هشام، ق١، ص١٤٢ وما بعدها. ابن سعد: ج١، ص٨٣ وما بعدها.

عشراً عشراً حتى ترضى الآلهة، فظل يزيدها حتى بلغت المائة فرضيت الآلهة وقبلت الفداء.

من الأحداث الأخرى المهمة التي وقعت في زمن عبد المطلب محاولة الأحباش غزو مكة بقيادة أبرهة الأشرم، وكان الأحباش بعد احتلالهم اليمن، يطمحون، بتحريض من البيزنطيين، للسيطرة على خطوط التجارة واحتكار نقلها من اليمن إلى الشام، وهذا الطموح لن يتحقق لهم دون احتلال مكة وإضعاف مركزها ومكانتها الدينية والتجارية، خاصة وأن المكيين كانوا يقومون بدور مهم في العمليات التجارية بين اليمن والشام، لذلك زحف أبرهة بجيش كبير تتقدمه الفيلة التي ساهمت كثيراً في إرهاب العرب، فسميت الحملة عندهم بحملة الفيل وسمي عام حدوثها بعام الفيل، وقد أنقذ الله -سبحانه وتعالى- الكعبة من شره وأرسل إليه طيراً أبابيل ترميهم بحجارة من سجيل، كما وضح القرآن الكريم في سورة الفيل، وهلك جيش أبرهه وفشل في غزو مكة وهدم الكعبة، وعاد مهزوماً إلى اليمن.

لقد كان الهدف المعلن للحملة -كما أشرنا- تهديم الكعبة، فكان لذلك أثر كبير في إيقاظ وعي المكيين بأهمية كعبتهم ومكانة مدينتهم الدينية، فتوحدوا من أجل تعظيم شأنها، ونشأت نتيجة ذلك الحدث حركة المتشددين في الدين الذين يعرفون بـ "الحمس"، وكان لعبد المطلب دور بارز في مواجهة هذه الحملة، على الرغم من أن بعض المصادر نسبت إليه مقولة: "أن للبيت ربا سيمنعه"، وهو موقف سلبي انسحابي لا ينسجم وزعامة عبد المطلب لمكة ومسؤليته عن البيت الحرام وما يحويه من مقدسات لدى جميع العرب، ولم يعش عبد المطلب طويلاً بعد هذه الحملة ومات ليترك زعامة بني هاشم إلى ابنه الزبير بين عبد المطلب،

الذي لم يكن -على ما يبدو- مؤهلاً لهذه الزعامة، فانتقلت منه إلى أخيه أبي طالب، ولابد من الإشارة إلى أنه خلال زعامة الزبير القصيرة كان هناك حدثان مهمان في تاريخ العرب قبل الإسلام، ولهما صلة بسيرة رسولنا الكريم محمد ﷺ هما: حرب الفجار، وعقد حلف الفضول، -وسنأتي على ذكر صلة الرسول بهما بعد حين-.

استمرت زعامة أبي طالب لبني هاشم إلى ما بعد ظهور الإسلام -وإلى ما قبل الهجرة بثلاث سنوات- وقد ساءت خلالها أحوال الأسرة ومالت إلى الفقر، وللتدليل على فقر أبي طالب تذكر المصادر أنه كان يرعى الإبل لكسب عيشه(١).

وعبد الله بن عبد المطلب -والد رسولنا الكريم- هو أخ شقيق للزبير وأبي طالب بن عبد المطلب، وكان يعمل في التجارة أيضاً، وقد توفي في سن مبكرة عند أخواله في يثرب، وقد كانت وفاته قبيل ولادة ابنه محمد ﷺ بوقت قصير، وزوجته هي آمنة بنت وهب من بني زهرة من قريش، وأمها كانت من بني عبد الدار وجدتها لأمها من بني أسد، وهذه الصلات أتاحت لمحمد الارتباط بالعديد من الأسر ذات المكانة المرموقة في مجتمع مكة.

---

(١) الأزرقي، أخبار مكة: ج١، ص٧١.

## ثانياً: المولد والنشأة

ولد النبي محمد بن عبد الله ﷺ بمكة في عام الفيـــل، المصـــادف ســنة ٥٧٠م، وكان والده قد توفي قبل ولادته، بحسب بعض الروايات، في حين تذكـــر روايات أخرى أن وفاة والد الرسول الكريم كانت بعد ولادة ابنه بشهر، أو بســنة أو ثمانية وعشرين شهراً(١)، وفي كل الأحوال فقد نشأ الطفل محمد يتيمـــاً فكفلـــه جده عبد المطلب، ولما ولد رسول الله ﷺ التمسوا له المراضع فأرضعته ثويبـــة مولاة أبي هلب أياماً، وثويبة هذه كانت قد أرضعت قبله عمه الحمزة بـــن عبـــد المطلب، وأرضعت بعده أبا سلمه بن عبد الأسد المخزومي، فكانـــا أخويـــه مـــن الرضاعة.

أما سيدنا محمد ﷺ المشهورة فهي حليمة السعدية، وهي حليمة بنت أبـــي ذؤيب من بني سعد بن بكر بن هوازن بن منصور، وتذكر كتب السيرة أن حليمـــة خرجت من بلدها مع زوجها وولدها الصغير إلى مكة تلتمس الرضعاء، وذلك في سنة مجدبة لم تبق لهم زرعاً ولا ضرعاً، وكانت حليمة واحدة من عشرة نســـوة من قومها قدمن مكة جميعاً لنفس الغرض، وقد عرض الطفل محمد على النســـوة العشر فرفضنَّه جميعاً لأنهن علمن أن أباه متوفى وأنه في كفالة جده وأمه، ولـــم تحظ حليمة بطفل غيره، وكرهت أن تعود دون رضيع فقبلته، وظل في كفالتـــها مدة عامين حتى فطم، فعادت به إلى أمه التي طلبت إليها الرجوع به وإبقاءه فـــي كفالتها لأنها تخاف عليه من وباء مكة. وعاد محمد مع حليمة إلـــى أرض بنـــي

---

(١) حول هذه الروايات، أنظر الطبري: ج٢، ص٢٧٧ وما بعدها.

سعد بن بكر وظل بينهم حتى بلغ الخامسة من عمره، حين أعادت حليمة وسلمته إلى جده[1]، وظل مع أمه وفي حضانة أم أيمن، وكانت مملوكة لأبيه إلى أن بلغ النبي ست سنين.

في هذه المرحلة المبكرة من سني حياته وهو على أشد ما يكون من الحاجة إلى الرعاية والحنان، بدأ يواجه الصعاب بفقدان أقرب الناس إليه، فتوفيت والدته السيدة آمنة بنت وهب وهو ابن ثماني أو ست سنين "بالأبواء" ما بين مكة والمدينة (يثرب)، وذلك في أثناء عودتها من يثرب حيث كانت وابنها يزوران أخواله من بني عدي بن النجار، وقيل أنها مضت إلى يثرب قبر زوجها ومعها عبد المطلب جد النبي وأم أيمن حاضنته، وفي أثناء انصرافهما إلى مكة توفيت بالأبواء، ثم كفله جده عبد المطلب وضمه إليه، وكان يؤثره على بنيه، ويغمره بحنانه، ويرفه عليه أكثر مما يرفه على ولده، وكان يقربه منه ويدنيه إليه، ولا يقدم على تناول طعام إلا إذا قدم النبي إليه، وقد يجلسه فخذه فيؤثره بأطيب طعامه.

ومن صور الرعاية والاهتمام التي كان لها أثر طيب في تكوين شخصيته ﷺ تذكر كتب السيرة النبوية، أن جده عبد المطلب زعيم مكة كان يفرش له في ظل الكعبة، ويجلس بنوه حول فراشه إلى خروجه، فإذا خرج عبد المطلب قاموا على رأسه مع عبيده إجلالا له، وكان "محمد" يأتي، وهو بعد غلام، فيجلس على الفراش، فيأخذه أعمامه ليؤخروه ويبعدوه، فيأمرهم عبد المطلب بإبقائه، ويقول

---

(1) ابن هشام: ق١، ص١٦٨. ابن سعد: ج١، ص١١٢.

لهم: "دعوة فإنه له شأن أما ترونه؟ ويقبّل رأسه وفمه، ويمسح ظهره ويسّر بكلامه وما يرى منه"(١).

ثم توفي جده عبد المطلب وقيل أنه توفي وعمره يومئذ ما بين الثمانين والتسعين، فبكاه النبي وهو بعد ابن ثماني سنين خلف سريره، ودفن عبد المطلب بالحجون بمكة، وذكر أن عبد المطلب لما حضرته الوفاة جمع بينه وأوصاهم برسول الله ﷺ، وكان الزبير بن عبد المطلب وأبو طالب أخوي عبد الله، والد النبي، لأمه فاطمة بنت عمرو بن عائذ بن عمران بن مخزوم، وكان الزبير أسنهما، فاقترع الزبير وأبو طالب أيهما يتكفل بالطفل "محمد"، فأصابت القرعة أبا طالب، فضمه إليه، وقيل بل اختاره محمد ﷺ على الزبير، إذ كان أبو طالب ألف عميه به، وقيل إنً عبد المطلب أوصاه بأن يكفله بعده، وكان "النبي" يحبه ولا ينام إلا بجواره، فشب رسول الله في رعاية عمه أبي طالب.

---

(١) ابن هشام: ق١، ص١٦٨.

# المبحث الثاني

# المشاركة في الحياة الاجتماعية

هناك أحداث تاريخية ومحطات مهمة عاشها وعاصرها رسولنا الكريــــم، محمد بن عبد الله ﷺ، قبل بعثته، فكان لها أبلغ الأثر في رسم معـــالم شـــخصيته الفذة، التي فاضت على البشرية بالخير والنور والعطاء، وأهم تلك الأحداث هي:

## ١-الرحلة الأولى إلى الشام:

لما بلغ النبي ﷺ اثني عشرة سنة من عمره، خرج أبو طالب إلى الشـــام في تجارة، وكان رسول الله يألفه ولا يفارقه، فسأله أن يصحبه، فأبى أبو طـــالب ضناً به وخوفاً عليه من مشقة الطريق، فاغتم النبي وبكى، فرقّ له أبـــو طـــالب وأخرجه معه، فلما وصلت القافلة إلى بصـــرى مـــن أرض الشـــام رآه راهـــب نصراني منقطع في صومعة له ببصرى، يقال له بحيرى أو بحيراء، ولمـــح فـــي محمد الغلام مخايل النبوة وعلاماتها، فأوصى أبا طالب بأن يعود به إلى بلده وأن يحذر عليه اليهود، فما كاد أبو طالب ينتهي من تجارته بالشام حتى بادر بـــالعودة إلى مكة، ولم يسافر به بعد ذلك خوفاً عليه[١].

---

(١) ابن سعد: ج١، ص١٥٥.

## ٢-المشاركة في حرب الفجار:

"الفجار" هي عدة حروب وقعت في الأشهر التي يحرم فيها القتال، وقد تحدثنا عنها في القسم الأول من هذا الكتاب، وقد شارك الرسول ﷺ في إحداها وهو في حوالي السنة الخامسة عشرة من عمره حيث قامت حرب بين قريش ومن معهم من كنانة، وكان سبب قيامها أن عروة بن الرحّال من هوازن، أجار لطيمة للنعمان بن المنذر، ملك الحيرة، وقد كان النعمان يبعث في كل عام إلى سوق عكاظ لطيمة في جوار رجل شريف من أشراف العرب يجيرها حتى تباع هناك، ويشتري له بثمنها من أدم الطائف ما يحتاج إليه، فقام رجل من بني ضمرة بن بكر بن كنانة -يقال له البَّراض بن قيس- وقال له: أتجبرها على كنانة؟! فأجاب عروة: نعم، وعلى الخَلْق كله، وكتم له البَّراض ذلك، ثم غافله وقتله في الشهر الحرام.

عندما علمت قريش بمقتل عروة (من هوازن) على يد البَّراض (من كنانة) في الشهر الحرام وفي سوق عكاظ، هرعت لحمايته لأنه منها، كما هبّت هوازن للأخذ بثأر قتيلها، وقام قتال بين قريش وهوازن في الشهر الحرام، الأمر الذي دعى إلى تسمية هذه الحرب بـ (حرب الفجّار).

وقد شهد الرسول الكريم محمد ﷺ هذه الحرب إذ أخرجه أعمامه، ويذكر الرسول هذه الحرب ويقول: كنت أنبل على أعمامي، أي أرد عليهم نبل عدوهم إذا رموهم بها، ويدعي ابن اسحق أن حرب الفجار حدثت ولمحمد من العمر عشرين عاماً[١].

---

(١) ابن هشام: ق١، ص١٨٤.

## ٣-حلف الفضول:

بعد حرب الفجّار عقد حلف الفضول، ويعد هذا الحلف امتداداً متطـــوراً لحلف سابق أطلق عليه "حلف المطيبين" [(١)]. وقد عقد حلف الفضول فـــي مكـــة بسبب رجل من اليمن كان قد باع سلعة إلى العاص بن وائل السهمي، فمطله هـذا بالثمن حتى يئس، فجاء مكة وأخبر الناس عن ظلامته، فمشت قريش إلى بعضـها واجتمعوا في دار عبد الله بن جدعان وقرروا الاتفاق على نصرة المظلـــوم مــن الظالم، وكان أعضاء هذا الحلف هم فئات من قريش اشتركت في حلف المطيبيـن وتتألف من بني هاشم والمطلب ابني عبد مناف، وزهرة بن كلاب وتيم بن مـــرة وبني الحارث بن فهر[(٢)]، وتقول المصادر أن الرسول ﷺ حضر هذا الاجتمـــاع وهو في مقتبل عمره، وقال فيه ﷺ: "لقد شهدت في دار عبد الله بن جدعان حلفـاً ما أحب أن لي به حمر النعم، ولو أدعى به في الإسلام لأجبت"[(٣)].

## ٤-زواجه من خديجة بنت خويلد:

هي خديجة بنت خويلد بن أسد بن عبد العزّى بن قصـــي، وكـــانت مـــن أشرف نساء قومها وأعلاهم نسباً وأكثرهم مالاً، وتشير المصادر إلى أنـــها هـــي التي أرسلت إلى الرسول تعرض عليه نفسها وتحبذ له الزواج منها، على الرغـــم من أن أشرف قومها وسادتهم كانوا يتمنون الزواج منها، وتؤكد تلـــك المصـــادر

---

(١) أنظر: القسم الأول/ الفصل الرابع من هذا الكتاب.

(٢) المسعودي، مروج الذهب: ج٢، ص٢٧٦.

(٣) ابن سعد: ج١، ص١٢٩.

بأن زواجها منه قد تم بعدما تأكد لها ما سمعته عنه من شرف ونزاهـة وأمانـة إبان خروجه بتجارة لها إلى الشام، وقصة خروج الرسـول محمـد ﷺ بتجـارة خديجة إلى الشام، وهي ثاني سفرة له إلى تلك البلاد قبل البعثة، ملخصها كالآتي: لما بلغ محمد الخامسة والعشرين من عمره قال له عمه أبو طالب: أنا رجـل لا مالي لي وقد اشتد الزمان علينا، وهذه عير قومك وقد حضر خروجها إلى الشـام، وخديجة بنت خويلد تبعث رجالاً من قومك في عيرانها، فلـو جئتـها فعرضـت نفسك عليها لأسرعت إليك، وبلغ خديجة ما كان من حوار بين محمـد وعمـه، فأرسلت إليه وعرضت عليه الخروج بتجارتها وقالت له أنا أعطك ضعـف مـا أعطي رجلاً من قومك. وقبل محمد عرض خديجة وخرج بالتجارة برفقة خادمها ميسرة الذي رأى من أخلاقه ومكرماته ما جعله يعود ليقص على سيدته أخبـاراً أثلجت صدرها وحببته إلى نفسها، ولاسيما وأن تجارته ربحت ربحاً وفيراً[١].

تتباين الروايات حول موضوع خطبة الرسول لها، فبعضها تذكـر أنـها عرضت عليه نفسها بوساطة امرأة تدعى "نفسية بنت مُنيْة"[٢]، وبعضـها الآخـر يذكر أنها عرضت عليه نفسها مباشرة ومن غير وساطة، وأيا كان الصحيح فقـد قبل محمد العرض وخطبها إلى عمها عمرو بن أسد الـذي كـان رجـلاً مسـناً وحضر الرسول ومعه عماه أبو طالب وحمزة فزوجها عمرو إياه[٣].

---

(١) ابن سعد: ج١، ص١٢٩-١٣١.

(٢) ابن سعد: ج١، ص١٣١.

(٣) ابن هشام: ق١، ص١٨٩.

كان النبي ﷺ حين تزوجها في الخامسة والعشرين من عمره، وكانت هي في الأربعين من عمرها، وأصدقها محمد عشرين بكْرة، وكانت أول امرأة يتزوجها، ولم يتزوج عليها غيرها حتى ماتت، أما هي فكانت قد تزوجت قبله مرتين، وقد ولدت لمحمد ﷺ سبعة أولاد هم: القاسم الذي ولد بمكة قبل الإسلام وبه كان يكنى، ثم ولدت له زينب، ثم رقية، ثم فاطمة، ثم أم كلثوم، ثم ولد له في الإسلام منها عبد الله فسمي الطيب، ثم الطاهر، وقد مات جميع الذكور من هؤلاء وهم صغار السن[1].

لقد شكل هذا الزواج منعرجاً مهماً في حياة رسولنا الكريم ﷺ، فقد أمن له مركزاً مرموقاً في المجتمع المكي وساعدته ثروة خديجة على العيش الآمن الرغيد الذي لا يخالطه خوف من الغد، ولا جهد جهيد في سبيل لقمة العيش.

وعلى الرغم من أن المصادر تصمت تماماً عن نوع العمل الذي مارسه "محمد" بعد زواجه وحتى بعثته، أي لمدة خمسة عشر عاماً، وفيما إذا كان قد عاد للخروج بتجارة خديجة إلى الشام، أو أنه من الممكن أن نتصور أنه أخذ يعهد بالخروج بهذه التجارة إلى أشخاص آخرين يستأجرهم لهذا الغرض، فكانت السنوات التي مرت بين زواجه من خديجة وبعثته سنوات تأمل واستعداد وتهيؤ للمهمة الكبيرة، والرسالة العظيمة التي سيحملها بكل جدارة واقتدار، أما جانب آخر فقد سجل التاريخ لهذه المرأة أروع الصور، وكانت مثالاً للمرأة العربية الفاضلة والزوجة الأمينة التي كان لعطفها وحبها وتضحياتها أكبر الأكثر في تعهد رسولنا الكريم ورعايته قبل بعثته وبعدها.

---

(١) ابن سعد: ج١، ص١٣٣.

## ٥- مشاركته في إعادة بناء الكعبة:

تذكر المصادر أن الكعبة بنيت قبل الإسلام ثلاث مرات، الأولى حين بناها شيت بن آدم، والثانية حين بناها إبراهيم عليه السلام، والثالثة حين بنتها قريش هذه المرة قبل ظهور الإسلام بخمس سنين، وتذكر هذه المصادر أن الذي دفع قريشاً على بنيانها أن سيلاً أتى من فوق الردم الذي بأعلى مكة، فخافوا أن يجرف السيل الكعبة ويخربها، ويقال أن الكعبة كانت عبارة عن حجارة مرصوصة بعضها على بعض من غير ملاط بارتفاع أعلى من القامة بقليل، ومن غير سقف، فأرادوا أن يجعلوها أعلى من ذلك وأن يجعلوا لها سقفاً، واستعملوا في بنائها خشب سفينة كانت لتاجر رومي رماها البحر على شواطئ جدة فتحطمت وأخذوا خشبها، وجمعت قبائل قريش الحجارة لبنائها، وارتفع البناء حتى بلغ موضع الحجر الأسود، فاختلفوا فيمن يكون له شرف وضعه في مكانه، وكادت الحرب أن تقع بينهم، واتفقوا أخيرا على تحكيم أول الداخلين عليهم.

وكان أول الداخلين محمدا بن عبد الله ﷺ، فقصوا عليه أمرهم، فطلب رداء ووضع فيه الحجر الأسود، ودعا كل قبيلة أن تأخذ بناحية منه، ولما بلغ الحجر الأسود موضعه أخذه بيده ووضعه في مكانه، وأوقف بحكمته نزاعا كاد أن يؤدي إلى قتال بين القبائل، كما أن هذا الحدث ترك، من جانب آخر، أثره في تثبيت مكانة الرسول محمد بين القبائل وتقديرهم لحكمته ورجاحة عقله، خاصة وأنه وقع قبيل البعثة النبوية الشريفة بما يقرب من خمس سنوات[1].

---

(١) ابن هشام: ق١، ص١٩٢ وما بعدها.

# الفصل الثاني

# سيرة الرسول محمد بن عبد الله

# من المبعث حتى الهجرة

**المبحث الأول: التحنث ونزول الوحي**

**المبحث الثاني: الدعوة إلى الإسلام**

- المسلمون الأولون.
- الدعوة العلنية ومعارضة قريش.
- أسباب المعارضة للدعوة الإسلامية.
- أساليب قريش في مقاومة الإسلام.
- الهجرة إلى الحبشة.
- المقاطعة الاقتصادية.

**المبحث الثالث: محاولات نشر الإسلام خارج مكة**

أولا: الرحلة إلى الطائف.

ثانيا: الاتصال بالقبائل الأخرى.

ثالثا: بيعتا العقبة الأولى والثانية

# المبحث الأول

# التحنث ونزول الوحي

أشرنا سابقا إلى أن المصادر تكاد تسكت تماما عن أية تفاصيل مهمة تخص حياة رسولنا الكريم ﷺ خلال الحقبة الممتدة بين زواجه من السيدة خديجة وبعثته، والتي كان أمدها خمسة عشر عاما، وعلى الرغم من أن القرآن الكريم لا يشير إلى السن الذي تنزل فيه الوحي على الرسول محمد ﷺ، فإن ما مذكور فيه من اعتبار سن الأربعين سن النضج والكمال[(١)]، دفع معظم المؤرخين إلى الاعتقاد بأن بدء الوحي كان والرسول محمد ﷺ في الأربعين من عمره أو أكثر بقليل[(٢)].

من جانب آخر تتفق معظم الروايات على أن محمدا بن عبد الله ﷺ كان قبل أن يوحى إليه يتحنث[(٣)] في "غار حراء" فيبقى فيه أمدا منقطعا للتأمل

---

(١) قال تعالى: ﴿حتى إذا بلغ أشده وبلغ أربعين سنة، قال رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت علي وعلى والدي... ﴾ [سورة الأحقاف: ١٥].

(٢) يذكر الطبري أن: ابن عباس وسعيد بن المسيب يزعمان أن محمدا كان في الثالثة والأربعين من عمره حين أنزل عليه الوحي لأول مرة، أنظر الطبري: ج٢، ص٢٩٢.

(٣) يتحنث هنا بمعنى "يتعبد" وقد تكون "ثاء" يتحنث بدلا من "فاء" يتحنف. وهناك تشابه كبير في اللفظ بين كلمة "يتحنث" هذه وكلمة تحنوث Tehinnoth العبرية التي تعني "التضرع".

والعبادة، وقبل أن نعرض نصوص تلك الروايات عـن هـذه المرحلـة المهمـة والخطيرة من تاريخ النبوة، والتي تحمل في ثناياها بعض التبـاين والاختـلاف، نجمل أهم ما جاء فيها من حقائق تاريخية عن هذه المرحلة.

لما بلغ النبي محمد ﷺ أربعين سنة بعثه الله تعالى رحمة للعـالمين، وأول ما بدئ به رسول الله من الوحي الرؤيا الصادقة في أثناء نومه، فكـان لا يـرى رؤيا إلا كان مثل فلق الصبح، ثم حجب إليه الخلاء والانفراد بنفسه، فكان يخلـو بغار حراء يتحنث في الليالي ذوات العدد حتى جاءه الحق وهو في الغار، وذكـر كتاب السيرة أن النبي ﷺ أول ما بعث كان يسمع من يدعوه دون أن يرى شـيئا، فيمضي، فأفضى بذلك إلى زوجه خديجة، وقال: "خشيت أن يكون قد عرض لـي أمر، قالت: "وما ذاك؟"، قال إذا لوت دعيت فأسمع صوتا ولا أرى شـيئا، فقـد خشيت"، قالت: "ما كان ليفعل بك سوءا، إنك لتصدق الحديـث، وتصـل الرحـم وتؤدي الأمانة" ثم انطلقت به إلى ورقة بن نوفل، فقص عليه ما سمعه، فطمأنـه ورقة ونصحه بأن يثبت للصوت حتى يسمع ما يقال له، وبشر خديجـة بنبوتـه، وتابع النبي خروجه للخلوة والانفراد بنفسه بعيدا عن قومه. وذكر ابن اسحق أنـه كان إذا خرج للخلوة أبعد حتى تحسر عنه البيوت، ويفضى إلـى شـعاب مكـة وبطون أوديتها، وكان يجاور في غار حراء شهرا فيخلو فيـه الأيـام والليـالي يتحنث فيه على عادة الحنفية، ويطعم من يقدم الكعبة، فيطوف بها سبعا، ثم يعـود إلى داره.

وما زال كذلك حتى نزل عليه الوحي وهو ابن أربعين سنة فـي شـهر ربيع الأول، وقيل في ١٧ رمضان ففي هذا الشهر خرج الرسول إلى حراء كمـا كان يخرج لجواره، حتى إذا كان الليلة التي أكرمه الله فيها برسالته جاءه جـبريل

عليه السلام فعرض له ليلة السبت وليلة الأحد، ثم أتاه بالرسالة يوم الاثنين لسبع عشرة ليلة خلت من شهر رمضان، ويكاد يجمع الأخباريون على أن أول ما نزل على النبي من القرآن سورة العلق، فقد نزل عليه جبريل وهو في غار حراء وقال له: "إقرأ" فقال النبي: "ما أنا بقارئ" فأذه فضمه إليه ضمة قوية ثم أطلقه، وعاد يقول له: "إقرأ"، فكرر النبي قوله: "ما أنا بقارئ، فأذه وضمه إليه للمرة الثانية ثم أرسله، وكرر ما طلبه للمرة الثالثة، فرد عليه النبي بقوله: "ما أقرأ"، فقال: ﴿اقرأ باسم ربك الذي خلق، خلق الإنسان من علق، اقرأ وربك الأكرم، الذي علم بالقلم، علم الإنسان ما لم يعلم﴾[1]، فقرأها النبي، فانصرف عنه، ثم فتر الوحي عن النبي فترة حتى شق عليه ذلك، فأحزنه حزنا شديدا حتى جعل يأتي رؤوس الجبال مرارا، وكان كلما أوفى على ذروة جبل بدا له جبريل عليه السلام يقول له "إنك نبي"، فيسكن لذلك جأشه، وترجع إليه نفسه[2].

إن الروايات المتعلقة بمرحلة التحنث والانقطاع بغار حراء ومن ثم بدايات نزول الوحي التي نقلها لنا الأخباريون وكتاب السيرة تشكل المصدر الأساسي في تأريخ هذه الحقبة من التاريخ، تلك الحقبة التي تعد منعرجا حاسما في تاريخ الإنسانية، كما تسجل لنا مقدمات رسالة الإسلام السمحاء التي حملها وبشر بها الرسول الأمين محمد بن عبد الله ﷺ، ولما كانت كل رواية تتناول جانبا من جوانب هذا الحدث العظيم، سنستعرض أهم تلك الروايات ليقف القارئ

---

(١) سورة العلق: ١-٥.

(٢) أنظر: ابن سعد: ص١٢٥ وما بعدها. ابن هشام: ق١، ص٢٣٥ وما بعدها. الطبري: ج٢، ص٢٩٨ وما بعدها.

على ما في بعضها من ضعف أو تناقض أو اختلاف، أما المعلومات التي وردت في ثنايا آيات القرآن الكريم عن هذه الحقبة، فلا جدال حولها ولا اختلاف لأنها قول الحق المبين.

أورد الطبري[1] رواية ابن شهاب الزهري على الشكل الآتي: "... كان أول ما ابتدئ به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصادقة، كانت تجيء مثل فلق الصبح، ثم حبب إليه الخلاء، فكان بغار حراء يتحنث فيه الليالي ذوات العدد قبل أن يرجع إلى أهله، فيتزود لمثلها، حتى فاجأه الحق، فأتاه، فقال: يا محمد، أنت رسول الله! قال رسول الله ﷺ: فجثوت لركبتي وأنا قائم، ثم زحفت ترجف بوادري، ثم دخلت على خديجة: فقلت: زملوني، زملوني! حتى ذهب عني الروع، ثم أتاني فقال: يا محمد، أنت رسول الله. قال: فلقد هممت أن أطرح نفسي من حالق من جبل، فتبدئ لي حين هممت بذلك، فقال يا محمد، أنا جبريل، وأنت رسول الله، ثم قال: اقرأ، قلت: ما أقرأ؟ قال: فأخذني فغتني ثلاث مرات، حتى بلغ مني الجهد، ثم قال: اقرأ باسم ربك الذي خلق، فقرأت. فأتيت خديجة، فقلت: لقد أشفقت على نفسي، فأخبرتها خبري، فقالت: أبشر، فوالله لا يخزيك الله أبدا، والله إنك لتصل الرحم، وتصدق الحديث، وتؤدي الأمانة، وتحمل الكل، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق. ثم انطلقت بي إلى ورقة بن نوفل بن أسد، قالت: اسمع من ابن أخيك، فسألني فأخبرته خبري، فقال: هذا الناموس الذي أنزل على موسى بن عمران، ليتني فيها جذع، ليتني أكون حيا حين يخرجك قومك. قلت: أمخرجي هم؟ قال: نعم، إنه لم يجيء رجل قط بما جئت به إلا

---

(١) الطبري: ج٢، ص٢٩٨-٢٩٩.

عودي، ولئن أدركني يومك أنصرك نصرا مؤزرا، ثم كان أول ما نـــزل علـــي من القرن بعد "إقرأ"، نوت، والقلم ومـــا يســطرون ... ويـــا أيـــها المدثـــر...، والضحى..." ويتابع الزهري هذه الرواية فيقول "فتر الوحي عـــن رســـول الله ﷺ فترة، فحزن حزنا شديدا، جعل يغدو على رؤوس الجبال ليتردى منـــــها، فكلمـــا أوفى بذروة جبل تبدى له جبريل، فيقول: إنك نبـــــي الله، فيســـكن لذلـــك جأشـــه، وترجع إليه نفسه، فكان النبي ﷺ يحدث عن ذلك، قال: فبينما أنا أمشي يومـــا، إذ رأيت الملك الذي كان يأتيني بحراء على كرسي بين السماء والأرض فجئثت منـه رعبا، فرجعت إلى خديجة فقلت: زملونـــــي، فزملنـــاه، أي دثرنـــاه، فـــأنزل الله عزوجل: يا أيها المدثر... قال الزهري: فكان أول شيء أنزل عليه: اقـــرأ باســـم ربك الذي خلق، حتى بلغ: ما لم يعلم".

رواية أخرى للطبري ينقلها عن يحيى بن أبي كثير عن جابر بن عبـد الله الذي يدعي أنه ينقل ما سمعه عن الرسول: "قال –أي الرسول ﷺ-: جاورت فـــي حراء، فلما قضيت جواري فاستنبطت الوادي فنوديت، فنظرت عن يمني وعـــــن شمالي، وخلفي وقدامي، فلم أرد شيئا فنظرت فوق رأسي، فإذا هو جالس علـــــى عرش بين السماء والأرض، فخشيت منه، ... فلقيت خديجة، فقلـــت: دثرونـــي، فدثروني، وصبوا علي ماء، وأنزل علي، يا أيها المدثر قم فأنذر"[١].

---

(١)الطبري: ج٢، ص٣٠٣-٣٠٤.

أما ابن اسحاق صاحب أقدم مؤلف في السيرة النبوية وصلنا مؤلفه الكامل تقريبا[1]، فينقل إلينا رواية كيسان، مولى آل الزبير، قال: سمعت عبد الله بن الزبير وهو يقول لعبيد بن عمر بن قتادة الليثي: حدثنا يا عبيد، كيف كان بدء ما امبتدئ به رسول الله ﷺ من النبوة حين جاءه جبريل عليه السلام؟ قال: فقال عبيد وأنا حاضر يحدث عبد الله بن الزبير ومن عنده من الناس: كان رسول الله ﷺ يجاور في حراء من كل سنة شهرا، وكان ذلك مما تحنث به قريش في الجاهلية... يطعم من جاءه من المساكين، فإذا قضى رسول الله ﷺ جواره من شهره ذلك، كان أول ما يبدأ إذا انصرف من جواره، الكعبة، قبل أن يدخل بيته، فيطوف بها سبعا أو ما شاء الله من ذلك، ثم يرجع، إلى بيته، حتى إذا كان الشهر الذي أراد الله تعالى به فيه ما أراد من كرامته، من السنة التي بعثه الله تعالى فيها، وذلك الشهر شهر رمضان، خرج رسول الله ﷺ إلى حراء، كما كان يخرج لجواره ومعه أهله، حتى إذا كانت الليلة التي أكرمه الله فيها برسالته، ورحم العباد بها، جاءه جبريل عليه السلام بأمر الله تعالى."[2].

الملاحظ في هذه الرواية أن النبي محمد ﷺ كان يخرج للتحنث والانقطاع للعبادة ويخرج معه أهله فهو ليس وحيدا ولا بعيدا عن الناس، أي ينفي موضوع الخلوة والبعد عن الناس الذي يرد في روايات أخرى.

---

(١) لم تصلنا سيرة ابن اسحق مباشرة، بل منقولة عن طريق ابن هشام الذي نقحها وحذف منها بعض الأقسام الضعيفة، وبعض الشعر المنحول.

(٢) ابن هشام: ق١، ص٢٣٥-٢٣٦.

وننقل رواية أخرى ذكرها ابن اسحق أيضا عن وهب بن كيسان، جاء فيها "... قال رسول الله ﷺ: فجاءني جبريل، وأنا نائم، بنمط من ديباج فيه كتلب، فقال، اقرأ، قال: قلت ما أقرأ: فغتني به حتى ظننت أنه الموت، ثم أرسلني، فقال: اقرأ، قلت: ماذا أقرأ؟ قال: فغتني به حتى ظننت أنه الموت، ثم أرسلني، فقال: اقرأ، قال: فقلت: ماذا أقرأ... فقال: اقرأ باسم ربك الذي خلق... قال: فقرأتها ثم انتهى فانصرف عني وهببت من نومي فكأنما كتب في قلبي كتابا. قال: فخرجت حتى إذا كنت في وسط من الجبل سمعت صوتا من السماء يقول: يا محمد، أنت رسول الله وأنا جبريل، قال: فرفعت رأسي إلى السماء أنظر، فإذا جبريل في صورة رجل صاف قدميه في أفق السماء يقول: يا محمد، أنت رسول الله وأنا جبريل، قال: فوقفت أنظر إليه فما أتقدم وما أتأخر، وجعلت أصرف وجهي عنه في آفاق السماء، قال: فلا أنظر من ناحية منها إلا رأيته كذلك، فما زلت واقفا ما أتقدم أمامي وما أرجع ورائي، حتى بعثت خديجة رسلها في طلبي، فبلغوا أعلى مكة ورجعوا إليها وأنا واقف في مكاني ذلك، ثم انصرف عني"(١).

الملاحظ أن ابن اسحاق وحده يؤكد بوضوح أن اللقاء بـ "الملك" في حراء كان عن طريق الرؤيا "في النوم" فيما أن الآخرين كالطبري وابن سعد يسكتون عن الأمر ولا يدققون صفة اللقاء الأول وبداية الوحي.

يكمل ابن اسحق روايته السابقة موضحا موقف السيدة خديجة من الحدث فيذكر عن رسول الله ﷺ "... وانصرفت راجعا إلى أهلي حتى أتيت خديجة

---

(١)ابن هشام: ق١، ص٢٣٦-٢٣٧.

فجلست إلى فخذها مضيفا إليها، فقالت يا أبا القاسم، أين كنت؟ فوالله لقد بعثت رسلي في طلبك حتى بلغوا مكة ثم رجعوا لي، ثم حدثتها بالذي رأيت، فقال: ابشر يا ابن عم وأثبت، فوالذي نفس خديجة بيده أني لأرجو أن تكون نبي هذه الأمة، ثم قامت فجمعت عليها ثيابها، ثم انطلقت إلى ورقة بن نوفل ابن أسد، وهو ابن عمها، وكان ورقة قد تنصر وقرأ الكتب وسمع من أهل التوراة والإنجيل، فأخبرته بما أخبرها به رسول الله ﷺ أنه رأى وسمع، فقال ورقة بن نوفل: قدوس، قدوس، والذي نفس ورقة بيده لئن كنت صدقتني يا خديجة لقد جاءه الناموس الأكبر الذي كان يأتي موسى وإنه لنبي هذه الأمة، فقولي له فليثبت"(١).

أما ابن سعد، صاحب "الطبقات الكبرى" فيذكر روايتين عن هذا الحدث، الأولى عن ابن عباس تقول: "فبينما رسول الله ﷺ على ذلك وهو بأجياد إذ رأى ملكا واضعا إحدى رجليه على الأخرى في أفق السماء يصيح: يا محمد، أنا جبريل، يا محمد أنا جبريل فذعر رسول الله ﷺ من ذلك وجعل يراه كلما رفع رأسه إلى السماء، فرجع سريعا إلى خديجة فأخبرها خبره، وقال: يا خديجة، والله ما أبغضت بغضي هذه الأصنام شيئا قط ولا الكهان، وإني لأخشى أن أكون كاهنا، قالت: كلا يا ابن عم، لا تقل ذلك، فإن الله لا يفعل ذلك بك أبدا، إنك لتصل الرحم وتصدق الحديث وتؤدي الأمانة، وإن خلقك لكريم ثم انطلقت إلى ورقة بن نوفل..."(٢).

---

(١) ابن هشام: ق١، ص٢٣٧-٢٣٨.

(٢) ابن سعد: ج١، ص١٩٤-١٩٥.

والرواية الثانية عن هشام بن عروة بن عروة: أن رسول الله ﷺ قال لخديجة: "يا خديجة، إني أرى ضوءا وأسمع صوتا، لقد خشيت أن أكون كاهنا، فقالت: إن الله لا يفعل بك ذلك يا ابن عبد الله إنك تصدق الحديث وتؤدي الأمانة وتصل الرحم"[1].

إن تكشف شخصية ما ورائية وانطلاقة الوحي في الوقت نفسه مذكور بصفة واضحة في القرآن الكريم، وقد أشار إليها وإلى صدق الوحي في مناسبات عديدة وإلى كيفية تنزله على محمد ﷺ، وبشكل خاص في سورتي "التكوير والنجم" وسورة "التكوير" أقدم من "النجم" ويبدو هذا في أسلوبها على أنها دقيقة في وصفها.

فالوحي قول من "رسول كريم" أرسله الله، وليس بالتالي قول الله مباشرة، وهذا الرسول "ذو قوة"، وخير فإن النبي رآه "بالأفق المبين" والأرجح أن هذه الرؤية تمت في الأول، وأن قول هذا الرسول المبلغ الأمين هو الوحي القرآني الذي قد يكون ابتداء مع الرؤية.

قال تعالى: ﴿إنه لقول رسول كريم، ذي قوة عند ذي العرش مكين، مطاع ثم أمين، وما صاحبكم بمجنون، ولقد رآه بالأفق المبين، وما هو على الغيب بضنين، وما هو بقول شيطان رجيم﴾[2].

---

(١) ابن سعد: ج١، ص١٩٥.

(٢) سورة التكوير: ١٨-٢٥.

أما سورة "النجم" فتوضح التجربة الأولى للوحي بكل دقة وتفصلها تفصيلا موضوعيا وكما انطبعت في نفس محمد ﷺ[1]، قال تعالى: ﴿والنجم إذا هوى، ما ظل صاحبكم وما غوى، وما ينطق عن الهوى، إن هو إلا وحي يوحى، علمه شديد القوى، ذو مرة فاستوى، وهو بالأفق الأعلى، ثم دنا فتدلى، فكان قاب قوسين أو أدنى، فأوحى إلى عبده ما أوحى، ما كذب الفؤاد ما رأى، أفتمارونه على ما يرى، ولقد رآه نزلة أخرى، عند سدرة المنتهى، عندها جنة المأوى، إذ يغشى السدرة ما يغشى، ما زاغ البصر وما طغى، لقد رأى من آيات ربه الكبرى﴾[2].

من جانب آخر، فإن آيات القرآن الكريم لم تذكر تاريخا معينا لنزول القرآن على الرسول، بل أشادت بشكل عام إلى يوم نزول الوحي، والشهر الذي أنزل فيه القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿إنا أنزلناه في ليلة القدر، وما أدراك ما ليلة القدر﴾[3]، ﴿حم، والكتاب المبين إنا أنزلناه في ليلة مباركة، إنا منذرين﴾[4]، ﴿شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان﴾[5].

---

(١) هشام جعيط، في السيرة النبوية: ج١، ص٤٩.

(٢) سورة النجم: ١-١٨.

(٣) سورة القدر: ١-٢.

(٤) سورة الدخان: ١-٣.

(٥) سورة البقرة: ١٨٥.

# المبحث الثاني

## الدعـوة إلى الإســـلام

لما أبطأ الوحي عن النبي ﷺ بعض الإبطاء، قال كفار قريش: "ودعه ربه وقلاه"، فنزلت عليه سورة الضحى، أقسم له ربه فيها أنه ما تركه وما أبغضه منذ أحبه، وبينما كان يسير يوما إذ سمع صوتا، فرفع رأسه إلى مصدره، فإذا جـبريل بين السماء والأرض، فخشي منه النبي رهبة، ودخله منه روع، وأسرع إلـى داره يرتجف وأتى خديجة وطلب منها أن تدثره، فنزلت عليه سورة المدثـــر: ﴿يا أيها المدثر، ثم فأنذر، وربك فكبر، وثيابك فطهر﴾[1]، فبادر النبي ﷺ بــالدعوة إلـى الإسلام وترك عبادة الأوثان والأصنام وبدأ بأقرب الأقربين إليه، ثم دعـا قومـه مستخفيا ثلاث سنين، جهر بالدعوة بعدها.

### المسلمون الأولون:

أول ن آمن بنبوة ورسالة محمد بن عبد الله ﷺ وأســلم زوجـه السـيدة خديجة بنت خويلد، فهي بذلك أول المسلمين عامة، وأول من أسلم من النساء.

ثم اختلف الرواة وكتاب السيرة في ثلاثة أسماء أيهم أسبق إلى الإســلام هم: علي بن أبي طالب، وأبو بكر عبد الله بن أبي قحافة القرشـي، وزيـد بـن

---

(١) سورة المدثر: ١-٤.

حارثة مولى النبي، والمتفق عليه أن أول من أسلم من الموالي زيد بن حارثة بن شرحبيل بن كعب بن عبد العزى، من الغلمان علي بن أبي طالب وكان يومئذ ابن عشر سنين، ومن الرجال الأحرار أبو بكر الصديق، وأسلم على يدي أبي بكر خمسة من كبار صحابة النبي هم: الزبير بن العوام بن خويلد، وعثمان بن عفان بن أبي ألعاص بن أمية، وعبد الرحمن بن عوف من بني زهرة، وسعد بن أبي وقاص من بني زهرة، وطلحة بن عبيد الله، جاء بهم إلى النبي فأسلموا وصلوا.

أما الدفعة الثالث كما يحددها ابن اسحق فكانت تضم أشخاصا منهم: أبو عبيدة من الجراح، وأبو سلمة بن عبد الأسد والأرقم بن أبي الأرقم، وعثمان بن مضعون وأخواه قدامة وعبد الله، وعبيدة بن الحارث المطلب، وسعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل وامرأته فاطمة بنت الخطاب أخت عمر بن الخطاب، وأسماء بنت أبي بكر، وخباب بن الأرت، وعمير ابن أبي وقاص، وعبد الله بن مسعود، ومن أبرز من أسلم من قريش سليط بن عمرو بن عبد شمس، وخنيس بن حذافة بن عدي، وعبد الله بن جحش، وجعفر بن أبي طالب، وخالد بن سعيد بن العاص، ونعيم بن عبد الله بن أسيد النحام، والأخيران من بين الأسماء التي تثير الاهتمام لوضعهما المالي والاجتماعي، فخالد كان أبوه من مشاهير رجال المال والأعمال في مكة، ونعيم كان سيد بني عدي، وعلى الرغم من أنه كان من أوائل من أسلم وأنه لم يترك مكة ويهاجر إلى المدينة حتى السنة السادسة من الهجرة ولعل السبب في ذلك أنه كان في منعة من قومه ولم تستطع قريش أن تناله بأذى، كما

أسلم في هذه المرحلة عمار بن ياسر وصهيب بن سنان[1] وهما من المستضعفين آنذاك.

وبشكل عام يمكننا أن نصنف المسلمين الأولين في هذه المرحلة من تاريخ الدعوة الإسلامية إلى ثلاث فئات:

**الفئة الأولى:** وهم الشباب من الأسر المكية ذات النفوذ والقوة، سواء من الناحية المالية أو الاجتماعية أمثال خالد بن سعيد بن العاص، الذي سبقت الإشارة إليه، وغيره شباب آخرون يتصل نسبهم بأعظم الأسر المكية مركزا ونفوذا، وكثيرا ما كانت أسرهم في الصف الأول المعارض للرسول ودعوته، وفي أول مواجهة مسلحة واسعة بين المسلمين والمشركين، في معركة بدر، تجسدت حالة الانتماء الجديد بشكل جلي، عندما وقف الابن ضد أبيه أو الأخ ضد أخيه أو بن العم ضد أبناء عمومته وقبيلته، وكان لهذه الفئة مكانة الدعوة الجديدة.

**الفئة الثانية:** هم شباب أيضا ولكنهم من أسر أقل نفوذا من رجالات الفئة الأولى، وبينهم رجال وشيوخ لهم مكانتهم ونفوذهم المميز في داخل أسرهم وبطونهم، ولكن عددهم كان قليلا، ذلك أن غالبية رجال هذه الفئة كانوا دون الثلاثين حين أسلموا، وربما من كان بينهم من هو دون العاشرة من العمر.

---

(١) ابن هشام: ق١، ص٢٥٢ وما بعدها. الطبري: ج٢، ص٣١٢ وما بعدها.

**الفئة الثالثة:** فهم المستضعفون من قبائل مستضعفة، لا يستطيعون حماية أنفسهم، وأغلب عناصر هذه الفئة رجال لا تربطهم صلة قرابة الدم بقبائل مكة أو بطونها، بل تربطهم بها صلة الولاء أو التحالف، ومن هذه الفئة عبيد بني تيم الذين أسلموا واعتقهم أبو بكر وهو من تيم ومفروض على قبيلته حمايته وحماية عبيدة، حتى أن تيم لم تقدم الحماية لأبي بكر نفسه ولا لطلحة حين آذتهما قريش وقيدتهما معا عقابا لهما على إسلامهما، ومن هذه الفئة أيضا عمار بن ياسر وصهيب بن سنان، اللذان كانا من أحلاف تيم وعبد شمس معا[1].

يمكننا أن نخرج بنتيجة من هذا التصنيف مفادها أن الدين الجديد غدا بعد تنزله على قلب محمد بن عبد الله ﷺ، دين الشباب الطامح إلى تغيير المجتمع، ذلك أن غالبية المسلمين الأولين كانوا دون الأربعين أو حتى دون الثلاثين من العمر.

## الدعوة العلنية ومعارضة قريش:

ظل النبي ﷺ يدعو سرا ثلاث سنين من مبعثه، ثم جهر بالدعوة عندما أمره الله تعالى بإظهار دينه، قد جاءه الأمر بعلنية الدعوة في الآية الكريمة ﴿فاصدع بما تؤمر، وأعرض عن المشركين، إنا كفيناك المستهزءين﴾[2]، وقال تعالى: ﴿وأنذر عشيرتك الأقربين، وأخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين، فإن عصوك فقل

(١) M. watt. PP. 95-96.

(٢) سورة الحجر: ٩٤-٩٥.

﴿وأنذر عشيرتك الأقربين، وأخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين، فإن عصوك فقل إني بريء مما تعملون، وتوكل على العزيز الرحيم، الذي يراك حين تقوم، وتقلبك في الساجدين، إنه هو السميع العليم﴾[1].

ذكر ابن سعد أنه حين تنزل أمر الله بوجوب نقل الدعوة من مرحلة السر إلى مرحلة العلن، خرج الرسول ﷺ حتى صعد الصفا ونادى بالناس، فتساءلوا عن الذي يهتف فقيل لهم إنه محمد، واجتمع حوله أهل مكة ورجالاتها من مختلف الأحياء والبطون، ولما اكتمل جمعهم قال لهم الرسول: أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلا تخرج بسفح هذا الجبل، أكنتم مصدقي؟! فقالوا له: ما جربنا عليك كذبا. قال إني ﴿نذير لكم بين يدي عذاب شديد﴾[2]، يا بني عبد المطلب، يا بني عبد مناف، يا بني زهرة، -حتى عد الأفخاذ من قريش- إن الله أمرني أن (أنذر عشيرتك الأقربين)، وإني لا أملك لكم من الدنيا منفعة، ولا من الآخرة نصيبا إلا أن تقولوا لا إله إلا الله، فقال أبو لهب: تبا لك، سائر اليوم، ألهذا جمعتنا؟! فأنزل الله عزوجل فيه: ﴿تبت يدا أبي لهب﴾[3].

---

(١) سورة الشعراء: ٢١٤-٢٢٠.

(٢) سورة سبأ: ٤٦.

(٣) سورة المسد: ١.

## أسباب المعارضة للدعوة الإسلامية:

تذكر كتب السيرة أن قريشا لما تعارض دعوة محمد ﷺ أول الأمر، ولم تبعد محمد عن قومه، ولم تعلن قريش عداءها الجدي للدعوة الإسلامية، إلا بعد أن تعرض الرسول لآلهتها وذكرها بسوء، وهنا لابد من التساؤل: هل كان المكيون على درجة من التدين تجعلهم يحرصون على آلهتهم وينفقون من أجلها إلى هذا الحد؟ وقد رأينا كيف أن المكيين كانوا في تلك الحقبة -قبيل ظهور الإسلام- يستخفون بهذه ا لآلهة، وقناعتهم بأنها لا تملك حولا ولا قوة، وإنما يعبدونها لأنها تقربهم إلى الله زلفى، في حين رفض عدد غير قليل منهم عبادتها، وهناك روايات وحكايات كثيرة حول هذا الموضوع، الأمر الذي يدفعنا إلى القول بأن ذم محمد ﷺ لآلهتهم لم يكن السبب الذي أثارهم ضده، بل أن هناك عوامل وأسباب أخرى تكمن وراء هذا الموقف.

### العامل السياسي:

أدرك زعماء قريش أن هذه الدعوة الجديدة هي ثورة دينية، قد تؤدي إلى انقلاب في المفاهيم يكون من نتائجها فقدانهم الزعامة التي يتفيأون بظلالها والتي ترتبط إلى حد كبير بزعامتهم الوثنية ووجود الكعبة، رمز وحدة العرب ومحط أنظارهم، فهم سدنة هذه الكعبة وهم المشرفون على شؤونها وحمايتها، وهي التي أعطتهم بمناسك حجها وبالآلهة الموجودة في داخلها، ما يتمتعون به من مكانة وسيادة، وكان منبع خوفهم أن يأتي الدين الجديد ليهدم هذه المقدسات وبالتالي ليسلبهم مالهم من سيادة وامتيازات.

من جانب آخر، فإن المجتمع الجديد الذي يدعو إليه محمد ﷺ سيكون مجتمعا تحتاج الزعامة السياسية فيه إلى مواصفات تختلف عن المواصفات التي يحتاجها المجتمع القديم. وسينتج عن نجاح دعوة محمد ﷺ تغيير شامل يتناول فيما يتناول جانب الزعامة السياسية، وسيزول زعماء قريش التقليديون بنتيجة هذا التغيير وسيجلس في مقاعد الزعامة أشخاص تنبع زعامتهم من متطلبات الدين الجديد. وإذن فستكون أولى النتائج السياسية التي تترتب على الاستسلام لدعوة الدين الجديد، أن يحتل محمد ﷺ مركز الزعامة والصدارة في المجتمع، وهذا ما لا توافق عليه الزعامة القرشية، لذلك كان من المتوقع أن تدافع هذه الزعامات عن وجودها المهدد.

### العامل الديني:

من الطبيعي أن تكون مظاهر المعارضة الأولى دينية، لأن الإسلام جاء بالدرجة الأولى ليؤكد على عبادة إله واحد وليلغي عبادة الأصنام في مكة وخارجها، وأن نجاح الإسلام في تحقيق هذا الهدف الجوهري، يعني زوال معتقدات وتقاليد ألفها الناس وعاشوا معها زمنا طويلا، جيلا بعد جيل، وقد أشار القرآن الكريم في أكثر من مناسبة إلى هذا الجانب كقوله تعالى: ﴿بل قالوا إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مهتدون﴾[1]، و﴿إذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع

---

(١) سورة الزخرف: ٢٢.

﴿ما وجدنا عليه آباءنا﴾[1]. ﴿إنهم ألفوا آباءهم ضالين فهم على آثارهم يهرعون﴾[2]، فالوجه الديني للمعارضة كان أساسيا ولا يمكن إغفاله.

### العامل الاجتماعي:

أدرك القرشيون وأهل مكة أن الإسلام دين يهدد تكوين مجتمعهم ونظمهم وعاداتهم وتقاليدهم التي ألفوها واعتادوا عليها وطبقوها في حياتهم الخاصة والعامة، وليس من السهل عليهم أن يتخلوا عنها، وليس من ضرورة أن يتوافق الإسلام وهذه النظم والتقاليد لذا فإن أي ثورة عليها يأتي بها الدين الجديد هي ثورة على مألوف محبب، وستلاقي معارضة المتزمتين المتمسكين بالقدم، هذا فضلا عن تأكيد الإسلام على عصبية العقيدة بدلا من عصبية الدم، وهذه العصبية الجديدة قد تبعد الأخ عن أخيه والابن عن أبيه، وهذا ما أفزع المشركين وأقلق المجتمع المكي.

## أساليب قريش في مقاومة الإسلام:

اعتمد القرشيون في محاربة الرسول ﷺ ودعوته الإسلامية أساليب وطرق عديدة، منها ما هو معنوي إعلامي، ومنها ما هو مادي.

فالوجه المعنوي للمحاربة اعتمد في البداية أسلوب التكذيب والتشكيك بصدق الرسول ﷺ، فقالوا بأن ما جاء به محمد بن عبد الله من دعوة ليس جديدا

---

(١) سورة لقمان: ٢١.

(٢) سورة الصافات: ٦٩.

وأنه من أساطير الأولين، ثم اتهموه بأن هذا الذي يدعي بأنه يتنزل عليه، ما هو إلا كلام يلقنه له قوم آخرون من الأعاجم، وقد أشار القرآن الكريم إلى هذا الأسلوب وفنده وسخر منه، قال تعالى: ﴿إن هذا إلا أساطير الأولين﴾[1]، ﴿وقالوا أساطير الأولين﴾[2]، ﴿وقال الذين كفروا إن هذا إلا إفك افتراه وأعانه عليه قوم آخرون، فقد جاءوا ظلما وزورا، وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلا﴾[3]، ﴿ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر، لسان الذي يلحدون إليه أعجمي، وهذا لسان عربي مبين﴾[4].

كما استخدمت قريش أسلوب السخرية والاستهزاء بالدعوة المحمدية، واتهموا الرسول بشتى التهم، فقالوا بأنه ساحر، ومجنون، وكذاب، ومفتر، كما نسبوا إليه صفة الشعر والكهانة، وطالبوه بأن يأتيهم بقرآن غير هذا الذي يوحى به إليه، أو أن يقدم لهم القرآن كله دفعة واحدة، وكانوا لا يخفون شكهم واستغرابهم لما يجيء به ويسخرون من المسلمين إلى جانب سخريتهم من الرسول.

ثم لجأ المشركون إلى محاججة الرسول ﷺ ومحاولة إحراجه أمام عامة الناس فطالبوه بأن يعطيهم آياته، وأن يقوم بالمعجزات التي تثبت نبوته وقد صور القرآن الكريم تلك المطالب المغرضة في آياته خير تصوير، قال تعالى: ﴿وقالوا

---

(١) سورة الأنفال: ٣١.

(٢) سورة المؤمنون: ٨٣.

(٣) سورة الفرقان: ٤-٥.

(٤) سورة النحل: ١٠٣.

لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيرا، أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا أو تأتي بالله والملائكة قبيلا، أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقى في السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتابا نقرؤه، قل سبحان ربي، هل كنت إلا بشرا رسولا﴾[1].

وقال تعالى: ﴿وقالوا ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق، لولا أنزل إليك ملك فيكون معه نذيرا، أو يلقى إليه كنز أو تكون له جنة يأكل منها، وقال الظالمون إن تتبعون إلا رجلا مسحورا﴾[2].

ومن الأساليب التي تندرج في إطار المحاربة المعنوية للدعوة الإسلامية، لجوء قريش إلى محاولة الضغط الشخصي على الرسول محمد ﷺ من خلال أقرب المقربين إليه، فبعد أن باءت بالفشل أساليب المقاومة المختلفة ولم تؤد إلى ردع الرسول عن الدعوة إلى الدين الجديد، فكرت قريش باللجوء إلى عمه وحاميه أبي طالب، فقدم جماعة من أشراف قريش إلى أبي طالب وأبلغوه أن ابن أخيه سب آلهتهم وعاب دينهم وسفه أحلامهم وظلل آباءهم، وطلبوا منه إما أن يكفه عنهم أو يخلي بينهم وبينه، فردهم أبو طالب ردا جميلا ووعدهم بمخاطبة النبي ﷺ في ذلك، وكان أبو طالب ملما بكل ما يفعله ابن أخيه، وكان يعطف عليه، ويبدو أنه لم يشأ أن يحدثه فيما خاطبه به القرشيون، ومضى رسول الله على ما هو بسبيله من الدعوة للإسلام.

---

(١) سورة الإسراء: ٩٠-٩٤.

(٢) سورة الفرقان: ٧-٨.

وكان إيمان النبي برسالته قويا عميقا راسخا، فلم يرهبه تهديد قريش له ووعيدهم لدينه، فواصل أداء رسالته وأدركت قريش مدى خطورة الدعوة الإسلامية على عبادة الأوثان التي هي المصدر الرئيسي لما كانوا يجنونه في مواسم الحج من ثروات، فاجتمع وفد منهم وقصدوا أبا طالب، فقالوا له: "يا أبا طالب، إن لك سنا وشرفا ومنزلة فينا، وإنا قد استنهيناك من ابن أخيك فلم تنهه عنا، وإنا والله لا نصبر على هذا من شتم آبائنا وتسفيه أحلامنا وعيب آلهتنا، حتى تكفه عنا أو ننازله وإياك في ذلك حتى يهلك أحد الفريقين"، ثم انصرفوا عنه، فعظم الأمر على أبي طالب، وحار فيما يفعل أمام ضغوط قريش عليه، فبعث إلى رسول الله ﷺ وأفضى إليه بما حدثه عن قومه بشأنه، ورجاه أن يبقى على نفسه وعليه، ولا يحمل عمه ما لا يطيق، فظن رسول الله أن عمه قد ضعف عن نصرته، وخذله، وأنه سيسلمه إلى قريش، فقال رسول الله لعمه: "يا عم، والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره أو أهلك فيه ما تركته"، ثم استعبر رسول الله، فبكى، وقام منصرفا، فناداه عمه وقال: "اذهب يا ابن أخي، فقل ما أحببت، فوالله لا أسلمك لشيء أبدا"[(١)].

وقد ذكر القرآن الكريم فئة من المعارضين، جندوا أنفسهم لصد الناس عن الإسلام، فكانوا يقتسمون طرق مكة لهذا الغرض، لذلك دعاهم باسم "المقتسمين"، فيقول تعالى مخاطبا رسوله الكريم: ﴿وقل إني أنا النذير المبين، كما أنزلنا على المقتسمين، الذين جعلوا القرآن عضين، فوربك لنسألنهم أجمعين﴾[(٢)]، ويقول ابن

---

(١) ابن هشام: ق١، ص٢٦٤-٢٦٦. الطبري: ج٢، ص٣٢٤ وما بعدها.

(٢) سورة الحجر: ٨٩-٩٣.

حبيب في "المحبر" عن هؤلاء أنهم كانوا "سبعة عشر رجلا من قريش، اقتسموا أعقاب مكة، فكانوا إذا حضروا الموسم يصدون الناس عن رسول الله ﷺ، وفيهم نزلت "كما أنزلنا على المقتسمين" وهم كما ذكر هشام بن الكلبي عن أبيه عن أبي صالح عن ابن عباس، من بني عبد شمس ثلاثة نفر: حنظلة بن أبي سفيان، وعتبة وشيبة ابنا ربيعة بن عبد شمس، ومن بني مخزوم سبعة نفر: أبو جهل، والعاص، وأبو قيس بن الوليد، وقيس بن لفاكه، وزهير بن أبي أمية، والأسود بن عبد الأسد، وصيفي بن السائب، ومن بني عبد الدار هو النضر بن الحارث بن كلدة، ومن بني أسد بن عبد العزى اثنان: أبو البختري بن هاشم وزمعة بن الأسود، ومن بني سهم اثنان: منبه ونبيه ابنا الحجاج، ومن بني جمع اثنان: أمية بن خلف وأوس بن معير".

وقد اهتم الرسول ﷺ بأمر هؤلاء فأخذ يرسل شخصا من أصحابه يقف إلى جانب المشرك المعارض، فيفند ما يقوله للناس ويفضح أكاذيبه وتقولاته على الرسول ﷺ[1].

أما الأساليب المادية في محاربة الرسول وصحبه فكانت كثيرة ومتنوعة، وقد حفلت كتب التاريخ والسيرة بأمثلة عديدة منها، فقد تآمرت قريش أكثر من مرة على الرسول ﷺ وهموا بقتله عدة مرات، ورموا عليه الأقذار، وبلغ الأمر في إحدى المرات بعقبة بن أبي معيط أن حاول خنق الرسولﷺ حين وجده واقفا قرب الكعبة، ولولا أن صادف ذلك وجود أبي بكر بقربه لكان آذاه إيذاء شديدا.

---

(١) ابن حبيب، المجر: ١٦٠-١٦١.

وكان أشد الناس قسوة على الرسول ﷺ عمه أبو لهب وامرأته أم جميل، أروى بنت حرب، فكان أبو لهب يطرح القذر والنتن على باب النبي ﷺ وكانت زوجه أم جميل تحمل أغصان الشوك فتطرحها على طريق النبي ﷺ، ولم يكن هذا حال الرسول ﷺ وحده بل حال جميع من أسلم، فقد جندت قريش كل إمكانياتها ورجالاتها ونفوذها لردع الناس عن الإسلام ولإيقاع الأذى بمن أسلم، وبالغت قريش في ذلك حتى وثبت كل قبيلة منها على من أسلم من أبنائها يعذبونهم بالضرب والجوع والعطش، وبرمضاء مكة في أيام الحرب الشديد، فتعرض لإيذائهم جمهور كبير من اتباع النبي، وكان أشد المتعرضين للعذاب هم المستضعفون والموالي ومن لا سند قبلي لهم، وفي مقدمتهم بلال بن رباح، مولى أبي بكر، وعمار بن ياسر وأبواه، وقد استشهدت سمية أم عمار، إذ طعنها أبو جهل بحربة في قلبها، فكانت أول شهيدة في الإسلام[1]، وهناك قصص كثيرة جدا في كتب السيرة والتفسير، عن أنواع العذاب الذي تعرض له المسلمون الأوائل.

## الهجرة إلى الحبشة:

حين اشتد أذى قريش على المسلمين وخاف الرسول أن يؤدي هذا إلى فتنتهم عن دينهم وهو لا يقدر أن يمنعهم مما هم فيه من البلاء قال لهم: "لو خرجتم إلى أرض الحبشة فإن بها ملكا لا يظلم عنده أحد، وهي أرض صدق حتى يجعل الله لكم مخرجا مما أنتم فيه" وقد استجاب بعض المسلمين لنصيحة

---

(١) ابن هشام: ق١، ص٣١٧.

الرسول هذه فخرجوا متسللين سرا، وكان عدد أفراد الدفعة الأولى أحـــد عشـــر رجلا وأربع نسوة، وكانت هذه الهجرة في شهر رجب من السنة الخامسة لمبعـث الرسول ٦١٥م.

استمرت عملية الهجرة إلى الحبشة حتى انتهى عـــدد مـــن هـــاجر مـــن المسلمين إليها إلى ثلاثة وثمانين رجلا بخلاف الزوجات والأبناء، ويبدو أن هـــذا العدد كان يضم الدفعتين الأولى والثانية، وقـــد ذكرنـــا أن الرعيـــل الأول مـــن المهاجرين كانوا ١١ رجلا وأربع نسوة، ركبوا ســـفينتين مـــن مينـــاء الشـــعيبية (ميناء مكة) تعودان لبعض التجار حملتاهم إلى أرض الحبشة مقابل نصف دينـــار عن كل شخص، ولما علمت قريش بذلك لحقت بهم بقصد إرجاعهم ولكنـــها لـــم تدركهم. ومن بين أسماء من هاجر في الدفعة الأولى: عثمان بن عفان وامرأتـــه رقية بنت رسول الله، وأبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة بن عبد شـــمس وامرأتـــه سهلة بنت سهيل، ومن بني أسد بن عبد العزى الزبير بن العوام، ومن بني عبـــد الدار مصعب بن عمير بن هاشم، ومن بني زهرة عبد الرحمن بن عوف، ومـــن بني مخزوم أبو سلمة بن عبد الأسد وامرأته أم سلمة، ومن بني جمح بن عمـــرو عثمان بن مظعون، ومن بني عدي بن كعب عامر بن ربيعة وامرأته ليلى.

أما الدفعة الثانية فقد خرج فيها جعفر بن أبي طالب ومعه امرأته أســـماء بنت عميش، وعمرو بن سعيد بن العاص وامرأته فاطمة بنت صفـــوان، وأخـــوه خالده وامرأته أمينة بنت خلف، وعبد الله بن جحش وأخوه عبيد الله ومعه امرأتـــه أم حبيبة بنت أبي سفيان، وقيس بن عبد الله، وعتبة بن غزوان، وعبـــد الله بـــن

مسعود، والمقداد بن الأسود، وعدد آخر ممن عاد إلى مكة من المهاجرين الأوائل(١).

إن موضوع الهجرة إلى الحبشة ما زال يطرح جملة من الأسئلة عن أسباب هذه الهجرة، وعن دوافع الاختيار للحبشة دون غيرها من الأقاليم، فإذا كان أحد أهم أسباب هذه الهجرة، كما تشير المصادر، هو الخوف على المسلمين من الفتنة والارتداد عن الدين نتيجة الاضطهاد والضغط القرشي، فإنه كان من بين المهاجرين الكثير من المسلمين الأوائل أصحاب الإيمان القوي الذين لا يخشون فتنتهم نتيجة للاضطهاد، كما أن الذين لم يهاجروا لم يكونوا أكثر ايمانا من الذين هاجروا.

وإذا كان سبب الهجرة إلى الحبشة هو حماية المسلمين من الأذى، فلما بقي بعض المسلمين هناك حتى السنة السادسة للهجرة، أي أنهم لم يعودوا حتى بعد أن أصبح الإسلام، بعد الهجرة، قوة ودولة قادرة على حماية المسلمين، علما بأنه لا يعرف أن الرسول ﷺ قد أمرهم بالبقاء هناك.

هذه الأسئلة وغيرها تدفعنا إلى الاعتقاد بأنه لا يمكن حصر أسباب هذه الهجرة بسبب واحد أو اثنين وإنما كان لها أهداف أبعد من ذلك، فمن خلال استقراء العلاقات الدولية آنذاك تظهر لنا أسباب اختيار الرسول ﷺ للحبشة دون غيرها، فقد كان للمكيين علاقات تجارية مع الشام واليمن والعراق ومنذ القديم كان أبناء عبد مناف يتاجرون مع مختلف تلك الأصقاع بموجب اتفاقيات الإيلاف

(١) ابن هشام: ق١، ص٣٢٢ وما بعدها. الطبري: ج٢، ص٣٣٣ وما بعدها.

التي أشرنا إليها سابقا، وكانت الحبشة من ضمنها، على أن العلاقات مع الحبشة لم تكن على نفس القوة، وقد خفت صلات قريش مع الحبشة على أثر حملة أبرهه، كما أن وجود البحر بين البلدين وصعوبة المواصلات زاد في ضعف هذه العلاقات وأغلب الظن أن العلاقات التجارية مع الحبشة لم تكن مباشرة، بل غير مباشرة وعن طريق اليمن، يستنتج من كل ذلك أن الصلات بين الحبشة وقريش لم تكن وثيقة بعكس العراق والشام، لذلك فضل الرسول أن تكون هجرة أصحابه إليها لا إلى غيرها من البلدان التي تربطها بقريش روابط ومصالح متبادلة.

من جانب آخر أراد الرسول ﷺ أن يستفيد من الخلاف الذي كان بين البيزنطيين وقريش، بسبب علاقات قريش التجارية المتميزة مع الفرس خلال تلك الحقبة، وأراد أن يقوي علاقاته مع الأحباش حلفاء البيزنطيين والذين لم يرضهم أيضا هذا الود بين قريش وفارس، ولعل الرسول أراد بذلك أن يفرض على مكة عزلة تجارية، وأن يستخدم قوة خارجية في الضغط عليها ولهذا كله تقرب من الحبشة وأرسل إليها وفدا من المسلمين وأقام معها علاقات طيبة.

ومن ناحية أخرى فإن محمدا ﷺ رغب في إرسال المسلمين إلى جو غير وثني، والحبشة على النصرانية يومذاك، فهي إذن أكثر استعدادا للدفاع عن المسلمين الموحدين ضد أعدائهم المشركين. وأما ما ورد في المصادر عن عدل النحاشي فقد يكون من العوامل المشجعة الأخرى.

لما رأت قريش أن أصحاب النبي ﷺ قد أمنوا في الحبشة واستقروا بها، اتفقوا على أن يبعثوا إلى النجاشي رجلين يحملان إليه وإلى بطارقته هدايا مما يستطرف من متاع مكة كلادم، وقيل أنهما هدايا إلى النجاشي، فرسا وجبة ديباج، وذلك لإقناعه برد المسلمين، فأرسلوا عمرو بن العاص وعبد الله بن أبي ربيعة

اللذين دفعا كثيرا من الهدايا إلى بطارقة النجاشي، وخاطباهم في شأن المهاجرين، وقالا لهم: (إنه قد ضوى إلى بلد الملك منا غلمان سفهاء فارقوا دين قومهم ولم يدخلوا في دينكم، وجاءوا بدين مبتدع لا نعرفه نحن ولا أنتم، وقد بعثنا إلى الملك فيهم أشراف قومهم، ليردهم إليهم، فإذا كلمنا الملك فيهم، فأشيروا عليه بأن يسلمهم إلينا، ولا يكلمهم، فإن قومهم أعلى بهم عينا) فوعدهم البطارقة بتأييدهم، ثم قدما إلى النجاشي، وقدما إليه هدية قريش، وسألاه أن يرد إليهم المسلمين، وأيدهما بطارقته، فغضب النجاشي، وأبى أن يسلم قوما استجاروا به، واحتموا فيه، واختاروه دون غيره، قبل أن يسألهم رأيهم فيما يقولاه، ثم أمر بإحضار أصحاب رسول الله، فسألهم عن مبادئ الإسلام الذين فارقوا من أجله دين قومهم ودين المسيحية، فتقدم منه جعفر بن أبي طالب، وقال له في جملة ما قاله: "يا أيها الملك، كنا قوما أهل جاهلية، نعبد الأصنام ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام ونسيء الجوار، حتى بعث الله إلينا رسولا منا، نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه، فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وحسن الجوار، والكف عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش، وقول الزور، وأكل مال اليتيم، وقذف المحصنات، وأمرنا أن نعبد الله وحده لا نشرك به شيئا، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام... فصدقناه وآمنا به"، ثم قص عليه ما لقيه المسلمون من اضطهاد قريش وتعذيبهم لهم لإرغامهم على الارتداد إلى الوثنية، وأنهم آثروا أن يفروا بدينهم الحق إلى بلاد لا يظلمون فيها، فاختاروا بلاد الحبشة، فطلب منه النجاشي أن يقرأ عليه شيئا من القرآن، فقرأ عليه صدرا من سورة مريم: (كهيعص، ذكر رحمة ربك عبده زكريا، إذ نادى

ربه نداء خفيا) فبكى النجاشي وبكى أساقفته، ثم صرف النجاشي رسولي قريش وأبى أن يستجيب لطلبهما ويرد إليهما مهاجري المسلمين، فغضب عمرو بن العاص ورفيقه، واتفقا على أن يذهبا إلى النجاشي مرة ثانية، ويدعيا أمامه بأن المسلمين يطعنون في عيسى بن مريم، فقفلا، فأرسل النجاشي يستقدم المسلمين، فلما اجتمع القوم سأل النجاشي جعفر بن أبي طالب عما يقوله الإسلام في عيسى بن مريم، قال: "هو عبد الله ورسوله وروحه وكلمته التي ألقاها إلى مريم العذراء البتول" فأعجب النجاشي من إجابته، وتأكد لديه أن محمد بن عبد الله هو الرسول الذي بشر به السيد المسيح فرحب بالمسلمين وأمنهم في أرضه[1].

هذا وقد ظل بعض المهاجرين المسلمين في الحبشة حتى أرسل الرسول إلى النجاشي عمرو بن أمية الضمري وطلب منه أن يرد على الرسول من قبله من المسلمين، فوافق النجاشي وركب المسلمون سفينتين وعادوا، وكان ذلك في السنة السادسة للهجرة والرسول بخيبر، وكان عدد الذين عادوا في هذه الدفعة الأخيرة ستة عشر رجلا، ويبدو أن بقاء هذه المجموعة المسلمة في الحبشة طول هذه المدة ١٣ سنة، أي حتى بعد أن أصبح للإسلام قوة ودولة تحمي المسلمين، كان سببه ارتباط أفراد هذه المجموعة بمصالح اقتصادية أو بروابط اجتماعية في تلك البلاد.

---

(١) ابن هشام: ق١، ص٣٣٥.

## المقاطعة الاقتصادية:

واصل كفار قريش إيذاء النبي واتباعه، وتعرض منهم لكل صنوف الأذى، فأغروا برسول الله سفهاءهم، فكذبوه وآذوه، ورسول الله ﷺ مظهر لأمر ربه لا يبالي بما يرمونه به من سفه، ويصرح لهم بما يكرهونه من عيب دينهم واعتزال أوثانهم، وظل مقيما مع قريش بمكة يدعوهم إلى الله ولا تلين له في ذلك قناة، صابرا على أذاهم ورفضهم وتعذيبهم واستهزائهم، وزاد هذا الصبر والجلد على المكارة في حنق قريش وغضبها من الرسول فعمدت إلى أساليب شتى للضغط على المسلمين، وكان من بين هذه الأساليب الجديدة أسلوب الضغط الاقتصادي، كذلك زادوا في عذاب وإيذاء العبيد والمستضعفين الذين لم يهاجروا إلى الحبشة ولم يكن لهم في مكة السند القوي الذي يمنعهم أو يخفف من المكاره التي كانت تنزل بهم.

ولما رأت قريش أن أصحاب رسول الله ﷺ قد هاجروا إلى الحبشة حيث أصابوا أمنا وقرارا، وأن الإسلام قد تعزز وامتنع بإسلام الشخصيات المهمة في مكة أمثّال الحمزة بن عبد المطلب وعمر بن الخطاب، اجتمع زعماؤهم وقرروا فيما بينهم أن يكتبوا كتابا يتعاقدون فيه على مقاطعة بني هاشم وبني عبد الطلب وعزلهم عنهم، فلا يصاهروهم ولا يبيعوهم ولا يبتاعوا منهم، ثم تعاهدوا وتوثقوا على ذلك، وعلقوا الصحيفة في جوف الكعبة توكيدا على أنفسهم، وكتب صحيفة قريش منصور بن عكرمة بن عامر بن هاشم بن عبد مناف، فلما سلكت قريش هذا المسلك العدائي انحاز بنو هاشم وبنو عبد المطلب إلى أبي طالب بن عبد

المطلب فدخلوا إليه في شعبه واجتمعوا إليه، ولم يخرج عن إجماعهم إلا اثنان هما أبو لهب وعبد العزى عما الرسول فقد انضما إلى قريش وظاهراهم(١).

وتنفيذا لبنود هذه المقاطعة الاقتصادية، قطعت قريش عن بني هاشم والمطلب كل أنواع المؤن، وكانوا لا يخرجون إلا في موسم الحج، وبلغ بهم الجهد حدا لا يطاق، وكان الناس في مكة يسمعون أصوات صبيانهم الجائعين، وأقاموا على هذه الحال ثلاث سنين يعانون خلالها ما لا يطاق من وحدة وجوع وحرمان، وشعر أفراد من قريش بينهم هشام بن عمرو ابن الحارث العامري وزهير بن أبي أمية بن المغيرة المخزومي، وكانت أمه من بني عبد المطلب، وهي عائكة بنت عبد المطلب، المطعم بن عدي ابن نوفل بن عبد مناف، أن الأمر وصل حدا من الفضاعة والقسوة لا يجوزان، فقرروا في اجتماع سري عقدوه، العمل على نقض الصحيفة، وأخذ زمام المبادرة بهذه العملية زهير بن أبي أمية، فطاف بالبيت سبعا، وأقبل على الناس وقال لهم: "يا أهل مكة، أنأكل الطعام، ونشرب الشراب، ونلبس الثياب، وبنو هاشم هلكى لا يبايعون ولا يبتاع منهم، والله لا أقعد حتى تشق هذه الصحيفة القاطعة الظالمة"(٢).

وبعد نقاش حاد بين الحاضرين أبدى فيه المعارضون معارضتهم والموافقون حججهم، قام المطعم بن عدي فشق الصحيفة وأعلن بذلك رسميا إنهاء المقاطعة، وخرج إبطال نقض الصحيفة إلى الشعب، وأبلغوا آل هاشم والمطلب ما حل بالصحيفة والمقاطعة، ففرح الحاضرون وعادوا إلى بيوتهم في مكة

---

(١) ابن هشام: ق١، ص٣٥٠-٣٥١.

(٢) أنظر: الطبري، ج٢، ص٣٤١-٣٤٣.

ليستأنفوا حياتهم فيها، وكان خروجهم من الشعب في السنة العاشرة للبعثة، أي قبل الهجرة إلى يثرب بثلاث سنين[1].

وفي هذا العام العاشر من البعثة، وفي الوقت الذي اشتد اضطهاد قريش للنبي ولأصحابه، فقد النبي سندين وناصرين له في نضاله في سبيل الحق: أولهما عمه أبو طالب الذي كان يحنو عليه ويمنعه من أعدائه، ثم زوجته الوفية خديجة، بعد انتهاء المقاطعة بقليل، وذلك لقسوة الحصار عليهما، وقد كان لفقدهما أكبر الأكثر على الرسول، فقد خسر بوفاتهما نصيرين كبيرين كان لهما الفضل في تثبيته ورعايته وحمايته، وقد سمي العام الذي توفيا فيه بعام الحزن، ويقال إن الرسول ﷺ قال: "ما نالت مني قريش شيئا أكرهه، حتى مات أبو طالب"[2].

---

(١) ابن سعد: ج١، ص٢١٠.

(٢) ابن هشام: ق١، ص٤١٦.

## المبحث الثالث

# محاولات نشر الإسلام خارج مكة

في ظل هذه الظروف الصعبة، كان على الرسول الكريم أن يفكر في وسائل أخرى يخرج بها من هذا الإطار، وأن يبحث عن طريقة ينشر بها دعوته بين أكبر عدد ممكن من الناس، ورأى ﷺ أن يسلك طريقين أو اتجاهين لتحقيق ذلك:

الأول: أن يحاول الخروج بالدعوة الإسلامية إلى مكان خارج مكة.

الثاني: أن يستغل قدوم رجال القبائل من مختلف أنحاء الجزيرة العربية في مواسم الحج أو العمرة ليدعوهم إلى الإسلام.

## أولا: الرحلة إلى الطائف

وفي إطار الوسيلة الأولى قرر الرسول ﷺ أن يلتمس النصرة من ثقيف في الطائف، فخرج إليها في شوال من السنة العاشرة للبعثة، علها تحميه وتمنعه، ورجا أن يجد عندهم قبولا لما جاءه من الله عزوجل.

تقع مدينة الطائف على ظهر جبل غزوان من جبال السراة، والطائف محلتان، محلة إلى جانب من وادي وج تسكنه ثقيف، والأخرى على الجانب المقابل ويقال لها الوهط، وكانت الطائف أصغر من مكة، وهي مثلها مركز تجاري له أوثق الصلات بتجارة اليمن، وكانت ثقيف أشهر قبائلها، وتعمل بالتجارة، وبالتعاون مع قريش في بعض الأحيان، وهي ذات مناخ ألطف بكثير

من مناخ مكة، وكانت مشهورة بخصبها وجودة محصولاتها التي كـــان أشـــهرها الحبوب والفواكه والأعناب والخضراوات، وكان بعض أثرياء قريـــش يمتلكــون الأراضي فيها ويمضون بها فصل الصيف لتلطيف جوهـــا واعتـــدال مناخـــها، وكانت بطون هاشم وعبد شمس أكثر بطون قريـــش صلـــة بالطـــائف، وكـــانت مخزوم على صلات مالية وثيقة بثقيف، أهم قبائل الطائف.

كان في الطائف تكتلان سياسيان رئيسيان هما: بنو مـــالك، والأحـــلاف، ويبدو أن الأحلاف كانوا أقدم في سكن الطائف من بني مالك، لأن سدانة بيـــوت الآلهة هناك كان بيدهم، أما بنو مالك فقد كانوا على صلات وثيقة ببنـــي هـــوزان الذين كانوا أصحاب السيادة على أغلب الأراضي المجاورة للطائف، لذلك وجـــد الأحلاف أنفسهم مضطرين أن يمتنوا تحالفهم مع قريش حتى يقيموا التوازن بينهم وبين بني مالك حلفاء هوازن، وتوضح هذه التحالفات بين فرعي ثقيف والقبـــائل الخارجية أن ثقيفا كقبيلة كانت تنقصها الوحدة[1].

في مثل هذه الظروف كانت زيارة الرسول محمد ﷺ إلى الطائف يحـــدوه أمل في أنه واجد في لجوئه إليها ما يحلم به من نصرة وتأييد لم يجدهما في بلـــده مكة.

تذكر كتب السيرة أن الرسول ﷺ حين وصل الطائف اتصل بـــنفر مـــن ثقيف هم يؤمئذ ساداتها وأشرافها، وهؤلاء هم ثلاثة أخوة: عبد ياليل بن عمــــرو بن عمير وأخواه مسعود وحبيب، وكانت زوجة أحد الأخوة الثلاثة هؤلاء قرشية،

---

.Watt, P.138 (١)

وهم من فئة الأحلاف، أي الفئة الأكثر صلة بقريش، ولسنا نجد سببا لاختياره لهذا الفرع من ثقيف المعروف بصلاته القوية مع قريش. وكان المتوقع أن يتصل بالفرع الآخر (بني مالك) الذين لا تربطهم بقريش صلات متينة.

تحدث الرسول ﷺ مع هؤلاء عن دعوته، ودعاهم إلى الله، ولكنه لم يلق عندهم القبول الحسن، فبعضهم استهزأ به وبعضهم كذبه ورده ردا قبيحا، ولما يئس الرسول من إقناعهم، طلب إليهم أن يكتموا أمر قدومه عن قريش حتى لا تتخذ من ذلك ذريعة للمبالغة في محاربته وتعذيب أنصاره.

غادر الطائف بعد أن أغروا به سفهاءهم وعبيدهم الذين أخذوا يشتمونه ويضربونه بالحجارة، فالتجأ إلى بستان قريب حتى خفت ملاحقة مطارديه، ومن هناك اتجه إلى مكة مخذولا يائسا كسير القلب، وقبل أن يدخل مكة، اتجه إلى حراء، خارجها، ومن هناك حاول أن يتدبر أمره، ويدخل مكة بأمان، من خلال مجاورة أحد الأشخاص المتنفذين، وقد وافق على منحه هذا الجوار المطعم بن عدي، سيد بني نوفل، في حين رفض ذلك الأخنس بن شريق، سيد بني زهرة، وسهيل بن عمرو، سيد بني عامر.

إن هذه الرواية بحد ذاتها تصور لنا الظرف القاسي الذي كان يمر به الرسول محمد ﷺ في هذه المرحلة، والمعاناة التي كان يحملها بصبر وجلد، فلجوء الرسول إلى أشخاص غرباء عن أسرته لمنحه الحماية والجوار، يعني أن

أسرته، بعد موت عمه، لم تعد السند الذي يعول عليه، خاصة وأن زعامة الأسرة أصبحت بيد أبي لهب في أعقاب وفاة أبي طالب[١].

## ثانيا: الاتصال بالقبائل الأخرى

بعد فشل محاولة إقناع أهل الطائف بقبول الدعوة الإسلامية، وإصرار قومه إصرارا شديدا على مقاومته وعدم تقبل دعوته، وأيقن أن لا أمل بينهم، رأى الرسول ﷺ أن يلجأ إلى أسلوب آخر، وهو أن يعرض نفسه على القبائل العربية في مواسم الحج والعمرة، يدعوهم إلى الإسلام، ويتصل بأشراف العرب، فكان لا يسمع بقادم إلى مكة من سادات العرب وأشرافها، حاجا أو معتمرا إلا ودعاه إلى الإسلام، ويذكر ابن إسحاق[٢]، أن أبا لهب كان يتبع الرسول في جولاته هذه، فما يكاد يفرغ من شرح أصول الإسلام ويبين أهم تعاليم الدين الجديد، حتى يقف أبو لهب فيقول للناس "يا بني فلان، إن هذا إنما يدعوكم أن تسلخوا اللات والعزى من أعناقكم ... إلى ما جاء به من البدعة والظلالة، فلا تطيعوه ولا تسمعوا منه".

---

(١) ابن هشام: ق١، ص٤١٩ وما بعدها.

(٢) المصدر السابق: ق١، ص٤٢٣.

وقد ذكر ابن إسحاق[1] أيضا أن النبي أتى كندة في منازلهم، فدعاهم إلى الإسلام، وعرض عليهم نفسه، فأبوا عليه، ثم قصد بني عبد الله الكلبيين في منازلهم، فدعاهم إلى الله وعرض عليهم نفسه، فلم يقبلوا منه ما عرض عليهم، ثم اتصل ببني حنيفة ودعاهم إلى الإسلام، فأعرضوا عنه وردوا عليه أقبح رد، ودعا بني عامر بن صعصعة إلى الإسلام، وكانوا بسوق عكاظ، فاشترط عليه بحيرة بن فراس، أحد سادتهم، أن يكون لقبيلته الأمر إذا أظهره الله على من خالفه من قريش، فلما أخبره الرسول أن الأمر إلى الله يضعه حيث يشاء، أبوا عليه.

كان لابد لهذا الكفاح المرير والصبر والجلد الذي فاق كل تصور من لدن رسول الله ﷺ إلا أن يؤتي ثماره، وأن يجد في النهاية من يستمع له ويستجيب لدعوته، فلما قدم سويد بن الصامت (من أهل يثرب) معتمرا إلى مكة دعاه النبي إلى الإسلام، واسمعه شيئا من القرآن، فأبدى سويد استحسانه لما سمع، وانصرف إلى قومه في يثرب، فلم يلبث أن قتله الخزرج قبل يوم بعاث، وذكروا أنه مات وهو مسلم، ثم سمع النبي ﷺ أن أبا الحيسر أنس بن رافع قدم إلى مكة حاجا أو معتمرا ومعه فتية من بني عبد الأشهل الأوسيين، ومن بينهم إياس بن معاذ، يلتمسون من قريش الحلف على قومهم من الخزرج، أقبل عليهم ودعاهم إلى عبادة الله، وذكر لهم الإسلام، وتلا عليهم آيات من القرآن الكريم، فخفق قلب إياس بن معاذ عند سماعه لآي الذكر الحكم، ولم يمنع نفسه من إبداء تأثره بما سمع، فقال: "أي قوم، هذا والله خير مما جئتم به"، فعارضه أنس بن رافع وعنفه

---

(١) ابن هشام: ق١، ص٤٢٤.

على ترك الغرض الرئيسي الذي قدموا إلى مكة من أجله، ثم خرج رسول الله في الموسم الذي لقيه فيه جماعة الأنصار في العام السابق، فعرض نفسه على قبائل العرب مثلما كان يفعل في كل موسم، فبينما كان عند العقبة(*) التقى برهط يتألف من ستة شيوخ من الخزرج المقيمين بيثرب، وكان الآوس قد غلبوهم في يوم بعاث، فدعاهم النبي إلى الإسلام، وتلا عليهم آيات قرآنية، وكان يهود يثرب قد تنبؤوا بقرب ظهور نبي يتبعوه وتوعدوهم به، فلما خاطب النبي محمد ﷺ هؤلاء النفر ودعاهم إلى دينه وتلا عليهم آيات من القرآن، أدركوا أنه النبي الذي توعدهم به اليهود، فصدقوه وأسلموا على يديه، وعزموا على أن يحدثوا قومهم في شأنه ويدعوهم إلى الإسلام، فلما أقبلوا على قومهم بيثرب ذكروا لهم رسول الله. ودعوهم إلى الإسلام، وأجابوهم إليه "حتى فشى فيهم فلم تبق دار من دور الأنصار إلا وفيها ذكر من رسول الله ﷺ"[1]، ويحق للمرء أن يتساءل هنا لماذا كانت استجابة أهل يثرب للدعوة الإسلامية أكثر من غيرهم من القبائل الأخرى، سواء من حيث سرعة الاستجابة أو من حيث عدد من استجاب لهذه الدعوة؟

للإجابة عن هذا السؤال لابد من التعرف على طبيعة المجتمع اليثربي وظروفه ومشاكله قبيل الإسلام، وفي عصر البعثة النبوية الشريفة. لقد كان القسم الأكبر من سكان يثرب عبارة عن تجمع قبلي كبير يضم قبيلتين هما الآوس والخزرج، اللتان لكل منهما عدد من الفروع والبطون، وتذكر المصادر أن الأوس والخزرج من عرب الجنوب وهاجروا إلى يثرب وسكنوا بعضا من

---

(*) هي عقبة بين منى ومكة بينها وبين مكة نحو ميلين، ياقوت الحموي: ج٤، ص١٣٤.

(١) ابن هشام: ق١، ص٤٢٥ وما بعدها.

أراضيها غير المأهولة، ودخلوا في خدمة القبيلة أو القبائل التي كانت تقطنها، ثم، ومع مرور الزمن، وبسبب من كثرتهم وقوتهم، استطاعوا أن يغتصبوا السيادة من سكانها الأصليين، وأن يغدوا سادتها الجدد، ويعتقد أن هذا حدث في القرن السادس الميلادي.

قبيل قدوم الأوس والخزرج إلى يثرب كانت قد استوطنت فيها قبيلتان يهوديتان هما: بنو قريظة وبنو النضير، وقد سكنت هاتان القبيلتان في الأرض الخصبة من إقليم يثرب، وعاشوا حياة مستقلة عن القبيلتين العربيتين الوافدتين، وهناك خلاف بين الباحثين حول أصل هاتين القبيلتين، وفيما إذا كان أفرادهما عربا تهودوا أم يهودا تعربوا، وقد انتقلت إلى يثرب في زمن الرسول قبيلة يهودية ثالثة واستقرت فيها، هي قبيلة بني قينقاع، وكانت أقل نفوذا من سابقتيها، كما استوطنت في يثرب عناصر عربية أخرى غير الأوس والخزرج، ولعلهم بقايا سكان يثرب الأصليين قبل قدوم اليهود إليها.

عاش الأوس والخزرج في يثرب حياة قلقة وكانت بينهم نزاعات كثيرة وحروب طويلة، كان آخرها يوم بعاث، وهي الحرب التي وقعت بين القبيلتين قبل هجرة الرسول ﷺ إلى يثرب بخمس سنوات تقريبا، وقد أوجدت هذه الحرب الأخيرة نوعا من التوازن المؤقت بين القبيلتين لأن كلا من الفريقين كان راغبا في الخلاص من حالة القلق والنزاعات التي أرهقت الطرفين.

عاش الأوس والخزرج في يثرب حياة قلقة وكانت بينهم نزاعات كثيرة وحرب طويلة، كان آخرها يوم بعاث، وهي الحرب التي وقعت بين القبيلتين قبل هجرة الرسول ﷺ إلى يثرب بخمس سنوات تقريبا، وقد أوجدت هذه الحرب

الأخيرة نوعا من التوازن المؤقت بين القبيلتين لأن كلا من الفريقين كان راغبا في الخلاص من حالة القلق والنزاعات التي أرهقت الطرفين.

وكان السكان العرب في هذه المنطقة إضافة إلى قلق الحروب والنزاعات يعيشون أزمة مثل عليا، ولا سيما في المجال الديني، وقد ساعد على هذا الشعور بعدم جدوى أو قصور الديانة الوثنية عن متطلبات العقل، وجود اليهود الموحدين إلى جانبهم، وما كان ينتج عن هذا الاختلاف والنقاش من شكوك تعجز الوثنية من الرد عليها.

من جانب آخر كانت يثرب تعيش أزمة اقتصادية، من أهم أسبابها الزيادة المستمرة في عدد السكان، لا تجاريها، من جانب آخر، زيادة مماثلة في مخزون الطعام، وقد ترتب على النزاعات المسلحة التي كانت تجري بين سكان يثرب، أن المنتصرين كانوا في كثير من الأحيان يحتلون أرض المغلوبين إذا كانت أكثر خصبا من أرضهم حتى يؤمنوا لأنفسهم موردا للطعام أفضل أو أكثر قدرة على سد حاجتهم. وحين كانت تنتهي الحروب بينهم دونما نتيجة حاسمة، كما حدث يوم بعاث مثلا، كان على أصحاب الأراضي الخصبة أن يظلوا حذرين وعلى استعداد دائم للدافع عن أرضهم إذا ما هاجمها مهاجم بقصد الاستيلاء عليها واستثمارها لصالحه، من جانب آخر أدت هذه المشاكل والخصومات إلى إهمال الناس للأراضي الخصبة، وغدت الأرض المنتجة عرضة لشريعة الغزو، التي هي في الأساس من مظاهر انعدام الأمن الغذائي في الصحراء، هذه الشريعة التي ظلت سائدة في يثرب وتطبق على الأرض الزراعية لا على الأموال المنقولة فحسب، كما كانت الحال في المجتمعات البدوية، ومن الطبيعي أن تنسحب هذه الشريعة لتطبق على قطعات الماشية، وأن تتعرض هذه الثروة

الحيوانية إلى محاولات السلب والاستيلاء القسري، كل هذه الصدامات زادت من مشاكل يثرب، وجعلتها تعيش حالة من القلق والصراع المستمر.

لقد ساهم النظام الاجتماعي السائد في يثرب، كما هو الحال في كل المجتمعات البدوية، في تعقيد أزمات هذه المدينة، فكان الثأر والدية شريعتان هامتان من شرائع هذه المجتمعات، وقد أدى هذا التضامن القبلي (العصبية القبلية) إلى صيرورة مهمة الدفاع عن الممتلكات الشخصية مسؤولية الجماعة القبلية بكاملها لا مسؤولية الفرد وحده، وإذا كان مقبولا أن تتولى القبيلة ككل في مجتمع صحراوي مهمة الدفاع عن ممتلكات فرد من أفرادها اعتدي عليه، فإن هذا الأمر ليس بنفس السهولة في مجتمع مستقر وصغير الرقعة نسبيا كمجتمع يثرب، لأن مجالات الصدام يومية ومتكررة ولاسيما إذا أخذنا بعين الاعتبار ما أشرنا إليه سابقا من شحة في الموارد الغذائية، كانت تؤدي بالضرورة إلى غزو دائم للممتلكات الفردية بقصد الاستحواذ على ما عند الغير من إمكانيات غذائية لا تتوفر عند الغازي.

لم نجد مثيلا لهذه المشاكل والأزمات في مجتمع مكة، ذلك لأن النشاط الاقتصادي السائد هناك هو التجارة، والتجارة بطبيعتها عامل موحد يجمع شتات الناس، فضلا عن كونها تؤمن لهم موردا للرزق يجعلهم في غنى عن الاعتماد على منتوج الأرض من الغذاء. وبالتالي تنتفي من المجتمع شريعة الغزو الصحراوية. كما أن وحدة المصالح التجارية لقريش أدت إلى وحدة قبلية لم تتهيأ للقبيلتين الكبيرتين في يثرب. يضاف إلى هذا أن يثرب بلد زراعي، والأسرة في المجتمع الزراعي هي الخلية الأساسية للإنتاج، في حين أن مجتمعا كمجتمع مكة يعمل معظم أفراده في النشاط التجاري يحتاج بالضرورة إلى التضامن القبلي،

لهذه الأسباب كان التضامن القبلي في مجتمع مكة أكثر وضوحا وضرورة منه في مجتمع يثرب[1].

في مثل هذه الظروف بدأ الرسول محمد ﷺ اتصالاته بأهل يثرب، وتحدث عن دعوته الجديدة إلى أناس هذه معاناتهم وهذه هي مشاكلهم وأزماتهم، أناس يبحثون عن الخلاص، وعن قائد يوحدهم، فكان ذلك عاملا مهما، عجل في استجابتهم لدعوته الشريفة. كما أن هناك ظرفا دينيا خاصا بهذه المدينة ساعد على تمهيد الأرض لهذه الدعوة وحاملها، يذكر ابن اسحق أن الرسول حين لقي أول مرة رهطا من الخزرج وحدثهم عن دينه ودعاهم إلى الله، عرفوا فيه نبيا كان يحدثهم للانحياز إليه حتى لا يسبقهم إلى ذلك اليهود ويكون لهمّ النصر بواسطته[2]. وهذا يعني أن أهل يثرب بحكم صلاتهم بأناس موحدين يعتنقون ديانة سماوية، كانوا أكثر استعدادا لسماع نبي عربي يحدثهم عن الله بلسانهم، ويسخر من عبادة الأوثان والأصنام ويبطل عبادتها بالعقل والحجة الدامغة، يضاف إلى هذا أن أهل مكة كانت لهم مصلحة مادية في التمسك بالديانة الوثنية والدفاع عنها، بخلاف أهل يثرب الذين لا تربطهم بها أية مصلحة ولا يجنون منها أية فائدة.

---

(١) أنظر: Watt, 141-145. نبيه عاقل: ص٤٢١ وما بعدها.

(٢) ابن هشام: ق١، ص٤٢٨.

## ثالثاً: بيعتا العقبة الأولى والثانية

في موسم حج سنة ٦٢١م أي العام الثاني عشر من النبوة عاد إلى مكة خمسة من الستة اليثربيين الذين قابلوا الرسول وأمنوا بدعوته في الموسم الفائت ومعهم سبعة آخرون بينهم ثلاثة من الأوس والباقي من الخزرج، من بينهم أسعد بن زرارة، وعوف بن الحارث، ومعاذ بن الحارث، ورافع بن مالك، كانوا قد أسلموا في العام الماضي، ثم ذكوان بن عبد قيس الزرقي، وعبادة بن الصامت، وشهد هؤلاء الرجال موسم الحج، ثم عزموا على الاجتماع برسول الله، فلقوه في العقبة فبايعوه بيعة تعرف باسم بيعة العقبة الأولى وفيها عاهدهم النبي على ألا يشركوا بالله شيئا، وأن يتجنبوا السرقة والزنا وقتل الأولاد، وألا يأتوا ببهتان يفترونه بين أيديهم وأرجلهم وألا يعصوا النبي في معروف، وقد ذكر الله هذه البيعة في القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿يبايعنك على أن لا يشركن بالله شيئا﴾[1]. وقد سميت هذه البيعة ببيعة النساء لأنها لم يكن فيها بيعة على القتال وإنما أخذ للعهد والميثاق فقط. وقبل أن ينصرفوا عن النبي بعث معهم مصعب ابن عمير بن هاشم بن عبد مناف، وأمره أن يقرئهم القرآن ويعلمهم الإسلام، ويفقههم في الدين، وعلى يدي مصعب وأسعد بن زرارة تم إسلام عدد كبير من أهل يثرب من بني عبد الأهل الأوسيين، نذكر منهم سعد بن معاذ وأسيد بن حضر اللذان كان لإسلامهما أعظم الأثر في انتشار الإسلام بيثرب.

---

(١) سورة الممتحنة: ١٢.

وفي موسم حج سنة ٦٢٢م أي العام الثالث عشر من البعثة النبوية، توجهت جماعة من يثرب عدد أفرادها (٧٣ رجلا) وثلاث نسوة إلى مكة لأداء فريضة الحج، وتواعدت هذه الجماعة على اللقاء ليلا بالعقبة مع الرسول في أوسط أيام التشريق، ولما فرغوا من الحج وكانت الليلة الموعودة ومضى ثلث الليل تسللوا متخفين حتى اجتمعوا في الشعب عند العقبة، وكان عددهم ثلاثة وسبعون رجلا وامرأتان وبعد انتظار لم يظل جاء الرسول ﷺ ومعه عمه العباس، وكان يؤمئذ ما يزال على دين قومه، إلا أنه حضر ليستوثق أن ابن أخيه في منعة ومأمن، وأنه منتقل من حماية أسرته إلى حماية قوم قادرين على حمايته. وتكلم العباس مستهلا هذا الاجتماع فقال: "يا معشر الخزرج (وكانت العرب إنما يسمون هذا الحي من الأنصار الخزرج، خزرجها وأوسها)، إن محمدا منا حيث قد علمتهم، وقد منعناه من قومنا، ممن هو على مثل رأينا فيه، فهو في عز من قومه ومنعه في بلده، وإنه قد أبى لا الانحياز إليكم، واللحوق بكم، إن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه،وما نعوه مما خالفه، فأنتم وما تحملتم من ذلك، وإن كنتم ترون أنكم مسلموه وخاذلوه بعد الخروج به إليكم، فمن الآن فدعوه، فإنه في عز ومنعة من قومه وبلده"[1].

وما أن أتم العباس كلمته حتى أبدى الأنصار صدق نيتهم، وأظهروا إخلاصهم للنبي، ثم طلبوا منه أن يحدثهم فتلا عليهم آيات من القرآن الكريم، ودعاهم إلى الإسلام، ثم قال: "أبعايكم على أن تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم" فوافقوه على ذلك، ولكن رجلا منهم وهو أبو الهيثم بن التيهان اعترضه

---

(١) ابن هشام: ق١، ص ٤٤٢.

بقوله: "يا رسول الله إن بيننا وبين الرجال حبالا وإنا قاطعوها، يعني اليهود، فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك ثم أظهرك الله، أن ترجع إلى قومك وتدعنا؟" فتبسم رسول الله ثم قال: "الدم الدم والهدم الهدم، أنا منكم وأنتم مني، أحارب من حاربتم، وأسالم من سالمتم" ثم اتفق معهم على أن يختاروا منهم اثني عشر نقيبا يمثلون قومهم، فاختاروا تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس.

عندما اجتمع النقباء لمبايعة الرسول ﷺ ذكرهم العباس بن عبادة بن نضلة الأنصاري بما سبق أن تحدث به العباس عم النبي، تأكيدا للعهد والبيعة والذب عن الرسول وافتدائه بالمال والروح، فقال لهم: "يا معشر الخزرج، هل تدرون علام تبايعون هذا الرجل؟ قالوا: نعم، قال: إنكم تبايعونه على حرب الأحمر والأسود من الناس، فإن كنتم ترون أنكم إذا أنهكت أموالكم مصيبة، وأشرافكم قتلا، أسلمتموه، فمن الآن فهو والله إن فعلتم خزي الدنيا والآخرة، وإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه على نهكة الأموال وقتل الأشراف فخذوه، فهو والله خير الدنيا والآخر. قالوا: فإنا نأخذه على مصيبة الأموال وقتل الأشراف، فما لنا بذلك يا رسول الله إن نحن وفينا بذلك؟ قال: الجنة، قالوا: أبسط يدك. فبسط يده فبايعوه"[1].

ويقال أن قريش علمت بأنباء هذا اللقاء بين الرسول محمد ﷺ وأهل يثرب، فأرسلت جماعة منها إلى اليثربيين يتهددونهم، فأنكر بعضهم ما حدث حقنا

---

(١) ابن هشام: ق١، ص٤٤٨-٤٤٩.

للدماء وتفاديا للشر، وعندما خرج اليثربيون يريدون بلدهم تعقبهم القرشيون وقبضوا على بعضهم وضربوهم وعذبوهم.

لقد سميت بيعة العقبة الثانية ببيعة الحرب، لأن الرسول بايعهم في هذه البيعة الثانية على حرب الأسود والأحمر، ووعدهم بالجنة التي وعد بها الله المؤمنين في قوله تعالى: ﴿وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جنات تجري من تحتها الأنهار، كلما رزقوا منها من ثمرة رزقا قالوا هذا الذي رزقنا من قبل وأتوا به متشابها ولهم فيها أزواج مطهرة وهم فيها خالدون﴾(١)، وفي قوله تعالى: ﴿الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق، والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل ويخشون ربهم ويخافون سوء الحساب، والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سرا وعلانية ويدرؤون بالحسنة السيئة أولئك لم عقبى الدار، جنات عدن يدخلونها ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم والملائكة يدخلون عليهم من كل باب﴾(٢).

تعد بيعة العقبة الثانية بداية عهد جديد في حياة الجماعة الإسلامية في مكة، فقد تهيأ للمسلمين دار هجرة بعد أن بايع رهط الأنصار النبي ﷺ على الإسلام والنصرة له ولاتباعه، وفتحوا أبواب بلدهم لهم، وأخذ رسول الله يشجع أصحابه على الهجرة إلى يثرب وقال لهم: "إن الله قد جعل لكم إخوانا ودارا تأمنون بها". وجاء الأذن للمسلمين بالهجرة إلى يثرب بعد أن ضيقت قريش على المسلمين بعد أن علموا بأنه أصبح للمسلمين منعة ودار هجرة.

---

(١) سورة البقرة: ٢٥.

(٢) سورة الرعد: ٢٣.

بدأ المسلمون بالهجرة أرتالا وجماعات سرا، أما الرسول ﷺ فقد بقي في مكة ينتظر أن يأذن له ربه بالخروج من مكة إلى يثرب دار الهجرة، ولم يبق معه بمكة من المسلمين إلا علي بن أبي طالب وأبو بكر الصديق ومن كان قد حبسه المشركون في مكة كرها أو فتن عن دينه. وكان أبو بكر كثيرا ما استأذن الرسول في الهجرة، فينصحه بالتمهل عسى أن يجد له صاحبا ورفيقا -يقصد نفسه-. فلما رأت قريش أن رسول الله قد أصبح له شيعة وأصحاب من غيرهم وبغير بلدهم مكة، وأن أصحاب رسول الله قد هاجروا إلى يثرب وأصابوا منهم منعة، خافوا لحاق النبي بهم، وأدركوا أنه قد عزم على محاربتهم، فاجتمعوا في دار الندوة ولم يتخلف أحد من أهل الرأي منهم، ليتشاوروا في ما يصنعون في أمر الرسول، فاقترح عليهم أبو البختري بن هشام أن يحبسوا النبي ﷺ في الحديد ويغلقوا عليه بابا، وقال قائل بنفيه من أرض الحجاز، ولكن شيوخ قريش لم يأخذوا بأي من الاقتراحين، ثم اقترح عليهم أبو جهل أن يجمعوا من كل قبيلة فتى شابا قويا شريفا في قومه، ذا نسب، يسلحونه بسيف صارم، ثم يعمدوا إلى النبي فيضربوه بسيوفهم ضربة رجل واحد فيقتلوه، ويتفرق دمه في القبائل جميعا، وعندئذ لا يستطيع بنو عبد مناف أن يحاربوا كل قبائل قريش، فاجتمعت قريش على هذا الرأي وتفرقوا وهم مجمعون عليه.

علم الرسول ﷺ بخطة التآمر التي اتفق عليها سادة قريش، وأمره الله تعالى بعدم المبيت على فراشه في تلك الليلة كما أمره بالهجرة إلى يثرب وأنزل عليه قوله تعالى: ﴿وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك،

﴿ويمكرون ويمكر الله، والله خير الماكرين﴾[1]، فلما حل الليل، حضر المتآمرون واجتمعوا حول باب النبي يرصدونه حتى ينام ثم يهجمون عليه، فلما رأى النبي مكانهم عهد إلى علي بن أبي طالب بأن ينام في فراشه ويتسجى ببرده الحضرمي الأخضر حتى يختلط الأمر على المتآمرين فيظنون أنه النبي، ثم خرج النبي من وسط المتآمرين دون أن يفطنوا لخروجه أو يبصروه، ومضى إلى دار أبي بكر، وأبلغه بأن الله قد أذن له في الخروج والهجرة، فخرجا وركبا راحلتين ومضيا في طريق يثرب حتى أتيا غار ثور فدخلا فيه، ولم يعلم بخروج النبي أحد حين خرج سوى علي بن أبي طالب الذي استبقاه النبي على فراشه خديعة للمشركين، وحتى يؤدي عن رسول الله الودائع التي كانت عنده للناس، وأبو بكر وبنتاه، فأقام النبي وصاحبه أبو بكر في الغار ثلاثة أيام كان عبد الله بن أبي بكر يزودهما خلالها بأنباء مكة، وكانت أسماء بنت أبي بكر تأتيهما بما يصلحهما من الطعام.

عندما تبين للمتآمرين أن عليا هو الذي كان نائما في فراش النبي، وأيقنوا أن الرسول قد غادر مكة، بادروا باقتفاء أثره حتى انتهوا إلى باب الغار، فوجدوا بابه مكسوا بنسج عنكبوت، فاستبعدوا أن يكون النبي قد دخل هذا المكان، فانصرفوا. وكان النبي قد سمعهم يتحاورون، فجزع أبو بكر، وقال للنبي: "لو أن أحدهم نظر إلى قدميه لأبصرنا تحت قدميه" فقال له النبي: "يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما" فأنزل الله تعالى على النبي: ﴿إلا تنصروه فقد نصره الله، إذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين إذ هما في الغار، إذ يقول لصاحبه: لا تحزن إن الله معنا.

---

(١) سورة الأنفال: ٣٠.

فأنزل الله سكينته عليه وأيده بجنود لم تروها، وجعل كلمة الذين كفروا السفلى، وكلمة الله هي العليا، والله عزيز حكيم﴾[1].

غادر النبي ﷺ مع صاحبه الغار في الرابع من ربيع الأول سنة ٦٢٢م، وأستأجرا دليلا يقال له عبد الله بن أريقط الليثي، ورافقهما أيضا عامر بن فهيرة مولى أبي بكر إلى يثرب، وقد علم المسلمون في يثرب بخروج النبي إلى مكة، فكان الكثيرون منهم منذ أن سمعوا بخروجه أنهم إذا وصلوا الصبح خرجوا من مدينتهم إلى ظاهرها ينتظرون قدومه حتى يشتد عليهم حر الشمس فيعودوا إلى دورهم، ولما وصل النبي ومرافقوه إلى المدينة، شاع الخبر سريعا بين المهاجرين والأنصار وخرجوا لاستقباله، ثم نزل رسول الله في علو المدينة في حي يقال لهم بنو عمرو بن عوف، فأقام هناك أربع عشرة ليلة وقيل أربع ليال أسس خلالها المسجد الذي أسس على التقوى وهو مسجد قباء، ثم ركب الرسول راحلته وسار يمشي معه الناس حتى بركت الناقة بجوار مربد للتمر لغلامين يتيمين من بني مالك بن النجار في كنف سعد بن زرارة يقال لهما سهل وسهيل، فقال رسول الله حين بركت به الناقة: "هذا إنشاء الله المنزل"، وقد اشترى الرسول ﷺ المربد من الغلامين بعشرة دنانير، وأمر أن يبنى في مكانه مسجد للمسلمين، وبنى إلى جانبه مساكنه التي انتقل إليها بعد سبعة أشهر، حيث استكمل بناؤها، وقد أمضى هذه الأشهر السبعة في ضيافة أبي أيوب خالد بن زيد الأنصاري[2].

---

(١) سورة التوبة: ٤٠.

(٢) أنظر: سيرة ابن هشام: ق١، ص٤٨٠ وما بعدها. ابن سعد: ج١، ص٢٢٦ وما بعدها.

# الفصل الثالث

# تأسيس الدولة العربية الإسلامية

## المبحث الأول: أسس بناء الدولة

أولاً: المسجد: نواة الدولة الجديدة.

ثانياً: تنظيم الجبهة الداخلية.

## المبحث الثاني: بدء الأعمال العسكرية

أولاً: تشريع الجهاد.

ثانياً: الغزوات والسرايا.

## المبحث الثالث: مقدمات حركة الفتح العربي الإسلامي

# المبحث الأول

## أسس بنـــــاء الدولـــــة

بدأت مرحلة جديدة في تاريخ الإسلام بوصول الكريم ﷺ إلـــى يـثرب، التي أصبحت بعد هذا التاريخ "المدينة". ولم تعد مهمة الرسول في مستقره الجديد مقتصرة على الدعوة إلى دين الله، وتبليغ رسالة السماء فسحب، بل غدا قائد أمـة ورئيس دولة، كما أصبح رئيسا لجماعات غير متجانسة، لابـد لـه أن يوحدهـا وينظم علاقاتها الخاصة والعامة، وفي ميادين عديدة، لم يكن الجانب الدينـــي إلا واحداً منها.

لقد فرضت التركيبة السكانية لمجتمع المدينة على الرسول ﷺ أن يعمـــل في ظروف صعبة، فقد كان بالمدينة حين هاجر إليها الرسول جماعتان كبيرتـــان من الناس، جماعة المسلمين وجماعة غير المسلمين.

أما المسلمون فكـــانوا فئتيـــن: الأنصـــار، أي المســلمون مـــن الأوس والخزرج، والمهاجرون، وهم المسلمون المكيون الذين هجروا مدينتهم وانتقلـــوا للسكن مع الرسول في المدينة المنورة، أما غير المسلمين فقد كانت غالبيتهم مـــن اليهود، وبينهم بعض المشركين من الأوس والخزرج الذين لم يدخلـوا الإســلام، وفئة المنافقين الذين كان إسلامهم ظاهرياً ويبطنون الكيد للإسلام ولا يؤمنون به.

لم يكن الرسول محمد ﷺ في الأيام الأولى من هجرته إلى المدينة الرجـــل المطاع الأوحد الذي لا ينازع سلطته منازع، وإذا صحت هذه الصفة على مرحلة لاحقة من وجوده في هذه المدينة، فإنها لا تصح على الأيام الأولى فيها، لقد كـان

ﷺ أول الأمر، لا يملك السيادة إلا على المجموعة التي آمنت برسالته من مهاجرين وأنصار، لذلك كان عليه أن يقوم بجهد كبير في ميدان الدعوة إلى الإسلام بين أولئك المدنيين الذين لم يقبلوا الإسلام ديناً، وقد أثمرت جهوده في هذا الميدان بسرعة ونجح في ضم أغلب الفئات إلى الإسلام في أقل من عام بعد بدء الهجرة، وكان من بين هذه الفئات فئة المنافقين الذين اعتنقوا الإسلام ظاهرياً وحاربوه حرباً مقنعة تبعاً لمصالحهم، وكان هناك من تشبث بموقفه المعادي للإسلام واستمر يعارض الرسول ﷺ ويرفض الإسلام، ولم يكن عدد هذه الفئة الأخيرة كبيراً.

وإلى جانب هذه الفئات العربية التي واجهت الرسول ﷺ بمعارضتها ودسائسها حين قدم إلى المدينة، كانت هناك الجماعات اليهودية التي أدركت أن تقدم الرسول ونجاحاته المتلاحقة هي فاتحة لعصر جديد، لن تكون لهم فيه الكلمة الأولى ولا الدور القيادي، فحزموا أمرهم على محاربة الرسول ودعوته بكل أنواع العداء الظاهر والمستتر، وهذا ما سنبحثه مفصلاً في الفقرات اللاحقة من هذا الفصل.

إن هذه الظروف وغيرها دفعت الرسول محمد ﷺ إلى المباشرة بوضع أسس بناء دولته والعمل الحثيث على تثبيت كيانها، فكانت أول أعماله في هذا الاتجاه بناء المسجد وتنظيم الجبهة الداخلية وتوحيدها.

## أولاً: بناء المسجد: نواة الدولة الجديدة

شرع الرسول ﷺ في بناء مسجد للمسلمين في مكان المربد الذي قيل أنه كان فيه قبور للمشركين والآخرين، فأزال النبي كل ما حواه المربد وسوّى

الأرض[1]، وبنى المسجد على شكل مربع أساسه من الحجارة، وأقام للمسجد ظلة[2]، ثم بنى بجواره بيوتاً لأزواجه كانت أبوابها شارعة فيه[3]، ومجموعها تسعة بيوت، أضيفت كلها إلى المسجد بعد موت أزواج النبي[4].

ولم يكن المسجد في أول بنائه سوى ساحة فسيحة لا ظلة لها، فشكا المسلمون إلى النبي من شدة الحر بسبب تعرضهم لحرارة الشمس، فأقام بهم ظلة، واستخدم جذوع النخل سواري للقبلة المسقوفة، بحيث أصبحت الظلة تضم ستة أساطين، ثلاثا إلى اليمن المنبر وثلاثا إلى يساره[5]، ثم طرحت على سواري النخل العوارض والخصف، وهي عروش وجريد، وبنى إلى جوار المسجد بيوتاً باللبن سقفت أيضاً بجذوع النخل والجريد، ثم أقام النبي لعائشة بيتاً يشرع بابه إلى المسجد، وفتح في المسجد ثلاثة أبواب، بابا في المؤخرة، وبابا يقال له باب الرحمة، والباب الثالث كان يدخل منه رسول الله بإزاء باب عائشة[6].

أما القبلة، فقد ترك للمسلمين، في أول عهد الرسالة، حرية اختيارها تنفيذاً لقوله تعالى: ﴿ولله المشرق والمغرب، فأينما تولوا فثم وجه الله إن الله واسع عليم﴾[7]، ثم حددها الرسول ﷺ باتجاه بيت المقدس، ظل المسلمون يولون

---

(١) ابن سعد: ج١، ص٢٤٠.

(٢) السمهوري: ج١، ص٢٦٩.

(٣) المصدر نفسه والجزء ص٣٦٦.

(٤) ابن كثير: ج٢، ص٣١٤.

(٥) السمهوري: ج١، ص٢٣٩.

(٦) المصدر نفسه، ج١، ص٢٣٢.

(٧) البقرة: ١١٥.

وجوههم في الصلاة شطر بيت المقدس لمدة سبعة عشر شهراً بعد الهجرة، ثم حولت القبلة إلى الكعبة قبل وقعة بدر بشهرين عندما نزلت الآية: ﴿قد نرى تقلب وجهك في السماء فلنولينك قبلة ترضاها، فول وجهك شطر المسجد الحرام﴾(١).

ومن الطبيعي، بعد تغيير اتجاه القبلة أن يجري تعديل في مكان ظلة المسجد فأقيمت ظلة جديدة إلى الجانب القبلي من المسجد، فأصبح للمسجد ظلتان وسمي المسجد لذلك بمسجد القبلتين(٢).

ومن التدابير التي اتخذها الرسول ﷺ لمعالجة موضوع الفقراء من المسلمين الذين هاجروا معه إلى المدينة أن أذن للذين لا منازل ولا عشائر لهم أن يناموا في المسجد فاتخذوا من الظلة الشمالية القديمة بيتاً لهم، لذلك أطلق على هؤلاء اسم "أهل الصُفة" لأنهم كانوا يأوون إلى صُفة المسجد أي المكان المسقوف منه(٣).

ولم يكن للمسجد في أول بنائه منبر، بل كان للنبي ﷺ يخطب وهو مستند إلى جذع عند مصلاه في الحائط القبلي، ثم عهد النبي ﷺ إلى كلاب مولى العباس بن عبد المطلب بعمل منبر من درجتين أو ثلاث درجات ومقعد، فوضعه في موضع القبلة(٤).

---

(١) البقرة: ١٤٤.

(٢) السمهوري: ج١، ص٢٥٨.

(٣) ابن سعد: ج١، ص٢٥٥.

(٤) المصدر السابق: ج١، ص٢٥١.

## أهمية المسجد ووظائفه:

للمسجد دور هام في تاريخ الدولة العربية الإسلامية الأولى، ففضلاً عن كونه مركزاً لصلاة المسلمين، كانت له وظائف أخرى، فهو مقر السلطة الدينية والمدنية الجديدة المتمثلة في شخص الرسول الكريم محمد بن عبد الله ﷺ. وقد تحول المسجد تلقائياً إلى مركز استقطاب على غرار ما كان سائداً في السابق فيما يسمى بـ "دار الندوة"، وقد يكون استحداث النبي للمسجد ليكون موقع تجتمع فيه المراجع للتشاور والحوار بديلاً عن فكرة دار الندوة، ففيه كان الرسول ﷺ يتشاور مع الصحابة في شؤون جماعة المسلمين وعلاقاتهم بقريش وما يتصل بذلك من سلم أو حرب، كما أنه كان موضع اجتماع عامة المسلمين، أو بمثابة المؤتمر العام لهم، ينعقد مرة في الأسبوع في الأقل، وفي المسجد كانت تستقبل الوفود العربية إلى المدينة وتبرم معهم المواثيق والعهود(1)، كما كانت تعقد فيه الألوية للقادة عند خروجهم للحرب أو للمهام الاستطلاعية.

وكان المسجد فضلاً عن وظائفه الدينية والسياسية والإدارية تلك، مركزاً علمياً وثقافياً، فكان الصحابة يتولون تعليم القرآن والسنة لمن أراد أن يتعلمها من العرب الوافدين على المدينة، كما كان مكاناً لتعليم القراءة والكتابة، ثم أصبحت المساجد، بعد ذلك، مراكز علمية يحصل فيها طلاب العلم على علومهم.

وفي مسجد الرسول في المدينة ظهرت نواة مؤسسة القضاء وتبلورت معالمها قبل أن تستقل ويتخذ لها دار خاصة في العصر الراشدي، فقد كان يتم التقاضي بين الناس وتحل النزاعات بينهم في المسجد، وكان الرسول ﷺ، في

---

(1) ابن سعد: ج1، ص294، 314، 316، 321.

أول الأمر، يقوم بهذه المهمة، ثم أخذ يعهد بها إلى بعض الصحابة المعروفين بتفقههم في الدين والشريعة.

من خلال هذا العرض السريع لمهام المسجد الأول في الإسلام، والذي أسس بعد الهجرة مباشرة تتضح لنا أهميته ودوره في قيام دولة الإسلام الأولى، باعتباره نواه تشكل تلك الدولة، من خلال ما كان يمثله من سلطة دينية ودنيوية، وما ظهر فيه من مؤسسات ونظم قيادية أولية، تفرعت منه، وتطورت فيما بعد، لتشكل النظم الأساسية للدولة العربية الإسلامية.

من جانب آخر، أصبح المسجد في العصر الإسلامي أساساً للتنظيم العمراني في المدينة الإسلامية، والمركز الديني الذي تلتف حوله بقية مراكزها العمرانية، والقلب الذي ينبض بالحياة، وهو الذي يطبع المدينة الإسلامية المنشأة أو المفتوحة بطابعها الإسلامي، باعتباره المركز الديني والثقافي والاجتماعي للمدينة.

## ثانياً: تنظيم الجبهة الداخلية

بعد أن استقر رسول الله ﷺ في يثرب "المدينة المنورة" بدأ بوضع المخططات والتصاميم للمجتمع الجديد الذي ينشده. وتنظيم الجبهة الداخلية وتوحيدها وذلك بهدف الاستعداد لمواجهة المخاطر الخارجية المتوقعة، ومن ثم الانطلاق بالدعوة الإسلامية وإلى آفاق جديدة، ومن الإجراءات التي أقدم عليها

رسول الله في هذا المجال:

**١- تصفية الخلافات بين الأوس والخزرج:**

كان بين الأوس والخزرج نزاعات كثيرة،وحروب طويلة، كان آخرها "يوم بُعاث"، الذي وقع قبل هجرة الرسول بأعوام قليلة، والذي أقام نوعا من التوازن القلق بين القبيلتين، لأن كلا من الفريقين كان قد أجهدته الحرب. وقد بدأ الرسول ﷺ بإصلاح ما بين الأوس والخزرج، فأزال من نفوسهم ما كان قد رسب فيها من الخصومات القديمة، وهي خصومات كان يذكيها اليهود، فعمل على توحيدهم برباط العقيدة الجديدة "الإسلام" ثم وحد بينهما تحت أسم " الأنصار"، أي الذين نصروا وأيدوا الدعوة الإسلامية.

**٢- المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار:**

بعد توحيد الرسول ﷺ لجبهة الأنصار، أتجه لتوحيد جماعة المهاجرين، فآخى بين المهاجرين بعضهم مع بعض، ثم ربط بين المهاجرين والأنصار برابطة المؤاخاة، وهو ما كان يعرف في الجاهلية باسم "الحلف"[١].

ويبدو أن المشكلة الأولى التي واجهت الرسول ﷺ وعليه أن يجد لها حلاً هي مشكلة إقتصادية، نبعت من واقع أصحابه المهاجرين الذين تركوا أموالهم في مكة وغادروها مملقين ولا أمل لهم في العودة أو استرداد ما يملكون. من جانب آخر أراد الرسول أن يقيم رابطة متينة من الأخوة بين المجموعتين

---

(١) ابن سعد: ج١، ص١٣٨.

الأساسيتين اللتين تشكلان المجتمع الجديد في المدينة (المهاجرين والأنصار).
لهذا كله وتوكيدا لوحدة المجتمع الإسلامي الأول أوجد الرسول نظام المؤاخاة.

قام نظام المؤاخاة على "الحق والمؤاساة" والتوارث بعد الموت دون الأرحام[1]. وفي المرحلة الأولى التي كانت المؤاخاة فيها بين المهاجرين أنفسهم، قال رسول الله ﷺ لأتباعهِ: "تآخوا في الله أخوين أخوين"[2]. ثم أخذ بيد علي بن أبي طالب، فقال: "هذا أخي"، وأصبح النبي أخاً لعلي، وتآخى حمزة بن عبد المطلب عم النبي مع زيد بن حارثة مولى الرسول، وتآخى جعفر بن أبي طالب وهو غائب في الحبشة مع معاذ بن جبل، وتآخى أبو بكر مع خارجة بن زهير الأنصاري، وعمر بن الخطاب مع عثمان بن مالك الأنصاري، وأبو عبيدة بن الجراح مع سعد بن معاذ، وقيل مع أبي طلحة، وعبد الرحمن بن عوف مع سعد بن الربيع الخزرجي الأنصاري، والزبير بن العوام مع سلامة بن سلامة بن وقش الأنصاري، وعثمان بن عفان مع أوس بن ثابت بن المنذر، وطلحة بن عبيد الله مع كعب بن مالك الأنصاري.

ويذكر أن المتآخين من المهاجرين والأنصار، كانوا تسعين رجلاً، خمسة وأربعين من المهاجرين، وخمسة وأربعين من الأنصار، على ما تزعم إحدى الروايات، أو مئة على رواية أخرى، خمسون من المهاجرين وخمسون من الأنصار، وقد جرت عملية المؤاخاة قبل غزوة بدر، وكان مبررها أن الرسول ﷺ أراد أن يذهب عن المسلمين المهاجرين وحشة الغربة ويؤنسهم من مفارقة

---

(١) ابن سعد: ج١، ص٢٣٨.

(٢) ابن هشام: ق١، ص٥٠٥. ابن كثير: ج٢، ص٣٢٥.

الأهل والعشيرة ويشد أزر بعضهم ببعض، فضلاً عن الناحيـــة الإقتصاديـــة، أو بشكل أوضح الوضع المادي المتردي الذي كان يعاني منـــه العـــدد الأكـــبر مـــن المهاجرين المسلمين الذين تركوا ديارهم وجاؤوا إلى ديار غريبة ليس لهم فيـــها ما يساعد على سد حاجاتهم وحاجات أسرهم، فجاء نظام المؤاخـــاة حـــلا مؤقتـــاً لأزمتهم[1] وبهذا الإجراء أيضاً توثقت وحدة المسلمين في المدينة، بعـــد أن كـــان المسلمون فيها قبائل مختلفة فيما بينها، وأصبح المسلمون المتؤاخون يشكلون قـــوة خطيرة يحسب لها أعداء الإسلام كل حساب.

### ٣- الصحيفة أو "دستور الدولة الجديدة":

بعد أن استقر الرسول ﷺ في المدينة المنورة بدأ بوضع الأســـس التـــي تنظم الحياة العامة فيها. وذلك من أجل تحديد المهام والمسؤوليات بيـــن مختلـــف الفرقاء الذين يتكون منهم مجتمع دولة المدينة، وتوضيح الأمور والضوابط التـــي تنظم علاقاتهم وتحكمها، ولاسيما وأنهم من أصول مختلفة وينتمون إلى أكثر مـــن ديانة، ولا تجمعهم وحدة المصالح أو المواقف. فقد كتب الرســـول ﷺ، وقبـــل أن ينصرم العام الأول من الهجرة، كتابا حدد فيه صـــورة العلاقـــات فـــي المجتمـــع المدني الجديد بفئاته المختلفة وما يترتب على كل فئة مـــن حقـــوق وواجبـــات، وعرف الكتاب بالصحيفة، وتعد هذه الصحيفة وثيقة هامة لأنها تصـــور لنـــا مـــا كانت عليه أحوال المجتمع اليثربي وإلى أي حد تغيرت نظمه القديمـــة والأســـس التي قام عليها قانون تنظيم الحياة الاجتماعية في المدينة وقد حفظ لنا ابن هشـــام نص كتاب أورده ابن إسحاق في سيرته ونسبهُ إلى الرسول ﷺ. وهـــذا الكتـــاب،

---

(١) ابن هشام: ق١، ص٥٠٥.

على ما يقوله ابن إسحق، وهو نص الكتاب الذي كتبه الرسول، وحدد فيه صور العلاقات في المجتمع المدني الجديد بفئاته المختلفة وما يترتب من حقوق وواجبات على كل فئة من هذه الفئات.

**نص الكتاب "الصحيفة":**

"بسم الله الرحمن الرحيم، هذا كتاب من محمد النبي ﷺ نبي المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب، ومن تبعهم، فلحق بهم، وجاهد معهم. إنهم أمة واحدة من دون الناس، المهاجرون من قريش على ربعتهم[1] يتعاقلون[2] بينهم وهم يفسدون عانيها[3] بالمعروف والقسط بين المؤمنين، وبنو ساعدة على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة منهم تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين، وبنو جشم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة منهم تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين، وبنو النجار على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، كل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين، وبنو عمرو بن عوف على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين، وبنو النبيت على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين. وبنو الأوس على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين

---

(١) ربعتهم: أي الحالة التي كانوا عليها عند ظهور الإسلام.

(٢) يتعاقلون: يدفعون ديات القتلى المتوجبة عليهم.

(٣) العاني: أي الأسير.

المؤمنين، وأن لا يتركون مفرحاً[1] بينهم أن يعطوه بالمعروف في فداء أو عقل، وأن لا يخالف مؤمن مولى مؤمن دونه، وإن المؤمنين المتقين على من بغي منهم أو ابتغى دسيعة[2] ظلم، أو إثم، أو عدوان، أو فساد بين المؤمنين، وإن أيديهم عليه جميعاً، ولو كان ولد أحدهم، ولا يقتل مؤمن مؤمناً في كافر، ولا ينصر كافراً على مؤمن، وإن ذمة الله واحدة، يجبر عليهم أدناهم، وإن المؤمنين بعضهم مولى بعض دون الناس. وإنه من تبعنا من يهود فإن له النصر والأسوة، غير مظلومين ولا متناصرين عليهم، وإن سلم المؤمنين واحدة، لا يسالم مؤمن دون مؤمن في قتال في سبيل الله، إلا على سواء وعدل بينهم، وإن كل غازية غَزت معنا يعقب بعضها بعضا، وإن المؤمنين يبيئ[3] بعضهم على بعض بما نال دماءهم في سبيل الله، وإن المؤمنين المتقين على أحسن هدى وأقومه، وإنه لا يجير مشرك مالاً لقريش ولا نفساً، ولا يحول دونه على مؤمن، وإنه من اعتبط[4] مؤمناً قتلاً عن بينة، فإنه قود به[5] إلا أن يرضي ولي المقتول، وإن المؤمنين عليه كافة، ولا يحل لهم إلا قيام عليه، وإنه لا يحل لمؤمن أقر بما في هذه الصحيفة، وآمن بالله واليوم الآخر، أن ينصر محدثاً[6] ولا يأويه، وإنه من نصره أو آواه فإن عليه لعنة الله وغضبه يوم القيامة، ولا يؤخذ منه صرف ولا

---

(١) مفرحاً: المثقل بالدين والكثير العيال.

(٢) الدسيعة: العطية.

(٣) يبيئ: يكف ويمنع.

(٤) أي قتله بدون سبب يستدعي ذلك.

(٥) قود به: أي يقتل القاتل المتعمد تعويضاً عما جنت يداه.

(٦) المحدث: هو المبدع، الذي يقوم بعمل بغير الأوضاع القائمة في المجتمع.

عدل، وإنكم مهما اختلفتم فيه من شيء، فإن مرده إلى الله عزوجل، وإلى محمد ﷺ، وإن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين، وإن يهود بني عوف أمة مع المؤمنين، لليهود دينهم وللمسلمين دينهم، مواليهم وأنفسهم، إلا من ظلم وأثم، فإنه لا يوتغ[1] إلا نفسه وأهل بيته، وإن ليهود بني النجار مثل ما ليهود بني عوف، وإن ليهود بن الحارث مثل ما ليهود بني عوف، وإن ليهود بني الأوس مثل ما ليهود بني عوف، وإن ليهود بني ثعلبة مثل ما ليهود بني عوف، إلا من ظلم وأثم، فإنه لا يوتغ إلا نفسه وأهل بيته، وإن جفنة بطن من ثعلبة كأنفسهم، وإن لبني الشطيبة مثل ما ليهود بني عوف، وإن البر دون الإثم، وإن موالي ثعلبة كأنفسهم، وإن بطانة[2] يهود كأنفسهم، وإنه لا يخرج منهم أحد، إلا بإذن محمد ﷺ، وإنه لا يحجز على ثأر جرح، وإنه من فتك فبنفسه فتك، وأهل بيته، إلا من ظلم، وإن الله على أبرّ هذا[3]، وإن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة، وإن بينهم النصح والنصيحة، والبر دون الإثم، وإنه لم يأثم أمرؤ بحليفه، وإن النصر للمظلوم، وإن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين، وإن يثرب حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة، وإن الجار كالنفس غير مضار ولا آثم، وإنه لا تجار حرمة إلا بإذن أهلها، وإنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حَدَث أو اشتجار يخاف فساده، فإن مرده إلى الله عزوجل، وإلى محمد رسول الله ﷺ، وإن الله على أتقى ما في هذه الصحيفة وأبره، وأنه لا تجار قرش ولا من نصرها، وإن بينهم النصر على من دهم يثرب وإذا دُعوا إلى صلح يصالحونه

---

(١) يهلك:

(٢) بطانة: أي ذويهم وأهل بيتهم.

(٣) أي يرضى به.

ويلبسونه، فإنهم يصالحونه ويلبسونه، وإنهم إذا دعوا إلى مثل ذلك فإنه لهم على المؤمنين، إلا من حارب في الدين، على كل أناس حصتهم من جانبهم التي قبلهم، وإن يهود الأوس مواليهم وأنفسهم،على مثل ما لأهل هذه الصحيفة، مع البر المحض من أهل هذه الصحيفة، وإن البر دون الإثم، لا يكسب كاسب إلا على نفسه، وإن الله على أصدق ما في هذه الصحيفة وأبره، وإنه لا يحول هذا الكتاب دون ظالم وآثم، وإنه من خرج آمن، ومن قعد آمن بالمدينة إلا من ظلم أو أثم، وإن الله جار لمن بر واتقى، ومحمد رسول الله ﷺ(١).

هذه الوثيقة المهمة وردت عند ابن اسحاق فقط، ونقلها عنه ابن هشام، وهي في نصوصها تتوافق تماماً مع ما كان قائماً من الظروف والأحداث في المراحل الأولى لتأسيس الدولة الإسلامية (دولة المدينة)، وكانت بحق دستور المرحلة من خلال ما نصت عليه من أمور أهمها:

١- اعتبرت الصحيفة جميع المسلمين على اختلاف فئاتهم وانتمائهم القبلي أمة واحدة، فتجاهلت نظام القبيلة الذي يمزق وحدة العرب، وألغت الحدود والفواصل القبلية، فاندمج المسلمون على اختلاف قبائلهم في هذه الجماعة التي ترتبط فيما بينها برابطة الإسلام، فهم متضامنون تضامناً تاماً فيما بينهم، وهم ينصرون المظلوم على الظالم، ويرعون حقوق القرابة والصحبة والجوار. ولم يقتصر مفهوم الأمة، وفق هذه الصحيفة، على الجماعة الإسلامية فقط، وإنما شمل الفئات التي لم تعتنق الإسلام بعد، وإن كانت درجة الانتماء إلى الأمة الإسلامية تتفاوت بين طبقات

---

(١) ابن هشام: ق١، ص٥٠١-٥٠٤.

سكان المدينة، إذ كان المهاجرون والأنصار يحتلون المرتبة الأولى في سلم هذا الانتماء.

٢- فتحت الصحيفة المجال أمام اليهود الراغبين في الدخول في الإسلام، في الوقت نفسه الذي أقرت لهم بحرية الاعتقاد.

٣- أكدت الصحيفة على وجود سلطة دينية ومدنية عليا تهيمن على شؤون المدينة فجعلت الحق في فض النزاعات والخصومات بين أهل المدينة يعود لله ورسوله ﷺ.

٤- حددت الصحيفة لأهل المدينة جميعاً بفئاتهم المختلفة موقفاً واضحاً من قريش لا يجوز لأي أحد مخالفته، وأن الدفاع عن المدينة مسؤولية جماعية، وكذلك الحرب في حال نشوبها وعلى كل فئة أن تتحمل النفقة التي تترتب عليها.

٥- حسمت الصحيفة موضوع الأخذ بالثأر بأسلوب يتجنب تجدد الحروب الداخلية، فأقرت بأنه إذا اعتدى شخص ما على مؤمن بالقتل وجب على أهل الجاني أن يسلموا القاتل لولي القتيل، أي لصاحب الثأر لكي يقتاد منه بالعدل، وبذلك تحول مبدأ الأخذ بالثأر إلى مبدأ القصاص والأخذ بالعقاب. ويعد انتقال حق التأديب والجزاء من الفرد إلى الجماعة تطوراً حاسماً في تاريخ المجتمع العربي، على طريق قيام سلطة الدولة،من جانب آخر وفر للمجتمع حالة من الاستقرار والهدوء الذي لابد منه في مرحلة البناء والتقدم.

٦- أبقت الصحيفة على تنظيمات القبائل، وعلى رابطة الولاء وما يترتب عليها من حقوق الموالاة، فلم تجز لأحد أن يخالف مولى دون مولاه،

بالإضافة إلى ذلك أباحت الصحيفة حق إجارة أي شخص غريب، ما عدا قريش ومن ناصرها.

٧- أوضحت هذه الوثيقة شدة الصلة بين المؤمن والمؤمن، هذه الصلة التي تبلغ حد التفضيل على القرابة بالتوالد، كما قررت أهمية الولاء والجوار وأعطت المولى والجار نفس الحقوق والواجبات التي أعطتها لأبناء القبائل العربية أو اليهودية.

**٤- الموقف من اليهود:**

حرص الرسول ﷺ على استمالة يهود المدينة منذ أن قدم إليها مهاجراً، فوادعهم بوسائل متعددة، كان أهمها ما ورد في بنود الصحيفة التي منحتهم حرية الاعتقاد وإقامة الشعائر الدينية، فضلاً عن مساواتهم سياسياً بالمسلمين واعتبارهم جزءاً من الأمة الإسلامية. ولكن اليهود، وعلى الرغم من كل هذه المواقف الودية تجاههم، كانوا يكتمون استياءهم من قيام دولة عربية إسلامية في المدينة يرأسها النبي محمد بن عبد الله ﷺ، فتظاهروا، أول الأمر، بالترحيب والرضا عن وجود النبي محمد ﷺ بينهم انتظاراً لما ستؤول إليه الأوضاع الجديدة في يثرب، وكانوا يطمعون إلى تحقيق مصالحهم الذاتية، وتعزيز مكانة مدينتهم التجارية والسياسية على حساب مكة، التي غادرها عدد مهم من كبار التجار والوجوه الاجتماعية فيها، وإلى استرجاع سيادتهم القديمة في يثرب، واعتقدوا أن وجود النبي ﷺ قريباً منهم أفضل من ظهوره وتعاظم شأنه في مكان آخر بعيد يصعب عليهم التآمر عليه، والقضاء على دعوته، لكل هذه الأسباب، لم يلبث اليهود أن نقضوا عهدهم مع النبي وأفصحوا عن عدائهم له، وبدؤوا يحاربونه

بسلاح الدسائس والمؤامرات والنفاق عندما تأكد لهم نجاحه وثبات خطواتــه فــي بناء الجبهة الداخلية الرصينة لدولته الوليدة.

تنبه الرسول ﷺ إلى ما يخفيه اليهود من مشاعر العداء والكراهيـــة لــه ولدينه، والتي كانوا يسعون إلى إخفائها تحت قناع زائف من التظـــاهر بالرضــا والتأييد فأخذ يحذرهم ويراقب تصرفاتهم التي اتخذت أسلوباً خفياً في بث بـــذور الخصام والشقاق بين المسلمين، فأخذوا يثيرون الفتن والخصومات القديمــة بيــن الأوس والخزرج بقصد إشعال نار الحرب في المدينة وإفشال المشروع السياســي والحضاري الذي جاءت به الرسالة المحمدية، وكان الأوس والخزرج يصطدمون صداماً مسلحاً لولا تدارك النبي ﷺ للأمر[1]. ثم اشـــتدت حملتــهم فــي عــداء المسلمين بعد انتصار المسلمين الساحق في معركـــة بـــدر، وبـــدؤوا يظـــهرون نواياهم، فبغوا وقطعوا ما كان بينهم وبين النبي من عهود ومواثيق، فما كان مــن النبي ﷺ إلا أن يتخذ منهم موقفاً واضحاً، صارماً ومحدداً، حفاظاً على مصلحـــة الإسلام والمسلمين وعلى كيان الدولة الوليدة.

**أ- أمر بني قينقاع:**

كان بنو قينقاع أول يهود نقضوا ما بينهم وبين الرسول،مستغلين حادثـــة السوق التي خلاصتها: أن امرأة عربية من الأنصار قدمت بحلي لها إلى ســـوق بني قينقاع في المدينة لتبيعها، وجلست في دكان صائغ منهم وعنده بعـــض مــن صحبه فطلبوا منها أن تكشف عن وجهها فأبت، فجاء يهودي مــن بنـــي قينقـــاع وجلس من ورائها، وعمد إلى طرف ثوبها فعقده إلى ظهرها، فلما قامت انكشـــفت

---

(١) المصدر السابق: ق١، ص٥٥٠-٥٥٦.

سوءتها، فضحكوا منها، فصاحت، فوثب رجل من المسلمين على اليهودي فقلتـه، فوثب اليهود على المسلم وقتلوه.

وهكذا تجمعت عناصر مسلمة لمؤازرة صاحبها كما تجمعـت عنـاصر يهودية للغرض نفسه، ولما علم الرسول ﷺ بالأمر جمع بني قينقاع في سـوقهم وحذرهم من مغبة عملهم ومعاداتهم للمسلمين، ولكنهم ردوا عليه رداً خشناً وقـالوا له: "لا يغرنك أنك لقيت قوماً لا علم لهم بالحرب –إشارة إلـى انتصـاره فـي معركة بدر– فأصبت منهم فرصة، إنا والله لئن حاربناك لتعلمن أنا نحن النـاس" وإزاء هذا التحدي والإصرار على معاداة المسلمين وجد الرسول نفسه مضطـراً إلى حربهم فحاصرهم في ديارهم خمس عشرة ليلة استسـلموا بعدهـا لحكمـه، فأجلاهم عن المدينة بعد وساطة عبد الله بن أبي سلول وتركوها إلـى أذرعـات بالشام وأقاموا فيها[١]، فتخلصت المدينة من شرور هذه الفئة ونواياهـا المؤذيـة لوحدة المجتمع واستقراره، وكان ذلك في مطلع الشهر العشرين من الهجرة[٢].

**ب– أمر بني النضير:**

خرج الرسول ﷺ إلى يهود بني النضير يستعينهم في أمر دية قتيلين مـن بني عامر قتلا بطريق الخطأ من قبل أحد المسلمين بعد أن كـان بينـهما وبيـن الرسول عقد وأمان، وكان بين بني النضير وبني عامر عقد وحلـف، فوجدهـم الرسول في ناديهم، فجلس إليهم وكلمهم في أمر القتيليـن وديتـهما وضـرورة اشتراكهم في دفع هذه الديات، فقالوا له نفعل يا أبا القاسم ما أحببت، وطلبوا إليـه

---

(١) المصدر السابق: ق٢، ص٤٧–٥٠.

(٢) الواقدي: ج١، ص١٧٦.

البقاء حتى يصنعوا له طعاماً لضيافته، ثم خلا بعضهم إلى بعض يتآمرون على شخصه الكريم، واتفقوا على أن يطرحوا عليه حجارة من فوق البيت الذي هو تحته، جالس مسنداً ظهره إليه ليقتلوه، وقام رجل منهم وهيأ صخرة ليرميها على الرسول، وشعر الرسول بما يدبر له، فقام وعاد هو وصحبه إلى المدينة قبل أن يستطيع بنو النضير تنفيذ مؤامرتهم، وجمع أصحابه بعد عودته وحدثهم بما همّ به بنو النضير وأمرهم بالتهيؤ لحربهم والسير إليهم، وهكذا خرج الرسول إلى ديار بني النضير ومعه عدد كبير من أصحابه، وبادر إلى محاصرتهم، واشتبك المسلمون معهم في قتال عنيف، وطال حصار المسلمين لهم عشرين يوماً فضاقوا بهذا الحصار وقلت موارد عيشهم واشتد بهم الخوف، لذا طلبوا الصلح مع النبي، فصالحهم على الخروج من المدينة لكل ثلاثة منهم بعير بما حمل سوى الحلقة (أي الدروع) والآلة ولرسول الله أرضهم ونخلهم والحلقة وسائر السلاح، ثم رحلوا في شهر ربيع الأول من بداية العام الرابع للهجرة، فحملوا على ٦٠٠ بعير، وفيهم يقول الله تعالى: ﴿هو الذي أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر ما ظننتم أن يخرجوا، وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا وقذف في قلوبهم الرعب يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين، فاعتبروا يا أولي الأبصار، ولولا أن كتب الله عليهم الجلاء لعذبهم في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب النار﴾[1]، وقد رحل فريق منهم إلى خيبر، بينما توجه الآخرون إلى بلاد الشام، وبيّن القرآن الكريم في سورة الحشر حكم الأموال التي

---

(١) سورة الحشر: ٢-٣.

تركوها وسماها فيئاً وجعل أمرها لرسول الله أن يضعها حيث أمره (لله وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل)[١].

**جـ- أمر بني قريظة:**

بعد طرد المسلمين ليهود بني قينقاع وبني النضير، بسبب خيانتهم وغدرهم ونقضهم للمواثيق والعهود، خرج جماعة منهم إلى قريش بمكة يحرضونهم على مهاجمة المدينة، ولم يتردد هؤلاء اليهود عندما سألهم أهل قريش باعتبارهم أهل كتاب عن أي الدينيين أفضل: دين الوثنية أم الإسلام، أن فضلوا الوثنية على التوحيد ناقضين بذلك التفضيل تعاليم التوراة، فقالوا لهم: "بل دينكم خير من دينه، وأنتم أهدى منه وممن اتبعه"[٢].

فلما أقنعوا قريشاً مضوا إلى غطفان وبني مرة وفزارة وأشجع وسليم وبني سعد وبني أسد يحرضونهم على الأخذ بثأرهم، وإعلانها حرباً شاملة على رسول الله محمد ﷺ. ونجحت خطتهم في تحشيد عدد مهم من القبائل لمهاجمة المسلمين، وقد استعد المسلمون لمواجهة هذا العدوان الذي لم يسبق له مثيل من حيث الحجم وعدد القبائل المتحالفة ضدهم، وانتهى يوم الأحزاب أو الخندق بفشل ذريع لليهود وأنصارهم من عرب قريش وغطفان ومرة وأشجع من خارج المدينة، ويهود بني قريظة من داخلها، وكان بنو قريظة موادعين للرسول ﷺ، ولكنهم لم يلبثوا أن غدروا به ونقضوا ما كان بينهم وبينه من عهد، إذ رأوا في غزوة الأحزاب فرصة مواتية لهم للانتقام من المسلمين الذين أخرجوا أشقاء لهم

---

(١) أنظر: الواقدي: ج١، ص٣٦٣-٣٦٤.

(٢) ابن هشام: ق١، ص٥٦٢.

من المدينة، فأحاط الأعداء بالمسلمين من كل جهة نتيجة خيانة وغدر بني قريظة. فلما رحلت الأحزاب وانصرفوا عن محاصرتهم المدينة، كان أول عمل قام به الرسول ﷺ أن أمر صحبه بالتوجه إلى بني قريضة ليقاصهم على نقضهم عهدهم معه وخيانتهم له، وقد حاصرهم خمساً وعشرين ليلة حتى جهدهم الحصار ودب الرعب في قلوبهم، فقبلوا أن يحكم فيهم سعد بن معاذ حليفهم القديم، فحكم فيهم بحكم رسول الله، وهو أن تقتل الرجال وتقسم الأموال وأن تسبى النساء والذرية[1]، فأمر بهم الرسول فسيقوا جماعات إلى موضع سوق المدينة، حيث حفرت لهم خنادق ثم أمر الرسول فضربت أعناقهم في تلك الخنادق[2]، وبلغ عدد القتلى منهم ما بين ٦٠٠ و ٧٠٠ يهودي، وقتلت من نسائهم امرأة واحدة هي بنانة امرأة الحكم القرضي وكانت قد ألقت حجراً للرحى على خلاد بن سويد بن الصامت فقتلته[3].

وهكذا تطهرت المدينة من كل العناصر اليهودية التي كانت تسكنها، وضمن الرسول ﷺ بهذا الإجراء سلامة الجبهة الداخلية وخلاصها من عدو خطير كان يهدد وحدتها باستمرار.

### د- أمر اليهود في أطراف الحجاز:

لم ينته الخطر اليهودي على دولة المدينة تماماً طالما أن هناك فئات منهم تستوطن مدن خيبر وفدك وتيماء ووادي القرى تنتظر أية فرصة للتآمر عليها،

---

(١) البلاذري: فتوح ص٢٣.

(٢) ابن هشام، ق٢، ص٢٤١.

(٣) المصدر نفسه، والقسم، ص٢٤٢.

لذلك ظل الرسول ﷺ ينظر إلى هذه التجمعات بعين الحذر والتحسب وينتظر الفرصة المناسبة لإخضاعها لسلطة الدولة العربية الإسلامية وسيادتها، لذلك قرر بعد أن عقد صلح الحديبية مع قريش أن يبدأ بإخضاع خيبر وما جاورها، فتوجه إليها بحملة عسكرية في مطلع سنة ٧ للهجرة وقاتل أهلها واستولى على جميع حصونهم عنوة، ويذكر ابن اسحق[١] أن الرسول ﷺ حين رجع من الحديبية أقام في المدينة بعضاً من الوقت، ثم خرج في نهاية شهر المحرم من عام ٧ للهجرة إلى خيبر حتى حل بساحتها ليلاً، وفي صبيحة اليوم التالي نازل حصونها حصناً حصناً وصار يفتحها حتى جاء على آخرها، وصالحه أهلها من اليهود على أن يبقوا فيها ويدفعوا نصف ما يخرج من أرضهم، وإذا شاء المسلمون أخرجوهم.

وبعد أن انتهى من فتح خيبر ذهب إلى وادي القرى فحاصر أهلها عدة ليال، ولما بلغ أهل فدك ما حل بأهل خيبر أبلغوا الرسول أنهم يصالحونه على ما صالحه عليه أهل خيبر فقبل الرسول ذلك منهم. أما يهود تيماء فقد بادروا بمصالحة النبي بعد أن بلغتهم أخبار المدن السابقة ودخوله في منطق وادي القرى[٢].

بهذه الخطوة اتسع السلطان السياسي للدولة العربية الإسلامية إلى مناطق خارج حدود المدينة، وأصبح يخضع لسيادتها قوم من غير المسلمين عرفوا بـ (أهل الذمة) كما أصبح، ولأول مرة أيضاً، للدولة موارد اقتصادية من خارج أملاك المدينة، فضلاً عما وفرته تلك الاتفاقيات من مزايا وضمانات أمنية لحدود الدولة الشمالية.

---

(١) المصدر نفسه، ق٢، ص٣٢٨ وما بعدها.

(٢) أنظر: البلاذري، ص٢٨ وما بعدها.

# المبحث الثاني

# بدء الأعمال العسكرية

## أولاً: تشريع الجهاد

اتسمت المرحلة المكية من حياة الرسول ﷺ بالسياسة السلمية، ولم ينشب بينه وبين قريش أي نزاع مسلح يتعدى الخصومات الفردية أو التضارب بين الأفراد، وكان منهجه سلمياً يعتمد المجادلة ومحاولة الإقناع بالمثل والدليل والبرهان، وعلى الرغم من كل العَنت والأذى الذي تحمله هو واتباعه من لدن قريش، والذي بلغ في بعض المراحل حداً لا يطاق.

كان الرسول ﷺ لا يأذن بقتال ويحض صحبه على الصبر والتحمل، وحين تمادت قريش في عدائها، وإيذائها للمسلمين، أمر من لا يطيق صبراً من أصحابه أن يهاجر بنفسه وأسرته إلى الحبشة، وظل هو يواجه الأذى ويصدع بكلمة الحق في وجه الشرك والعدوان، وعندما تهيأت الظروف، بعد لقاء الوفد اليثربي، وهو ما عرف ببيعة العقبة الثانية، أمر صحبه بالتوجه إلى يثرب، وما لبث هو أن غادر مكة بعد أن اطمأن إلى سلامة جماعته الذين سبقوه في الهجرة إلى عاصمة الإسلام القادمة، وحتى ذلك الحين لم يدخل المسلمون في أي نزاع مسلح مع أعدائهم.

وبعد أن هاجر الرسول ﷺ إلى يثرب ظل يؤثر الوسائل السلمية في الدعوة إلى الإسلام، ويرفض سياسة العنف والقوة، ولكن الظروف الجديدة التي

قامت فيها دولته في المدينة وما يحيق بها من مخاطر جسيمة تمثلت في نوايا قريش في القضاء عليها، وكذلك في مؤامرات اليهود في داخل المدينة أدت إلى تشريع الجهاد والأمر بالقتال.

ففي السنة الثانية للهجرة، حين استقر بالمسلمين الأمر في المدينة، وقوت شوكتهم فرض الله عليهم الجهاد، والآيات القرآنية الآتية توضح في ثناياها الأسباب الموجبة لهذا التشريع.

- ﴿أُذِنَ للذين يقاتلون بأنهم ظُلموا، وإن الله على نصرهم لقدير، الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله﴾[1]، وواضح أن المبرر الذي تقدمه هذه الآية للإذن بالقتال هو الظلم الذي لحق بالمسلمين في مكة حيث أخرجوا من ديارهم لا لسبب سوى عبادتهم الله.
- ﴿وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله، فإن انتهوا فإن الله بما يعملون بصير﴾[2]، وفي هذه الآية بيان بأن الله شرع القتال حتى لا يفتن مؤمن عن دينه.
- ﴿كُتب عليكم القتال وهو كره لكم وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم، وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم، والله يعلم وأنتم لا تعلمون يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل قتال فيه كبير وصد عن سبيل الله وكفر به والمسجد الحرام وإخراج أهله منه أكبر عند الله، والفتنة أكبر من القتل ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا ومن يرتد عن دينه فيمت

---

(١) الحج: ٣٩-٤٠.

(٢) الأنفال: ٣٩.

وهو كافر فأولئك حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾[1]، وهذه الآية تقرر أن القتال والجهاد واجب على المسلم أحبه أم كرهه وهي عامة ولا تقدم سبباً محدداً.

- ﴿وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين، واقتلوهم حيث ثقفتموهم وأخرجوهم من حيث أخرجوكم والفتنة أشد من القتل﴾[2].

- ﴿... وإن نكثوا أيمانهم من بعد عهدهم وطعنوا في دينكم فقاتلوا أئمة الكفر إنهم لا إيمان لهم لعلهم ينتهون﴾[3]، وفي هذه الآية من سورة التوبة مبرر آخر للقتال هو نكث العهد.

- ﴿وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة﴾[4]، وفي هذه الآية إشارة صريحة إلى أن أمر القتال لم يعد قاصراً على قريش ومن يتحالف معها من اليهود وغيرهم، وإنما هو موجه لكل قبائل الجزيرة العربية التي تعادي الرسول وتحاربه، ووجوب قتال كل من يقاتل المسلمين كائناً من كان.

ومن خلال نصوص تلك الآيات نستطيع أن نوجز أهم أسباب نزول الإذن بالقتال وتشريع الجهاد:

أ- الدفاع عن النفس عندما يتعرض المسلمون إلى الاعتداء.

---

(١) البقرة: ٢١٦-٢١٧.

(٢) البقرة: ١٩٠ – ١٩١.

(٣) التوبة: ١٢.

(٤) التوبة: ٣٦.

ب- الدفاع عن الدين والعقيدة الإسلامية وردع كل من يقف في سبيل تلك الدعوة السامية، وحتى لا يفتن مسلم عن دينه، أو حتى لا يخشى من يريد الدخول في الإسلام من الدخول فيه خوفاً من أذى أو مطارده.

جـ- الدفاع عن الدين والعقيدة الإسلامية وردع كل من يقف في سبيل تلك الدعوة السامية، وحتى لا يفتن مسلم عن دينه، أو حتى لا يخشى من يريد الدخول في الإسلام من الدخول فيه خوفاً من أذى أو مطاردة.

من جانب آخر، وعد الله المسلمين المقاتلين بالجنة، وضاعف ثواب المجاهدين في سبيله، وقال تعالى: (فليقاتل في سبيل الله الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة ومن يقاتل في سبيل الله فيقتل أو يغلب فسوف نؤتيه أجراً عظيما)[١]، كما يتجلى ذلك الوعد في قوله تعالى: ﴿الذين آمنوا وجاهدوا في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم أعظم درجة عند الله وأولئك هم الفائزون، يبشرهم ربهم برحمة منه ورضوان وجنات لهم فيها نعيم مقيم خالدين فيها أبداً إن الله عنده أجر عظيم﴾[٢]، وفي قوله تعالى: ﴿إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعداً عليه حقاً في التوراة والإنجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم﴾[٣].

لقد كان السلم هو الأساس في الإسلام، وما اللجوء إلى القتال إلا ظرف يقسر عليه المسلم وهو لا يحبه ولا يريده، قال تعالى: ﴿لا ينهاكم الله عن الذين

---

(١) النساء: ٧٤.

(٢) التوبة: ٢٠-٢٢.

(٣) التوبة: ١١١.

يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين، إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون﴾[1].

كان لتشريع الجهاد آثار هامة بالنسبة لدولة الرسول في المدينة، فقد اكتسبت به صفة سياسية، وأعطت مجتمع المدينة صفة الدولة التي أصبح لها الحق في الدفاع عن نفسها ضد القوى والأطراف المعادية لها من داخل المدينة أو خارجها.

## ثانياً: الغزوات والسرايا

### ١- السرايا الاستطلاعية (السلمية):

اتسمت الأعمال الحربية الأولى للرسول ﷺ بأنها كانت منسجمة مع الأهداف التي من أجلها تنزل تشريع الجهاد، إذ من المعروف أن سراياه الأولى كانت سرايا استطلاعية الهدف منها رصد تحركات قريش، لأن الرسول ﷺ بعد أن هاجر إلى يثرب، وأسس فيها نواة الدولة العربية الإسلامية، كان على يقين من أن قريش لن تتركه يتقوى ليتغلب عليها، أو على الأقل ليتحرش بقوافلها التجارية القادمة والمغادرة من وإلى بلاد الشام، ولأن القرشيين، كما بينت الآيات التي ذكرنا، اغتصبوا من المسلمين أموالهم وطردوهم من ديارهم فحق للمسلمين أن يقاتلوهم لاسترداد أموالهم وثأراً لكرامتهم وأن يعتبرونهم العدو الأول لهم،

---

(١) الممتحنة: ٨-٩.

وقد نصت الصحيفة على تحريم إجارة قريش ونصرتها وتحريم إجارة مال لقريش أو نفس، وبناء على كل ذلك أخذ الرسول ﷺ يبعث السرايا لتعترض قوافل قريش في طريقها إلى الشام أو عند عودتها إلى مكة، دون أن تشتبك معها في قتال أو تستولي على حمولتها، وقد ساعد على ذلك، الوضع الجغرافي للمنطقة، إذ كان لابد للقافلة المتجهة من مكة إلى الشام وبالعكس أن تمر بين المدينة وشاطئ البحر.

كان سبب تسيير النبي لهذه السرايا مضايقة قريش وتلقف وجمع ما أمكن من أخبارها وتحركاتها، كما كان الهدف منها استعراض قوة المسلمين وموادعة القبائل النازلة في طريق القوافل والتحالف معا[1].

**ومن أهم تلك السرايا:**

### - سرية حمزة بن عبد المطلب:

بعد سبعة أشهر من الهجرة النبوية الشريفة، وفي شهر رمضان عقد النبي، ولأول مرة منذ الهجرة، اللواء لحمزة بن عبد المطلب وبعثه إلى سيف البحر في ثلاثين راكباً جميعهم من المهاجرين ليس فيهم واحداً من الأنصار، ليتعرض عير قريش فلقي أبا جهل بن هشام بذلك الساحل في قافلة لقريش قادمة من الشام في ٣٠٠ راكب من أهل مكة، فاصطف الفريقان للقتال، ولكن مجدي بن عمر الجهني حجز بينهما موادعاً، فانصرف الفريقان كل إلى جهته[2].

---

(١) الواقدي: ج١، ص٩-١٩.

(٢) المصدر نفسه والجزء ص٦.

- **سرية عبيدة بن الحارث بن المطلب:**

يذكر ابن اسحق أن أول سرايا رسول الله وبعوثه بعد مقامه في المدينة كانت سرية عبيدة بن الحارث بن المطلب في ستين أو ثمانين راكباً من المهاجرين فقط، وأن لواء عبيدة هو أول لواء عقده النبي ﷺ في الإسلام لأحد من المسلمين، ثم يفسر هذا الاختلاف في أول قائد لسرايا المسلمين بأن بعث حمزة بن عبد المطلب وبعث عبيدة كانا معاً في الوقت نفسه فشبّه ذلك على الناس[1].

خرج عبيدة بن الحارث في ستين راكباً، فالتقى بأبي سفيان بن حرب على ماء يقال له أحياء من بطن رابغ، وكان أبو سفيان يؤمئذ في مائتين من أهل مكة فلم يحدث قتال بينهما سوى أن سعد بن أبي وقاص رمى يومئذ بسهم، وتفرق الطرفان[2].

- **سرية سعد بن أبي وقاص:**

في مطلع الشهر التاسع من الهجرة سير النبي ﷺ سرية بإمرة سعد بن أبي وقاص إلى منطقة الخرار، ومع سعد عشرين من المهاجرين على أقدامهم، فكانوا يكمنون في أثناء النهار ويسيرون في الليل حتى وصلوا منطقة الخرار ثم عادوا إلى المدينة بعد أن مرت بهم عبر قريش بدون صدام[3].

---

(١) ابن هشام: ق١، ص٥٩١.

(٢) المصدر نفسه والقسم، ص٥٩١. الواقدي: ج١، ص١٠.

(٣) الواقدي: ج١، ص١١.

- **غزوة الأبواء:**

تعد غزوة الأبواء أول غزوة غزاها النبي بنفسه، ففي شهر صفر على رأس ١١ شهراً من الهجرة، خرج النبي ﷺ بنفسه حتى بلغ قرية الأبواء القريبة من المدينة، بهدف اعتراض عير قريش، وقد استعمل على المدينة مدة غيابه سعد بن عبادة، وقد وادع خلال خروجه في هذه الغزوة بني ضمرة من كنانة على ألا يكثروا عليه ولا يعينوا عليه أحداً[١] وعاد الرسول من هذه الغزوة بدون قتال.

- **غزوة بواط:**

في شهر ربيع الأول بعد مضي العام الأول من الهجرة غزا الرسول ﷺ بواط في ٢٠٠ من المهاجرين بهدف قطع الطريق على عير قريش، ثم رجع منها بدون حرب[٢].

- **غزوة بدر الأولى (غزوة سفوان):**

جاءت هذه الغزوة بعد غزوة بواط بأيام، فقد خرج النبي ﷺ في طلب كرز بن جابر الفهري الذي كان قد أغار على المدينة ولكنه لم يدركه[٣].

- **غزوة ذي العشيرة:**

في شهر جمادى الأولى بعد مضي ١٦ شهراً من الهجرة، غزا النبي ﷺ ذي العشيرة، وهي منطقة من ناحية ينبع بين مكة والمدينة، وكان هدف هذه

---

(١) المصدر نفسه، ج١، ص١١-١٢.

(٢) ابن هشام: ق١، ص٥٩٨. ابن سعد: ج٢، ص٨.

(٣) الواقدي: ج١، ص١٢.

الغزوة اعتراض قوافل قريش وهي في طريقها إلى الشام، فخرج يومئذ في ١٥٠ وقيل ٢٠٠ من أصحابه، فأقام في الشعيرة جمادى الأولى كله وليالي من جمادى الآخرة ووادع بعض القبائل هناك ثم عاد إلى المدينة دون أي صدام أو قتال[1].

**- سرية نخلة:**

تعد هذه السرية ذات أهمية في تاريخ الإسلام الأول، لأنها نقطة تحول في السياسة الإسلامية بعد تشريع الجهاد، وهي التي مهدت لغزوة بدر الكبرى وفتحت للمسلمين باب الجهاد المسلح ضد أعدائهم وقصة هذه السرية كما توردها المصادر على الشكل الآتي:

في رجب بعد مضي سبعة عشر شهراً من الهجرة، أمر النبي ﷺ عبد الله ابن جحش بن رئاب الأسدي ومعه ثمانية من المهاجرين بالتوجه إلى موضع يطلق عليه اسم بطن نخلة يقع بين مكة والطائف، وكان الهدف الرئيس من هذه السرية استطلاع تحركات العدو والوقوف على أخبار قريش، بدليل أن عدد أفرادها كان قليلاً، من جانب آخر حرص النبي على ألا يبوح بوجهة السرية حتى لقائدها، واكتفى بأن أعطاه صحيفة من أديم كتبت فيها الوصايا والتعليمات، وأمره بألا يفتح كتابه إلا إذا سار ليلتين في الطريق المؤدية إلى النجدية، وأذن له أن يقرأ ما جاء في الكتاب بعد ذلك على أن يمضي لما أمره به ولا يستكره من أصحابه أحد، فانطلق عبد الله مع رفاقه حتى إذا وصل إلى بئر ابن ضميرة نشر كتاب النبي فقرأ فيه ما يأتي: "إذا نظرت في كتابي فامض حتى تنزل نخلة بين مكة والطائف فترصد بها قريشا وتعلم لنا من أخبارهم" ثم أنه خير رجاله بين

---

(١) الواقدي: ج١، ص١٢.

المضي معه أو العودة، فمضوا معه ولم يتخلف منهم أحد فلما وصلت السرية إلى معدن يقال له بحران تخلف سعد بن أبي وقاص وعتبة بن غزوان في طلب بعير لهما، ومضى عبد الله بن جحش في بقية أصحابه حتى نزل نخلة، فمرت به عير لقريش تحمل زبيباً وأدماً وتجارة من تجارة قريش فيها عمرو بن الحضرمي وعثمان بن عبد الله بن المغيرة، وأخوه نوفل، والحكم بن كيسان مولى هشام بن المغيرة، فلما رآهم أصحاب العير هابوهم وأنكروا أمرهم، فخرج إليهم عكاشة بن محصن من أصحاب عبد الله بن جحش وقد حلق رأسه حتى يوهم التجار القرشيين بأنهم جاؤوا معتمرين، ونجح عكاشة في خطته، واطمأن تجار قريش، فقيدوا ركابهم وسرحوها، وعندئذ تشاور عبد الله بن جحش وأصحابه فيما يفعلونه بهم، وكانوا بين أمرين، إما أن يقاتلوهم في آخر يوم من لشهر الحرام فينتهكوا بذلك الشهر الحرام وإما أن يتركوهم الليلة فيتيحوا لهم بذلك فرصة دخولهم الحرم والامتناع به منهم، ورجحت كفة أصحاب الرأي الأول، فشجعوا رفاقهم وأجمعوا على قتل من قدروا عليه منهم، فرمى واقد بن عبد الله التميمي عمرو بن الحضرمي بسهم فقتله، واستأسر عثمان بن عبد الله والحكم بن كيسان، أما نوفل بن عبد الله فنجح في الإفلات منهم، وعادت السرية بالعير والأسيرين إلى المدينة، فلما قدموا إلى رسول الله ﷺ أنكر عليهم ما فعلوه وقال لهم: "ما أمرتكم بقتال في الشهر الحرام" ثم وقّف العير والأسيرين وأبى أن يأخذ من ذلك شيئاً، فأسقط في أيدي ابن جحش ورفاقه، وتحملوا الكثير من اللوم والتعنيف من بقية المسلمين فيما اقترفوه من فعل لم يحض برضا رسول الله، ويخالف توجيهاته.

من الطبيعي أن تنتهز قريش هذه الحادثة لتحشيد الرأي العام ضد المسلمين واظهارهم بمظهر المعتدي الذي لا يحترم مقدسات العرب وحرماتهم، كما استغل اليهود والمنافقون هذه الفرصة لإشعال نار الحرب ضد المسلمين وتأليب العرب ضدهم، هذا فضلا عن حالة الجدل وعدم الرضا التي سادت بين جماعة المسلمين في المدينة وإنكارهم لما صنعته سرية عبد الله بن جحش، وكانت الأمور أن تتخذ مسارا خطيرا؛ سواء على الصعيد الداخلي لدولة المدينة الناشئة، أم على صعيد علاقاتها الخارجية مع القبائل والأطراف العربية الأخرى، ولم تحسم تلك الفتنة إلا بعد أن أنزل الله تعالى على نبيه: ﴿يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل قتال فيه كبير وصد عن سبيل الله وكفر به والمسجد الحرام وإخراج أهله منه أكبر عند الله والفتنة أكبر من القتل ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا ومن يرتد منكم عن دينه فيمت وهو كافر فأولئك حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾(1)، أي أنه إن كنتم قتلتم في الشهر الحرام فقد صدوكم عن سبيل الله مع كفرهم به وعن المسجد الحرام في الحج والعمرة، وغير ذلك الكثير من المعاصي والآثام التي ارتكبوها بحقكم فضلا عن استمرارهم في الكفر وإصرارهم عليه.

ترك نزول هذه الآية ارتياحا كبيرا لدى المسلمين وأزاح الخوف من قلوبهم وأتاح للرسول ﷺ التعامل مع الحدث وفق سياقه الطبيعي، فقبض العير والأسيرين، ووزع الأموال كغنائم وقبل فدية الأسيرين من قريش وحسمت

---

(1) سورة البقرة: ٢١٧

الأزمة على الصعيد الداخلي على الأقل[1]، إلا أنها فتحت الباب واسعاً أمام مرحلة جديدة من العلاقة مع قريش، هي المرحلة الحربية.

### ٣- الغزوات والمعارك الحربية:

تعد (سرية نخلة) بداية صفحة جديدة في تاريخ العلاقات مع المسلمين والمشركين، أو لنقل كان حداً فاصلاً بين سياستين أو مرحلتين، المرحلة السلمية التي حرص رسول الله على اعتمادها في السنوات الأولى من الدعوة، والمرحلة الحربية، التي أصبحت ضرورة لابد منها لمواجهة التحديات الجدية والكبيرة لدولة الإسلام، فقد أيقن الرسول ﷺ أن دولته الناشئة سوف لن يكتب لها الاستمرار والتطور دون قوة عسكرية جهادية، رادعة لكل من يعاديها أو يحاول تقويضها، وأن دخول قريش في الإسلام بالطرق السلمية فقط أصبح غير ممكن إن لم يكن مستحيلاً.

**- غزو بدر:**

بعد تشريع الجهاد ونزع الإذن بالقتال قرر الرسول الكريم أن يقف من قريش موقفاً صارماً لا تهاون فيه، وأن يحاربهم بكل السبل وأهمها عدم السماح لتجارتهم بالمرور إلى الشام عبر أراضي المدينة، لذلك أخذ يترصد القوافل القرشية القادمة من بلاد الشام وحين تأكد من انصراف إحدى القوافل من الشام وفيها أموال كثيرة إلى مكة، ندب أصحابه لاعتراض العير،وبعث العيون لتحسس خبرها، وذلك قبل أن يخرج من المدينة بعشر ليال، ثم خرج في الثامن من شهر رمضان/ ٢ هجرية في ٣١٩ رجلاً، وقيل ٣٠٥ رجال، منهم ٧٤ من المهاجرين

---

(١) البقرة: ٢١٧.

رمضان/ ٢ هجرية في ٣١٩ رجلاً، وقيل ٣٠٥ رجال، منهم ٧٤ من المهاجرين وسائرهم من الأنصار[1]، وتخلف من المسلمين عدد كبير لم يلمهم النبي لأن المسلمين لم يكن هدفهم من هذا الخروج القتال وإنما خرجوا لاعتراض العير فقط. وقد اشترك الأنصار في هذه الغزوة أول مرة ولم يشتركوا في السرايا السابقة لعدة أسباب أهمها:

أ- أنهم اشترطوا على أنفسهم يوم بيعة العقبة الثانية أن يحموا النبي ﷺ ما دام في المدينة، ولم يشترطوا على أنفسهم أن يقاتلوا معه خارج حدود مدينتهم.

ب- إن موقفهم الاجتماعي والسياسي يختلف كثيراً عن موقف المهاجرين، ذلك أن المهاجرين أخرجوا من ديارهم رغما عنهم، بعد أن تحملوا الأذى والاضطهاد من قبل أهل مكة، فهم إذن في حالة حرب ويحق لهم قتالهم في أي وقت.

جـ- التزم الأنصار وتعهدوا بنصرة النبي ﷺ إذا دهمه بالمدينة خطر من عدوه[2].

أما في هذه المرحلة، (قبيل غزوة بدر) فقد كان الوضع مختلفاً بالنسبة للأنصار خاصة، ولعموم المسلمين عامة، فقد ذكروا أن سعد بن معاذ كان قد خرج معتمرا قبل بدر، فنزل على أميه بن خلف، فأتاه أبو جهل، وعنفه على إنزاله عنده، فهدده سعد بن معاذ باعتراض عيرهم عندما تمر بأراضي المدينة، لذلك لم يتردد سعد بن معاذ في الخروج مع النبي ﷺ إلى بدر عندما أراد أن

---

(١) ابن سعد: ج٢، ص١٢.

(٢) انظر: الواقدي، ج١، ص١٠-١١. ابن هشام: ق١، ص٦١٥. السيد عبد العزيز سالم: ص٣٧٧.

يستوثق من الأنصار ويتبين موقفهم، وأعلن موقفه صراحة بقوله: "... لقد آمنا بك وصدقناك وشهدنا أن ما جئت به هو الحق، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة، فامض يا رسول الله لما أردت، فنحن معك، فوالذي بعثك بالحق، لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك، ما تخلف منا رجل واحد، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غداً، وإنا لصُبُر في الحرب، صُدُق في اللقاء، لعل الله يريك منا ما تقر به عينك فسر بنا على بركة الله"(١).

نعود إلى موضوع القافلة القرشية المغادرة إلى بلاد الشام، فقد وصلت الأخبار إلى قائدها أبي سفيان بأن المسلمين قد استعدوا للتعرض للعير، فحذر عند ذلك وأرسل رجلاً إلى مكة يستنفر قريش إلى أموالها ويخبرهم أن محمداً قد تعرض لها في أصحابه، وفي الوقت نفسه، سلك أبو سفيان طريقاً غير مألوفة توصله إلى مكة من جهة الساحل وترك بدراً على يساره، فأنقذ بذلك القافلة من سيطرة المسلمين عليها.

وصل رسول أبي سفيان إلى مكة فاستنفرت قريش وتجهزت للمسير بأشرافها وشبابها لقتال المسلمين، وكان عددهم يقارب ألف رجل، فنزلت بالعدوة القصوى من الوادي، وعندما وصل أبو سفيان إلى مكة حاول إقناع رجالات قرش بعدم جدوى الخروج لمحاربة المسلمين طالما أن العير والرجال والأموال قد وصلت سالمة ولم يعد هناك مبرر للحرب، إلا أن المتشددين منهم وعلى

---

(١) الواقدي: ج١، ص٤٩.

رأسهم "أبو جهل" رفضوا التراجع عن قرارهم قبل أن يردوا "بدراً" حتى تسمع بهم العرب فيهابونهم على حد قولهم(١).

أشرنا إلى أن خروج المسلمين إلى بدر لم يكن هدفه القتال، وإنما للتعرض إلى عير أبي سفيان،وبينما هم في طريقهم أتاهم الخبر بمسير قريش ليمنعوا عيرهم، فاستشار الرسول ﷺ أصحابه فأيدوه جميعاً ووافقوه على القتال، على الرغم من أن موقفهم كان حرجاً، فهم قد خرجوا في قلة عدد ليواجهوا حامية أقل منهم عدداً، على غير استعداد للقتال، ففوجئوا بخروج قريش لهم، بل مكة كلها، ولم يكن هناك مناص من القتال، إذ لا يمكن للنبي وأصحابه أن يعودوا إلى المدينة ناكصين لسبب مهم، هو أنهم سيضعون أنفسهم في تلك الحالة، موضع الضعيف المهزوم، أمام أهل يثرب، فيطمعون فيهم يهودها ومنافقيها، فضلاً عن طمع قريش فيهم، وقد يؤدي ذلك إلى الإطاحة بهيبة الدولة الإسلامية ويجعلها هدفاً لعدوان المتربصين بها من الداخل والخارج، لذلك وقف المسلمون جميعاً صفا واحداً، وأجمعوا على خوض المعركة مهما كانت النتائج، فاطمأنت نفس رسول الله ﷺ لهذه المعنويات العالية والإيمان العميق، وبعد مشاورة أهل الرأي والخبرة من أصحابه أنزل المسلمين منزلاً أقرب إلى مياه بدر، بحيث يضمنون لأنفسهم السيطرة على مياهها والتحكم فيها وحرمان قريش منها.

بدأ الرسول بتنظيم قوته القتالية المتواضعة العدد، وحدد مواضعها، قبل أن تنزل قريش فاستقبل جهة المغرب بحيث جعل الشمس خلق المسلمين، أما قريش فاستقبلوا الشمس، فنزل رسول الله بالعدوة الشمالية، بينما نزل المشركون

---

(١) ابن هشام: ق١، ص٦١٨-٦١٩.

بالعدوة القبلية، ثم دعا رسول الله ﷺ ربه، فنزل عليه جبريل بـــهذه الآيـــة: ﴿إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم إني ممدكم بألف من الملائكة مردفين﴾[1]، وكان مع المسلمين ثلاثة ألوية، لواء المهاجرين يحمله مصعب بن عمير، ولـــواء الخزرج مع الحباب بن المنذر، ولواء الأوس مع سعد بن معاذ، وكان مع قريـــش أيضا ثلاثة ألوية، ثم خطب النبي في أصحابه ليرغبهم في الأجر ويحثـــهم علـــى القتال، فقال: "أما بعد، فإني أحثكم على ما حثكم الله عليه، وأنهاكم عما نـــهاكم الله عنه، فإن الله عظيم شأنه، يأمر بالحق، ويحب الصدق، ويعطي على الخير أهلـــه، على منازلهم عنده، به يذكرون وبه يتفاضلون، وإنكم قد أصبحتـــم بمـــنزل مـــن منازل الحق، لا يقبل الله فيه من أحد إلا ما ابتغى به وجهـــه، وإن الصـــبر فـــي مواطن البأس مما يفرج الله به الهم، وينجي به من الغم، وتدركون به النجـــاة فـــي الآخرة فيكم نبي الله يحذركم ويأمركم، فاستحيوا اليوم أن يطلع الله عزوجل علـــى شيء من أمركم يمقتكم عليه، فـــإن الله يقـــول: ﴿لمقت الله أكبر من مقتكم أنفسكم﴾[2]، انظروا إلى الذي أمركم به كتابه، وأراكم من آياته، وأعزكم بعد ذلة، فاستمسكوا به يرضى ربكم عنكم، وأبلوا ربكم في هـــذه المواطـــن أمـــرا، تستوجبوا الذي وعدكم به من رحمته ومغفرته، فإن وعده حق، وقولـــه صـــدق، وعقابه شديد، وإنما أنا وأنتم بالله الحي القيوم، إليه ألجأنا ظهورنا، وبه اعتصمنـــا، وعليه توكلنا، وإليه المصير، يغفر الله لي وللمسلمين[3].

---

(١) الأنفال: ٩.

(٢) غافر: ١٠

(٣) انظر: الواقدي: ج١، ص٥٩. ابن هشام: ق١، ص٦٢٣، ابن كثير: ج٢، ص٤٠٧.

ابن كثير: ج٢، ص٤٠٧.

بدأت أحداث المعركة عندما اندفع الأسود بن عبد الأسد المخزومي من معسكر المشركين، وكان شرساً سيئ الخلق، فتحدى المسلمين وهاجمهم، فخرج إليه حمزة بن عبد المطلب وتبارز معه فقتله، بعد ذلك نزل ثلاثة من أشراف قريش هم: عتبة بن ربيعة، وأخوه شيبة وابنه الوليد، ودعوا المسلمين إلى المبارزة، فتقدم إليهم: عبيدة بن الحارث وحمزة بن عبد المطلب وعلي بن أبي طالب، وبدأت المبارزة وانتهت بمقتل شيبة والوليد، أما عتبة فقد أصيب بجرح، ولم يستطع عبيدة أن يجهز عليه لإصابته هو الآخر بجرح، فكّر حمزة وعلي على عتبة فقتلاه، ثم حملا عبيدة الجريح إلى معسكر المسلمين.

أصيب المشركون بالذعر لهذه الخسارة، وبادروا بالهجوم على معسكر المسلمين، وقد صمد المسلمون بقوة الإيمان وثقتهم برسول الله وبأنفسهم، فانهزم المشركون هزيمة نكراء، وفروا من أرض المعركة، والمسلمون يقتلون ويأسرون، وانتهت المعركة بهزيمة ساحقة لقريش وقتل من أشرافها وساداتها سبعون رجلاً، وأسر منهم سبعون رجلاً أيضاً.

عاد النبي ﷺ إلى المدينة ومعه الأسرى والغنائم، وقبل أن يصل إلى المدينة سير رجلين إليها للبشارة بالنصر المبين، وأخذوا يمرون على دور الأنصار داراً داراً، وأكثر الناس لا يصدقون الخبر، وأخذ اليهود والمنافقون يشيعون أخباراً عن هزيمة المسلمين، ولكن الرسول ﷺ وصحبه وصلوا المدينة مزهوين بالنصر فخرست الأفواه المغرضة، وقدِم الناس يهنئون الرسول ﷺ بفتح الله ونصره.

كانت نتائج معركة بدر باهرة بالنسبة لوضع الرسول في المدينة، فقد قوي مركزه فيها وأخذ المشككون في مقدرته يشعرون أن دعواتهم تنهار بعدما

قدمه النصر في بدر من برهان على هذه المقدرة، وقد دخل في الإسلام بعدها كثير من المشركين، ومن نتائجها أيضاً أنها أضعفت شوكة اليهود والمنافقين وقللت من كبريائهم وشغبهم.

أما أهم النتائج المادية لنصر بدر فهي انتعاش حال المسلمين المادي، بما أفاءه الله عليهم من غنائم، بعد بؤس وفقر شديدين داما ما يقرب العامين، فلم يعد من حاجة لنظام المؤاخاة ولم يعد هناك من لا يجد ما يسد رمقه، فألغيت المؤاخاة وعاد التوارث بالقرابة وفرج الله كرب المسلمين[1].

**- غزوات ما بعد "بدر":**

أدرك الرسول ﷺ أن علاقاته مع قريش قد دخلت مرحلة جديدة بعد معركة بدر، وأن الحرب هي السمة التي ستطبع تلك العلاقة، لأن المكيين سوف لن يتنازلوا عن محاولاتهم في استرداد مركزهم وهيبتهم التي نكسها المسلمون، فضلا عن عدم سكوتهم عن استمرار تهديد الرسول لأمن وسلامة الطريق الذي تسلكه قوافلهم، وما يترتب على ذلك من تهديد جدي لاقتصادهم ولمكانة مدينتهم التجارية والدينية، لذلك قام الرسول ﷺ بسلسلة من الأعمال الحربية بعد بدر وقبل أحد، هدفها التمهيد للمواجهة الحاسمة القادمة مع قريش ومن أهم هذه الأعمال:

**- غزوة بني سليم:**

وقعت بعد سبعة أيام من غزوة بدر، لم يحدث فيها قتال بسبب هرب رجال بني سليم وغطفان تركهم إبلهم قبيل وصول المسلمين، فاستاق الرسول

---

(١) الواقدي: ج١، ص١١٤ وما بعدها، ابن هشام ق١، ص٦٤٤ وما بعدها.

الإبل وعاد بعد إقامة قصيرة في تلك المنطقة المسماة "الكدر" التي كانت قد تجمع فيها بنو سليم لمهاجمة المدينة.

### - غزوة السويق:

كانت رداً على غارة قام بها أبو سفيان ومعه مجموعة من القرشيين على أطراف المدينة وقيامهم بقتل اثنين من المسلمين وحرقهم لبيوتهم، وذلك ثأراً لخسارة قريش في بدر، ولما علم الرسول بالأمر جمع أصحابه وخرجوا في أثر أبي سفيان إلا أنه عجل بالهرب وعاد المسلمون إلى المدينة.

### - غزوة ذي أمر:

لما رجع الرسول من غزوة السويق أقام بالمدينة بضعة أيام ثم غزا نجداً يريد غطفان، وبقي في نجد مدة تقارب الشهر دون أن يلقى كيداً وعاد بعدها إلى المدينة(١).

### - غزوة أحد:

عز على قريش أن تهزم ويقتل سادتها، فكانت الهزيمة شغلها الشاغل خلال السنة التي انقضت، وقد أمضت هذه السنة بعد هزيمتها في بدر، في الاستعداد للأخذ بالثأر وبذلت في هذا السبيل كل جهدها، كما خصصت أموال القافلة التي حاول المسلمون اعتراضها وهي قادمة من الشام والتي كانت السبب في وقعة بدر للإنفاق على هذه الاستعدادات، واستغلت قريش ما كانت تشعر به القبائل المجاورة للمدينة من ضيق بسبب ما تعرضت له تجارتها من بوار في كل سرية إسلامية تعترض عير مكة، فأخذت تتصل بهذه القبائل لتستفزها على

---

(١) ابن هشام: القسم الثاني، ص٤٣ وما بعدها.

المسلمين، وتمكنت خلال عام كامل من إعداد جيش كبير يتكون من ثلاثـــة آلاف كلهم من سادة مكة ومواليها وأحابيشها من بني كنانة وغيرهم، وأنضـــاف إليـــهم نحو مائة من ثقيف، ولما أتمت قريش استعداداتها خرجت بحلفائها تقصد المدينـــة وذلك في شهر شوال من السنة الثالثة للهجرة، وكان يقودها أبو سفيان بن حـــرب، فنزلت بقرب جبل أحد على حافة الوادي المواجه للمدينة.

بلغت أنباء خروج قريش النبي الكريم ﷺ فخرج في ألف من أصحابــــه، ونزل الشعب من جبل أحد في عروة الوادي وجعل ظهره إلى جبل أحد.

ابتدأت المعركة بهجوم شنه جيش المسلمين على كتائب قريش وحلفائـــها، فاختلت صفوفهم، وولوا منهزمين، فتبعهم المسلمين وأخذوا يجمعون ما يجدوه في طريقهم من غنائم، ولما رأى الرماة الرسول وأصحابه قـــد اخـــترقوا صفـــوف المشركين وتوغلوا في عسكرهم، تركـــوا أماكنـــهم وســـارعوا لجمـــع الغنـــائم، وانتهزت قريش وحلفائهم الفرصة فجمعوا صفوفهم وانتقلوا مـــن الهزيمـــة إلـــى الهجوم وحاصروا المسمين من جميع الجهات.

أما خالد بن الوليد فقد لاحظ ترك رماة المسلمين أماكنهم وجلو الجبل مـــن المدافعين عن مؤخرة المسلمين، فأتاهم من الخلف وأعمل الرماح في ظـــهورهم، فانتفضت صفوف المسلمين، وصاروا بين قتيل وجريح ومهزوم[1]، ولم يثبت مـــع الرسول ﷺ سوى أربعة عشرة رجلاً، وقد أصيب الرسول إثـــر هـــذه الفوضـــى فتكسرت بعض أسنانه، وسرت بين المسلمين إشاعة مفادها أن الرسول الكريم قـــد قتل، فزادت هذه الإشاعة من الفوضى التي عمت صفوفهم وأضعفت من حماسهم

---

(١) الطبري: ج٢، ص٥١٤.

في قتال أعدائهم، واستطاع الرسول والمجموعة التي كانت حوله من المسلمين أن يصلوا إلى سفح أحد، فكان لظهوره سالماً معافى الأثر الكبير في رفع معنويات المسلمين مجدداً، فالتفوا حوله وغسلوا جراحه، واستمروا في مقاومة عدوهم بعد أن كثر فيهم القتل.

أسفرت المعركة عن هزيمة للمسلمين، وقتل منهم فيها ٧٤ رجلاً، أكثرهم من الأنصار، وقد بالغت قريش في إظهار حقدها على المسلمين فمثلت بقتلاهم، جدعت الأنوف وقطعت الآذان، وكان عدد القتلى المشركين ٢٢ رجلاً[1].

وقد تنزل في هذه المعركة ستين آية قرآنية تضمنتها سورة آل عمران، وقد احتوت هذه الآيات عدة محاور منها: تعزية المسلمين فيما أصابهم، وتوبيخهم على ما كان من ضعفهم حين سرت شائعة مقتل الرسول ﷺ، وبيان الأسباب الحقيقة التي أدت إلى انكسارهم، والتنديد بجماعة المنافقين، والثناء على شهداء الموقعة ووعدهم بالجنة.

### - غزوة الخندق (الأحزاب) ٥ هجرية:

أمضت قريش المدة بين معركة أحد ٣هـ وغزوة الخندق (الأحزاب) ٥هـ في تجميع الأنصار والحلفاء والاستعداد لضرب المسلمين ضربة قاصمة، من جانب آخر قام الرسول ﷺ بالعديد من الأعمال والإجراءات التي حاول من خلالها أن يظهر قوته حتى يردع كل من يفكر في الانضمام إلى التحالف القرشي، كما أمضى هذه المدة في تصفية عدد كبير من خصومه في الخارج، ومنع أي تحركات عدائية توجه ضد المدينة، وذلك عن طريق بث العيون

(١) الواقدي: ج١، ص٣٤١ وما بعدها.

والأرصاد حول عاصمته، وكانت مهمة هؤلاء العيون إخبار الرسول ﷺ بكل التحركات المريبة التي يكون هدفها المدينة، وكان حال سماعه بأنباء هذه التحركات يرسل جماعات من أصحابه لردها قبل وصولها أو لتفريق جموعها، وكان الرسول ﷺ يستعد بثقة إلى يوم ستحاول فيه قريش تحقيق ما عجزت عنه في (أحد) وهو القضاء عليه وعلى دينه.

نجحت قريش في تكوين حلف كبير يضم العناصر المعارضة للرسول مثل فزارة وأشجع ومرة وغطفان وبني قريظة، وزحفت إلى المدينة في العام الخامس للهجرة، فأقام الرسول خندقاً حصن به الجانب الشمالي من المدينة، وهو الجانب المفتوح والأضعف من الناحية العسكرية، ولكن قريش وحلفاءها لم يستطيعوا دخول المدينة، فعسكروا خارج الخندق.

نزل القرشيون وحلفاؤهم في شمال المدينة في مكان يقال له مجمع الأسيال، وقد سعى أبو سفيان إلى استمالة يهود بني قريظة الذين ظلوا على حلفهم للرسول، ونجح في مسعاه من خلال انتداب حيي بن أخطب لهذه المهمة وقال له: "إئتِ قومك حتى ينقضوا العهد الذي بينهم وبين محمد" وخرج حيي ونزل على كعب بن أسد سيد بني قريظة وحاول أن يقنعه أن مصلحته ومصلحة قبيلته نقض العهد الذي بينه وبين الرسول والانضمام إلى قريش وحلفائها، وظل يحاوره ويجادله حتى أقنعه بالعدول عن رأيه، وبذلك نقض بنو قريظة حلفهم مع الرسول[1]، ولما علم الرسول بتغير موقف بني قريضة اسند عليه ذلك، وأصبح المسلمون بين عدوين داخلي وخارجي، أما قريش وحلفاؤها فقد هالهم منظر

---

(١) ابن سعد: ج٢، ص٦٧.

الخندق وأخذوا يطوفون حوله دون أن يستطيعوا تجاوزه، وعلى الرغم من أنهم اكتفوا بالحصار إلا أن بعض الفرسان منهم أمثال: عمرو بن عبد ود العامري، وعكرمة بن أبي جهل وهبيرة بن أبي وهب وضرار بن الخطاب، خرجوا على خيلهم وتيمموا مكاناً ضيقاً من الخندق فاقتحموه وجاوزوه، ودعوا إلى القتال والمبارزة، فخرج علي بن أبي طالب ﷺ إلى عمرو بن عبد ود فبارزه وقتله، فخاف الباقوت وخرجوا من حيث دخلوا.

على الرغم من أن الحصار لم يطل أمده فإن آثاره كانت سيئة بالنسبة للمسلمين، ورأى الرسول ﷺ أن يعمد إلى الحيلة لفكه، وتمزيق تحالف الأعداء، لذلك عهد إلى نُعيم بن مسعود الغطفاني بتفريق كلمة الأحزاب وفض تجمعهم، وكان نعيم قد قدم مع قومه من غطفان لحرب المسلمين، ولكن الله هداه إلى الإسلام وجاء سراً إلى الرسول ﷺ في ليلة من الليالي وأعلن إسلامه، وكان نعيم على جانب كبير من الدهاء، فطلب منه النبي أن يخذل عن المسلمين إن أمكنه ذلك وقال له: "إنما أنت فينا رجل واحد، فخذل عنا إن استطعت، فإن الحرب خدعة"(١)، فمضى نعيم إلى بني قريظة وكانت ترطبه بهم صداقة قديمة، فنصحهم بألا يقاتلوا مع قريش وغطفان حتى يأخذوا منهم رهناً، لأن المدينة ليست بلدهم وأن بإمكانهم الرجوع إلى بلدهم متى شاءوا، ويتركونهم بعد ذلك تحت رحمة المسلمين، فأعجبهم رأيه وأخذوا به، ثم نهض نعيم إلى قريش وقال لأبي سفيان: "قد عرفتهم صداقتي لكم، وبلغني أمر لزمني أن أعرفكموه، فاكتموا عني. قالوا: وما هو؟ قال: اعلموا أن اليهود قد ندموا على ما فسخوا من عهد محمد، وقد

---

(١) ابن هشام: ق٢، ص٢٢٩.

أرسلوا إليه أن يأخذوا منكم رهناً يدفعونه إليه، سبعين رجلاً من أشراف قريش وغطفان ليضرب أعناقهم على أن يعيد بني النضير إلى ديارهم في يثرب، وأشار عليهم ألا يعطوا قريظة ما ستطلبه من رهائن، ولما شعر بأن قريشاً اقتنعت بما قاله لها، ذهب إلى غطفان وحدثها بحديث مماثل ونصحها بألا تعطي أي رهينة من رجالاتها[1].

أرسل أبو سفيان وغطفان إلى بني قريظة في ليلة سبت من شوال سنة ٥هـ يطلب منهم أن يخرجوا في الغد للقتال، ومحاربة محمد، فكان جوابهم للوفد القرشي الذي كان على رأسه عكرمة بن أبي جهل، بأن غداً يوم سبت وهم لا يقاتلون فيه ولا يعملون عملاً، وأنهم لن يقاتلوا محمداً حتى يعطون رهائن من قريش وغطفان يكونون عندهم خشية هزيمة القبيلتين إذا كانت الحرب لغير صالحهما، وتركهم وحدهم.

وقد أكد هذا الموقف من يهود قريظة ما كان عند قريش وغطفان ما معلومة مصدرها نعيم، فامتنعوا من إعطائهم الرهائن، من جانب آخر أثبت موقف قريش هذا ما قاله نعيم لبني قريظة، فاقتنع الطرفان برواية نعيم، فأبوا القتال[2]، وفي تلك الليلة هبت عاصفة عاتية على الأحزاب أرغمتهم على العودة من حيث أتوا، ولما سمع الرسول ﷺ برحيل الأحزاب أذن للمسلمين بالعودة إلى منازلهم في المدينة، فعادوا بعد أن دام حصار الخندق مدة تقارب ثلاثين يوماً، واستشهد من المسلمين يوم الخندق ستة أشخاص، وقتل من الأحزاب ثلاثة، وقد

---

(١) المصدر السابق والقسم ص٢٣٠.

(٢) المصدر نفسه والقسم ص٢٣١.

ذكر الله تعالى قصة الأحزاب في سورة سميت باسمهم وهي السورة الثالثة والثلاثون من سورة القرآن الكريم.

لقد كانت سياسة الرسول ﷺ في إدارة هذه المواجهة الخطرة متفوقة على سياسة خصومه، ونجح نجاحاً باهراً في تمزيق جبهة أعدائه التي تفوق قواته بما يزيد على ثلاثة أضعاف، فحفرهِ الخندق، وطلائعهِ التي كانت تزوده بالأخبار وبتحركات العدو، كانا من أهم الأسباب في فشل أعدائه وعدم تحقيق أهدافهم، فضلاً عن الدبلوماسية الناجحة التي اعتمدها، ووحدة الصف الإسلامي وانضباط المسلمين ووقوفهم صفاً واحداً وراء الرسول، كل ذلك كان له الأثر الأكبر في سير المعركة وتقرير نتائجها.

بعد غزوة الخندق، بدا واضحاً لقريش أن جهودها للقضاء على محمد عن طريق عمل عسكري لن يكتب له النجاح، ولاسيما وأن قريش استنفذت كل الوسائل الممكنة وغير الممكنة للقضاء على دولة الرسول بالمدينة، كما استنفذت كل طاقاتها وإمكاناتها الاقتصادية، في محاربته مضحية في ذلك بهيبتها وتجارتها، ولم تعد مشكلة قريش الآن القضاء على محمد، بل غدت مشكلتها الحفاظ على وجودها هي، هذا الوجود الذي أصبح تحت رحمة المسلمين.

وكان رسول الله ﷺ قد عزم على التغلب على مكة سلمياً مستغلاً فرصة ما أصابها، واستعدادها لتقبل الصلح معه حتى يتيسر لها بعد ذلك أن تعاود نشاطها التجاري في أمان، فإذا ما تمكن رسول الله من تحقيق هذا الهدف سهل عليه بعد ذلك ضم بقية قبائل بلاد العرب، التي كانت تترقب نتيجة الصراع بين الإسلام في المدينة والوثنية في مكة لتتخذ قرارها بالانضمام إلى الطرف المنتصر، ولغرض استثمار حالة النصر بعد (الأحزاب) بادر رسول الله ﷺ إلى

تجريد قريش من قوتها فغزا غزوتين بعد (الخندق أو الأحزاب) إحداهما غـــزوة بني لحيان والثانية غزوة بني المصطلق من الأحابيش حلفاء قريش، وذلـــك فـــي العام السادس للهجرة فهزمهم ووقع معهم عهداً، وتزوج الرسول جويريـــة بنـــت الحارث بن أبي ضرار سيد بني المصطلق، فضمن انضمامهم تحت سيادة الدولـــة الإسلامية[1].

## - صلح الحديبية

بعد هزيمة الأحزاب في غزوة الخندق، انتقل الرسول ﷺ فـــي سياســـته الخارجية من مرحلة الدفاع إلى مرحلة التحدي، فبعد أن اطمأن الرسول إلى قوته وتفوقه على أعدائه، غدا ينشد مهاجمة قريش وتحديها فـــي عقـــر دارا تمـــهيداً للقضاء على نفوذها والإطاحة بوثنيتها، لذلك قرر أن يقصد مكة معتمراً في شـــهر ذي القِعدة من العام السادس للهجرة، وكان على يقين أن قريشاً ستمنعه مـــن أداء العمرة، ولكنه كان يسعى من وراء ذلك إلى إظهار قريش بمظهر المعتدي الـــذي يرفض السلام ويصد عن بيت الله من جاء يعظمه، كما كان يسعى أيضـــاً إلـــى الإفصاح عن احترام الإسلام للكعبة والبيت الحرام وتعظيمه للحج والعمرة أمـــام قبائل العرب جميعاً.

رحب المسلمون بدعوة الرسول لهم للخروج معه لقضاء العمرة، فخـــرج بهم جميعهاً وقد بلغ عددهم ما يقارب الألف وأربعمائـــة رجـــل مـــن الأنصـــار والمهاجرين ومن لحقهم من الأعراب، ليس معهم من السلاح إلا الســـيوف فـــي أغمادها، أحرم الرسول ﷺ بالعمرة من "ذي الحُليفة"، (وهو موقع على مقربة مـــن

---

(1) ابن هشام: ق٢، ص٣١٦.

المدينة يحرم به عادة أهل يثرب إذا أرادوا الخروج إلى حج أو عمرة)، وأحرم معه سائر المسلمين، وساقوا الهدي، فلما بلغ قريشا ذلك خرج معظم رجالها لصد رسول الله عن البيت، أو قتاله دون ذلك، وقدموا خالد بن الوليد في خيل إلى كراع الغميم، فلما علم رسول الله ﷺ بذلك سك طريقاً آخر انتهى إلى الحديبية من أسفل مكة، وأمر بالنزول هناك، ثم جرت مفاوضات بين رسول الله ﷺ وبين قريش، كان هدف المكيين منها منع الرسول من أداء العمرة.

انتدب الرسول ﷺ لمهمة مفاوضة قريش عثمان بن عفان، لمكانته بين قريش وقرابته لأبي سفيان رئيسها، وقد طلب رسول الله ﷺ من عثمان أن يقول لقريش: إنا لم نأتي لقتال أحد، وإنما جئنا زواراً لهذا البيت معظمين لحرمته ومعنا الهدي ننحره وننصرف، مضت ثلاثة أيام لم يعد عثمان خلالها وشاع بين المسلمين أنه قتل مع عشرة من المسلمين كان الرسول قد سمح لهم بالتوجه إلى مكة لزيارة أهلهم فيها، فدعا رسول الله ﷺ إلى المبايعة على الموت، وأن لا يفر المسلمون عن القتال وهي بيعة الرضوان التي تمت تحت الشجرة، وعندئذ أدركت قريش أن مناصبة المسلمين العداء سيؤدي إلى سفك المزيد من الدماء، دون جدوى، فأرسلت سهيل بن عمرو في وفد من قريش لمفاوضة النبي ﷺ في الصلح وتم الاتفاق أخيراً بين قريش والنبي على الشروط الآتية[1]:

١- أن تضع الحرب أوزارها بين الفريقين لمدة عشر سنين.

---

(١) انظر: ابن هشام: ق٢، ص٣١٦. ابن سعد: ج٢، ص٩٧، والبلاذري، فتوح البلدان: ج١، ص٤١. البلاذري، فتوح البلدان: ج١، ص٤١.

٢- أن يرجع الرسول وصحبه هذا العام دون أن يؤدوا العمرة، فإذا كان العـام القادم، دخلوا مكة بعد أن تخرج منها قريـش، وليـس معـهم إلا سـلاح المسافر.

٣- من أراد الدخول في عهد قريش فله ذلك ومن أراد الدخول في عهد محمـد من غير قريش جاز له ذلك.

٤- أن يرد الرسول من يأتيه من قريش مسلماً بـدون إذن وليـه، ولا تلـتزم قريش بذلك.

وتذكر المصادر أن المسلمين استاؤوا من هذا الشـرط الأخـير وعظـم عليهم صد قريش لهم عن زيارة بيت الله وعودتهم إلى المدينة دونما أداء العمـرة، ولكن رسول الله ﷺ أعلم أصحابه أن الله سيجعل للمسلمين فرجاً، وأن هذا الصلح يعد نصراً وفتحاً مبيناً.

وهكذا فقد كان صلح الحديبية نصراً لسياسة الرسول بعيدة المدى، علـى الرغم من أنه بدا حين عقده وكأنه يقدم لقريش الكثير من التنازلات التي لا مـبرر لها مما أدى إلى غضب أصحابه وامتعاضهم فامتنعوا عن نحـر هديـهم وحلـق شعورهم أول الأمر، ولكن عادوا بعد ذلك فتابعوا الرسول في فعله، ولعل أهم مـا حققه الرسول بنتيجة هذا الصلح والهدنة التي عقدها مع قريش هو تفرغه لأمـور الدعوة وبث الدين بين القبائل المختلفة، وضم الكثير منها إلى جانبه، وفـي ذلـك تدعيم لموقفه وإضعاف لموقف قريش ومحاصرتها تمهيداً لفتح مكة.

# المبحث الثالث

## مقدمات حركة الفتح العربي الإسلامي

بين صلح الحديبية وفتح مكة سنتان، كان الرسول ﷺ خلالها يخطط ويعمل جاهدا لتنفيذ مشروعه السياسي والحضاري في بناء الدولة العربية الإسلامية، تنفيذا لقوله تعالى: ﴿وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرا ونذيرا ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾[1].

**وقد اتخذت سياسة الرسول في هذا المجال اتجاهين يكمل أحدهما الآخر:**

**الاتجاه الأول عسكري حربي:**

فتذكر المصادر ما لا يقل عن سبع عشرة غزوة وسرية قام بها الرسول أو قادة المسلمين الآخرين خلال المدة بين صلح الحديبية وفتح مكة، وإذا استثنينا من هذه الغزوات، غزوة خيبر، فإن تلك الغزوات يمكن أن نصنفها إلى ثلاث فئات:

**الفئة الأولى:** وتضم عددا من العمليات العسكرية الموجهة ضد قبائل لم يحسم موضوع ولائها للرسول، على الرغم من أنها لم تبد عداءا صريحا ضده.

---

(١) سبأ: ٢٨.

**الفئة الثانية:** فتتضمن الغزوات التي وجهت ضد فروع من هوازن، وعلى الرغم من أن هذه الغزوات لا تعد لها قيمة عسكرية إلا أنها توضح الاتساع الجغرافي الذي امتدت إليه عمليات الرسول العسكرية.

**الفئة الثالثة:** من هذه العمليات، فهي الأهم من حيث التوجهات، فهي موجهة إلى الشمال، وضد مواقع وقبائل على الطريق التجارية إلى بلاد الشام، هذا الطريق الذي يهم الرسول كثيرا، والذي قاد بنفسه أول الغزوات باتجاهه وهي غزوة دومة الجندل، وتتضمن عمليات الفئة الثالثة ثلاث حملات هي سرية كعب بن عمير الغفاري وغزوة مؤتة(١)، وغزوة ذات السلاسل.

**الاتجاه الثاني:**

هو الاتجاه الذي اعتمده الرسول ﷺ في هذه المرحلة هو اصطناع سياسة خارجية ترمي إلى نشر الإسلام في مجالات خارج حدود دولة المدينة وعلى نطاق الجزيرة العربية، بل على نطاق أبعد من ذلك في مداه، فأرسل الرسل إلى الملوك يدعوهم إلى الإسلام، وكتب إليهم كتبا مختومة بخاتمه، فخرج ستة نفر من هؤلاء الرسل في سنة سبع للهجرة وهؤلاء الرسل هم(٢):

١- عمرو بن أمية الضمري، وقد وجهه الرسول إلى النجاشي ملك الحبشة.

٢- دحية بن خليفة الكلبي، بعثه النبي إلى قيصر ملك الروم.

---

(١) وهي أهم تلك الغزوات، وسنخصص لها حديثا مفصلا في موضع آخر من هذا البحث.

(٢) انظر: ابن سعد: ج١، ص٢٥٨، وما بعدها.

٣- عبد الله بن حذافة السهمي، بعثه النبي إلى كسرى ملك بلاد فارس، يدعوه إلى الإسلام، وأرسل معه كتابا، فلما طالع كسرى كتاب النبي مزقه، فبلغ ذلك رسول الله، فقال: "اللهم مزق ملكه".

٤- حاطب بن أبي بلتعة اللخمي، مبعوث النبي ﷺ إلى المقوقس نائب هرقل على مصر في الإسكندرية يدعوه إلى الإسلام.

٥- شجاع بن وهب الأسدي، بعثه رسول الله ﷺ إلى الحارث بن أبي شمر الغساني، أمير الغساسنة يدعوه إلى الإسلام.

٦- سليط بن عمرو العامري، بعثه الرسول ﷺ إلى هوذة بن علي الحنفي أمير اليمامة يدعوه إلى الإسلام ولكنه لم يرد على النبي.

وقد تحدثت المصادر عن أن الرسول ﷺ وجه رسلا آخرين إلى سائر قبائل العرب في الجزيرة العربية يدعوهم إلى الإسلام، ففي العام الثامن أرسل عمرا بن العاص إلى جيفر وعيد ابني الجلندي الأزديين أميري عمان يدعوهما إلى الإسلام فصدقا النبي ﷺ وآمنا به واسلما، كما وجه مبعوثين إلى كل من: المنذر بن ساوي العبدي أمير البحرين، وإلى أقيال اليمن من بينهم الحارث بن عبد كلال، وشريح بن عبد كلال، وإلى بني معاوية من كندة، وإلى بني عمر من حمير، وإلى جبلة بن الأيهم ملك غسان، وإلى أساقفة نجران، وإلى أمراء ذي مرحب بحضرموت.

كما كتب إلى بني طي وإلى بني ذام، وإلى بني زرعة وبني الريعة من جهينة، وإلى بني جعيل من بيلي، وإلى بني الجرمز من ربيعة وإلى بني سليم وغيرهم من قبائل العرب[1].

وهكذا فقد صار الرسول ﷺ على طريق تعميم نشر الدعوة الإسلامية، وحاول بالطرق السلمية أولا أن يحقق هذا الهدف، على أن هذه الطريق السلمية لم تكن ناجحة دائما، واضطر الرسول في سبيل إشهار عمومية الدعوة أن يلجأ إلى القتال، فجرد الحملات العسكرية ممهدا بذلك الطريق لانطلاق مرحلة الفتح العربي الإسلامي.

**وأهم تلك المعارك:**

**- غزوة مؤتة:**

بقيت مؤتة مجرد قرية منسية حتى العام السابع الهجري حين قرر النبي ﷺ إخراج دولته من عزلتها الحجازية وتجاوز الصراع الداخلي مع قريش الذي أخذت تضيق دائرته ويتراجع خطره على المدينة بعد فشل غزوة الأحزاب سنة (٥) هجرية، فقد أثبتت هذه الدولة حينذاك قدرتها على الصمود، والخروج سالمة من التحديات الخطيرة التي واجهتها، فتخلصت من خطر اليهود ومؤامراتهم، وفرضت هيبة الدولة على طرق التجارة، ونجحت في إفشال حركة المنافقين كما نجحت في استيعاب الصراع الوثني – القبلي.

---

(١) ابن سعد: ج١، ص٣٦١ وما بعدها.

هذه المتغيرات قادت إلى اتخاذ خطوات عملية تحمـــل معـــها مشـــروعا سياسيا واضح المعالم، وهو التحول من دولة المدينة، الحجازية الملامـــح، إلـــى الدولة الإسلامية الكبرى الأكثر تعبيرا عن عالمية الدعوة، وكانت حملـــة مؤتـــة الخطوة الرائدة على هذا الطريق.

تتأتى أهمية موقع مؤتى من العلاقة بين الحجاز والشام، أكثر من الموقـــع نفسه، الذي يبدو هامشيا من جميع الجوانب، ذلك أن مؤتة لم تكن علـــى امتـــداد الطريق التجاري المعروف الذي كان يجتاز عددا من المحطات الهامة، إلا أنـــها كانت في قلب هذه الدائرة الحيوية أو في الفلك منها تلك التي عرفت بـ (البلقـــاء) وضمت أشهر القبائل التخومية المهمة من أمثال: لخم وجذام وبلقن وبهراء وبلـــي التي كانت في الغالب تدين بالمسيحية ومعها الولاء للحكم البيزنطي الذي يســـيطر على تلك المناطق.

لقد كانت طبيعة العلاقة بين هذه القبائل والبيزنطيين اقتصادية، أو بتعبـــير أدق مصلحية، وذلك من أجل تأمين الحدود وحماية الطـــرق التجاريـــة، فكـــان ولاؤها بالدرجة الأولى بيزنطيا، وكانت الدولة البيزنطية تستغلها حـــاجزا بينـــها وبين القبائل العربية الأخرى في الحجاز.

إن طول الحرب بين الفرس والبيزنطيين، فضلا عن سياسة البـــيزنطيين المتذبذبة تجاه هذه القبائل أسهم عن غير قصد في تداعي هذا الحـــاجز (القبـــائل النصرانية) الذي أقامته بينها وبين القبائل الحجازية في شـــبه الجزيـــرة العربيـــة وأطرافها، واستنادا إلى خلفيات هذا الوضع فإن حملة مؤتة لم تكن تحركا عفويـــا اتخذ طابعه الثأري ضد حاكم قتل موفد النبي ﷺ، وإنما فرضته في المقـــام الأول مستجدات المرحلة، حيث الطريق مفتوحة، والقبائل متداخلة الانتماء والمصـــالح،

فضلا عن معرفة النبي ﷺ التفصيلية بمجمل هذه المعطيات، ومتابعته عن كثب أخبار الشام، لا سيما قرى التخوم وقبائلها النصرانية.

حدثت غزوة مؤتة، كما هو معروف، بسبب اعتداء وقع على رسول كان النبي قد أرسله إلى ملك بصرى بكتاب، فلما نزل موفد النبي أرض مؤته عرض له شرحبيل بن عمرو الغساني فقال له: أي تريد؟ قال: الشام. قال: لعلك من رسل محمد؟ قال: نعم، أنا رسول رسول الله، فأمر شرحبيل فأوثق الرجل، وضربت عنقه، وبلغ الخبر الرسول ﷺ فأمر الناس أن يتهيؤوا للخروج دون أن يبين لهم الوجهة التي سيقصدونها، وأعلن لهم أن إمارة الجيش لزيد بن حارثة، فإن قتل فلجعفر بن أبي طالب، فإن أصيب جعفر فعبد الله بن رواحة الأنصاري، وكانت عدة الجيش ثلاثة آلاف رجل.

ثم أوصى رسول الله زيدا وأمراء جيشه وصيته المشهورة التي عدت ناموس الحرب خلال معركة الفتوحات العربية الإسلامية، فقال: "أوصيكم بتقوى الله وبمن معكم من المسلمين خيرا، أعزوا باسم الله في سبيل الله، فقاتلوا من كفر بالله، لا تغدروا ولا تغلو، ولا تقتلوا وليدا، وإذا لقيت عدوك من المشركين، فادعهم إلى ثلاث فأيتهن ما أجابوك إليها، فأقبل منهم وأكفف عنهم، ثم ادعهم إلى التحول من دارهم إلى دار المهاجرين، فإن فعلوا فاخبرهم أن لهم ما للمهاجرين، وعليهم ما على المهاجرين، إن دخلوا في الإسلام واختاروا دارهم فأخبرهم أنهم يكونوا كأعراب المسلمين ويجري عليهم حكم الله، ولا يكون لهم في الفيء، ولا في الغنيمة شيء إلا أن يجاهدوا مع المسلمين، فإن أبوا فادعهم إلى إعطاء الجزية، فإن فعلوا فاقبل منهم، وأكفف عنهم، فإن أبوا فاستعن بالله وقاتلهم، وإن أنت حاصرت أهل حصن أو مدينة فأرادوك أن تستنزلهم على حكم الله، فلا

تستنزلهم على حكم الله، ولكن أنزلهم على حكمك، فإنك لا تدري أتصيب حكم الله فيهم أم لا؟ وإن حاصرت أهل حصن أو مدينة فأرادوك أن تجعل لهم ذمة الله وذمة رسوله، فلا تجعل لهم ذمة الله وذمة رسوله، ولكن اجعل لهم ذمتك وذمة أصحابك، فإن تخفروا ذمتكم وذمة آبائكم خير لكم من أن تخفروا ذمة الله وذمة رسوله، وستجدون رجالا في الصوامع معتزلين للناس، فلا تتعرضوا لهم... لا تقتلوا امرأة ولا صغيرا ضرعا ولا كبيرا فانيا، ولا تغرقن نخلا، ولا تقلعن سجرا ولا تهدموا بيتا"[1].

سارت الحملة باتجاه الشمال، وحين وصلت إلى معان من أرض الشام سمعت بأن جيشا بيزنطيا كبيرا يضم عددا من رجالات القبائل العربية ينتظرها غير بعيد، وتدارس زيد الموقف مع صحبه فقر رأيهم على متابعة السير وملاقاة العدو مهما كانت النتائج.

التقى الجمعان في مؤتة، وقاتل المسلمون الروم ببسالة، حتى استشهد قادتهم الثلاثة المعينون من قبل الرسول بالتتالي، وحينئذ أخذ الراية رجل منهم حتى يتفقوا على من يولونه قيادتهم، كما أمر الرسول، فاتفقوا على أن تولى القيادة لخالد بن الوليد، فقاتل بمهارة قتالا متراجعا، وصار يتأخر بالمسلمين قليلا قليلا محتفظا بنظام جيشه، ولم يتبعه الروم لأنهم ظنوا أنه يخدعهم حتى يرمي بهم في الصحراء، واستطاع خالد بهذه الطريقة أن يعود بالمسلمين إلى المدينة، وتعد هذه العملية العسكرية الذكية أول موقف برز فيه دور خالد بن الوليد بعد إسلامه وتجلت فيه قابلياته القيادية العسكرية وخدمته الجليلة للإسلام.

---

(١) ابن سعد: ج٢، ص٧٦٠.

تكتسي معركة مؤتة، على الرغم من نتيجتها المعروفة، أهمية خاصة في التاريخ العربي الإسلامي في صدر الإسلام، فهي أول اشتباك بين المسلمين وبين الروم وحلفائهم، أي أنها أول تجربة حربية تجتازها الدولة العربية الإسلامية على مستوى دولي، وإذا كانت موقعة مؤتة انتهت بهزيمة المسلمين، ووصفتها المصادر بأنها أسوأ هزيمة في تاريخهم، فضلا عن استنكار أهل المدينة واتهامهم أهل مؤتة بالتقصير والتخاذل، فإن الرسول ﷺ واجهه هذه النقمة بحزم وبدد الشكوك التي أطاحت بقدرة أهل الإيمان وصمودهم البطولي فكثرة العدو لم تخف المسلمين أو تدعوهم إلى التراجع، وقد أدى ذلك بالنتيجة على المدى البعيد إلى تكوين مقاتل يسعى طوعا إلى الشهادة، وشكل رافدا جديدا لتراث المسلمين في هذا المجال، كما شكل أداة التعبير الفاعلة في التطورات الجذرية الممتدة ما بين مؤتة ومعارك الفتوح الكبرى في العصر الراشدي.

من هذا المنظور حرص الرسول الكريم ﷺ على حماية معنويات العائدين وصد الاتهام عنهم، واعتبرها جولة تعقبها كرة، فلما اتهم أهل المدينة أصحاب مؤتة بأنهم (الفرار) من المعركة رد على هذا الاتهام بقوله "بل هم الكرار إن شاء الله"[1].

**- فتح مكة ٨هـ:**

من الطبيعي بعد خسارة المسلمين في معركة مؤتة أن يبدأ تفكير النبي ﷺ بتعزيز وضعه الداخلي، وتقوية انتشاره وتحصين مواقعه، ففكر في فتح مكة تمهيدا للتفرغ للثأر من الخارج لاحقا، وكان الحادث الذي أرى إلى نفض صلح

---

(١) ابن هشام: ق٢، ص٣٨٢.

الحديبية ووقف العمل ببنوده وأدى بالتالي إلى مسيرة الرسول إلى مكة فاتحا، هـو القتال الذي وقع بين بني بكر حلفاء قريش وبني خزاعة حلفاء المسـلمين، وقـد انضمت قريش إلى حلفائها البكريين في هذا القتال وأمدتهم بالرجـال والسـلاح سرا.

ويبدو أن قريشا شعرت بخطر فعلها ونقضها العهد مع الرسول، فأرسلت أبا سفيان ليشد العقد ويجدد العهد مع الرسول، وصل أبو سفيان إلى المدينة وقـابل الرسول وكلمه فلم يرد عليه الرسول بشيء، فذهب إلى أبي بكر وطلب منـه أن يتوسط له عند الرسول لتجديد العقد، فرفض أبو بكر أن يتدخل في الأمر، فحـاول الأمر نفسه مع عمر وعلي فرفضا وهكذا عاد أبو سفيان إلى مكة دون أن يحقـق ما هدف إليه.

وعزم رسول الله على فتح مكة، فأعد جيشا كبيرا من أهل المدينـة لـم تشهد له الحجاز مثيلا من قبل عدته عشرة آلاف مقـاتل، وأراد الرسـول ﷺ ألا يشيع الخبر وإلا تعلم به قريش حتى لا تستعد للقائه، ولكن شخصا مـن عمـلاء قريش في المدينة أرسل كتابا سريا مع امرأة إلى قريش يخـبرهم فيـه بخـروج الرسول لحربهم، وعرف الرسول بخبر الكتاب، فأرسـل مـن احتجـز المـرأة، واسترد الكتاب وعفا عن مرسله، وكان خروج هذا الجيش من المدينة فـي العاشـر من رمضان، وقد استخلف الرسول على المدينة أبا رهم كلثون بن حصيـن بـن عتبة الغفاري.

وفي الطريق لقي الرسول ﷺ عمه العباس بن عبـد المطلـب مـهاجرا بعياله، فأسلم بين يديه، وأراد العباس بعد إسلامه أن يقوم بعمل ينقـذ بـه مكـة ورجالاتها من كل ما قد يتعرضون إليه من مخاطر أو إهانات مـن المسـلمين،

فسار بعد مقابلته الرسول يبحث عن رجل يوفده إلى قريش لتأخذ حذرها وتبادر بالاستسلام، وصادف أن لقي أبا سفيان بن حرب، وربما لم يكن هذا اللقاء مجرد صدفة أو محض اتفاق، إذ من المحتمل أنه اتفق معه مسبقا على هذا اللقاء حتى يجيره العباس أمام المسلمين ويمنعه من التعرض لسيوفهم، وفي الوقت نفسه يمثل قريش أمام الرسول، أو يعلن إسلامه ليأخذ منه أمانا للقرشيين فلا تفتح مكة عنوة.

رافق العباس أبا سفيان إلى حضرة الرسول، وتوسط له عنده، وعندما أسلم أبو سفيان في حضرة النبي ﷺ قال العباس: "يا رسول الله إن أبا سفيان يحب هذا الفخر، فاجعل له شيئا" فقال له الرسول ﷺ: "من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن أغلق بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن" وبذلك أصبحت مكة مؤمنة على دماء أهلها وذراريهم، وأموالهم ونسائهم، إلا من قاتل أو استثنى فقط، وعاد أبو سفيان مسرعا إلى مكة ليدعو قريشا إلى الإسلام، والاستسلام للرسول لأنها لا قبل لها بما جاء به من جيش وعدة كبيرين.

عندما اقترب جيش المسلمين من مكة، قسم الرسول ﷺ الجيش إلى أربعة أقسام، وأمر أن يدخل كل قسم من جهة للقضاء على ما قد يجدونه من مقاومة، وكان دخول الجيش المسلم إلى مكة دخولا يسيرا ولم يلق مقاومة تذكر، وكان القتال الوحيد الذي جرى هو القتال بين الفريقين من الجيش المسلم الذي على رأسه خالد بن الوليد وبعض من القرشيين وأحابيشهم في مكان من مكة يقال له الخندمة، وبدخول المسلمين مكة، سقط معقل الوثنية في جزيرة العرب في أيدي المسلمين.

وبعد أن تحقق هذا النصر الباهر، جاءت قريش إلى الرسول ﷺ معلنة إسلامها بين يديه، ومبايعة على السمع والطاعة لله ورسوله، وعفا رسول الله عن عامة قريش، وعاملهم معاملة تنطوي على جانب كبير من التسامح والمحبة، وأجابهم حين سألوه عما تراه فاعل بهم بمقولته المشهورة: "اذهبوا فأنتم الطلقاء"، ثم طاف رسول الله ﷺ بالكعبة وأمر بتحطيم الأصنام الموجودة في الكعبة وخارجها، وأذن له بلال على ظهر الكعبة، وأعلن الرسول بعد فتح مكة مباشرة عن انتهاء الهجرة.

بقي الرسول في مكة بعد الفتح خمسة عشر أو عشرين يوما أشرف خلالها على تحطيم أصناف الكعبة والأصنام الخاصة الموجودة في البيوت، واهتم ببعض الأمور الإدارية والتنظيمية، ومن بينها تأمين نفقة الفقراء من أصحابه الذين رافقوه في الفتح والذين لم يحصلوا على أية غنيمة، لأن الرسول منع استباحة مكة أو سلب أموال أهلها، فاستدان مالا من بعض رجالات مكة ووزعه على أصحابه، بحيث أصاب الواحد منهم ٥٠ درهما، وقد أعاد الرسول المال الذي استلفه إلى أصحابه بعد انتصاره في غزوة حنين(١).

وبفتح مكة، خرجت الدولة العربية الإسلامية من نطاق دولة المدينة إلى نظام الدولة الكبيرة، وتحققت بذلك المرحلة الأولى من مراحل بناء الدولة العربية الإسلامية الكبرى.

---

(١) ابن هشام: ق٢، ص٤٠٧ وما بعدها.

## - غزوة حنين وحصار الطائف ٨هـ:

كان فتح مكة حدا فاصلا بين حقبتين في تاريخ الدعوة الإسلامية، كما أشرنا، حقبة كانت فيها قريش حامية الوثنية العربية، تحمل لواء المعارضة للإسلام، وحقبة شهدت تأييد قريش وانضمامها إلى صف المسلمين، وعلى الرغم من هذا التحول الكبير في تاريخ منطقة الحجاز، فإن بعض القبائل المهمة في هذه المنطقة ظلت على معارضتها للرسول وأبت أن تظهر الخضوع له أو القبول بالدين الجديد، ومن هذه القبائل، قبيلتا ثقيف وهوازن في مدينة الطائف.

بدا للرسول ﷺ أن الخطر الحقيقي الذي يهدده هو ما سمعه من أنباء عن حشود كبيرة تهيؤها هاتان القبيلتان وحلفاؤها ضده على مسافة لا تزيد عن مسيرة يومين أو ثلاثة من مكة، ولما عرف الرسول بتجمع هذه القبائل ونواياها، خرج من فوره لصدها على رأس الجيش الذي قدم به مكة فاتحا بعد أن ضم إليه ألفين من القرشيين فغدت عدة الجيش ١٢ ألف مقاتل.

وصلت طلائع المسلمين إلى وادي حنين وعسكرت هناك في العاشر من شوال سنة ٨ للهجرة، وهو واد منحدر من أودية تهامة قريب من الطائف، وفي صبيحة اليوم التالي سارت تشكيلات الجيش الإسلامي باتجاه الوادي، وكان على مقدمتهم خالد بن الوليد، وكان يخالطهم شعور فيه شيء كثير من الزهو والإعجاب بالنفس لكثرة عددهم، وكانت المنطقة المجاورة للوادي جبلية تتخللها الوديان والشعاب وقد فوجئ الجيش الإسلامي بكمائن هوازن تترصدهم في جنبتي الوادي وممراته الضيقة، وأحدث هذا الهجوم المفاجئ أثره في إرباك المسلمين، وأشاع الفوضى في صفوفهم، فأسرع بعضهم بالهرب ولاسيما حديثو الإسلام من القرشيين، فناداهم رسول الله فلم يرجعوا، وقد ظل الرسول صامدا

في مكانه ومعه عدد قليل من كبار الصحابة، ورأى أن أهم ما يجب عليه عمله هو إعادة تنظيم صفوف المسلمين بعد أن دبت الفوضى بينهم وسيطر الرعب على بعضهم، فطلب من عمه العباس، وكان جهوري الصوت، أن ينادي بالناس، فسمعه الناس، فكر عدد منهم إلى النبي، استقبلوا هوازن بالقتال، ثم توافد المسلمون، واشتد القتال، وانتهت المعركة بانتصار حاسم للمسلمين، فانهزمت هوازن، واستمر القتل في بني مالك من ثقيف، وفر مالك بن عوف إلى الطائف، كما فر بقية المهاجمين فتعقبهم بعض الصحابة للقضاء على مقاومتهم وضرب فلولهم، وهكذا كان نصر الرسول ﷺ في حنين نصرا مؤزرا، واستطاع أن يفرق تجمعا كبيرا كاد أن يلحق ضررا باستقرار الدولة الإسلامية الناشئة ووجودها.

أرجأ رسول الله توزيع الغنائم لكي لا ينشغل رجاله بأمرها، فأمر بجمعها ووضعها في مكان يقال له الجعرانة، حتى يتفرغ من أمر العدو، فقد عزم على المضي من حنين إلى الطائف مباشرة متعقبا فلول ثقيف التي لجأت إليها، وكانت الطائف آنذاك مدينة محصنة، وجرت مناوشات وتراشق بالنبال عبر السور بين المسلمين وسكان الطائف، مما اضطر الرسول إلى أن يعسكر بمكان آخر يأمن فيه على أصحابه من رمي أهل الطائف، وأقام رسول الله على حصار الطائف خمس عشرة ليلة، ثم رحل عنها إلى الجعرانة حيث رد على هوازن أبناؤهم، وقسم الأموال بين المسلمين ثم أعطى نصيبه (الخمس) بعض حديثي العهد بالإسلام من قريش أو رجالات العرب هدايا إضافية من الغنائم وقد عرف هؤلاء باسم "المؤلفة قلوبهم" منهم: أبو سفيان بن حرب وابنه معاوية وحكيم بن حزام بن خويلد والحارث بن الحارث بن كلدة، ثم اعتمر رسول الله من الجعرانة إلى مكة ورجع إلى المدينة بعد أن استعمل على مكة عتاب بن أسيد لينظم شؤونها

ويشرف على إدارتها، كما أبقى معه فيها معاذ بن جبل وأبا موسى الأشعري ليعلما الناس القرآن ويفقهانهم بالدين وسننه.

ولم يلبث بنو ثقيف أن أدركوا عبث مناوأتهم للرسول، وبأنه لن يتاح لهم الصمود طويلا في موقفهم المعادي له، لضعف إمكاناتهم قياسا بقوة المسلمين، فبعثوا إليه وفدا يرأسه عبد ياليل بن عمير فصالحهم الرسول على أن يسلموا ويقرهم على ما في أيديهم من الأموال[1].

لقد أدت هذه الانتصارات التي حققها الرسول ﷺ إلى نتائج هامة جدا في ميدان علاقات الإسلام بالقبائل البدوية الضاربة في مختلف أنحاء الجزيرة، إذ شهد العام التالي لغزوة حنين (أي سنة ٩هـ) قدوم عدد كبير من وفود هذه القبائل إلى المدينة معلنة ولاءها لرسول الله، وخضوعها لسلطان الدولة الجديدة.

**- غزوة تبوك ٨هـ:**

إن الأسباب التي دعت الرسول إلى القيام بهذه الغزو أن جماعة من الأنباط يسيمهم الواقدي بـ (الساقطة) كانوا منذ الجاهلية يقدمون المدينة بالدقيق والزيت يبيعونها لأهلها، واستمروا على هذا الحال بعد الإسلام، وكان الرسول بعد هجرته إلى المدينة يتلقى منهم أخبار الشام وما يجري فيها وما يهيئ ضده من قبل حكام الروم، وهكذا كانت أخبار الشام عند المسلمين كل يوم، لكثرة ما

(١) طلب الوفد الثقفي من الرسول أن يترك لهم اللات فلا يهدمها فرفض ذلك، كما سألوه أن يعفيهم من الصلاة، وأن يكسروا أوثانهم بأيديهم، فقال الرسول: أما كسر أوثانكم بأيديكم فسنعفيكم منه، وأما الصلاة فإنه لا خير في دين لا صلاة فيه، انظر: ابن هشام: ق٢، ص٤٨٥ وما بعدها.

يقدم عليه من الأنباط[1]، وقد وصل إلى علم الرسول من خلال هؤلاء أن الـــروم قد جمعت جموعا كثيرة بالشام، وأن هرقل قد أعطى المسلمين وأنه ضـــم إلـــى جيشه جماعات كثيرة من قبائل لخم وجذام وغسان وعاملة وغيرها مـــن القبـــائل النازلة في الشام، كما علم أن بعض هذه القوات قد زحفت إلى البلقاء وعســـكرت فيها بانتظار التقدم نحو المدينة.

استنادا إلى هذه المعلومات، أذن رسول الله ﷺ بغزو الروم، واتفق علـــى أن استنفاره جاء في أواخر حر شديد حين طاب أول الثمر، وفي عـــام مجـــدب، ولهذا قوبل الاستنفار بفتور من المنافقين وتثاقل من بعض الصحابة، وقد دعـــت الظروف القاسية التي جهز الرسول في ظلها جيشه هذا، إلى تسمية هذا الجيـــش بجيش العسرة.

خرج رسول الله ﷺ من المدينة فتخلف جماعة من أهل النفـــاق يـــتراوح عددهم ما بين السبعين والثمانين، كما أخذ بعض من رجال جيشه يتخلـــون عنـــه في أثناء الطريق بسبب ما شاع بين الناس من أنه لا قبل لجيش كجيش الرســـول هذا بملاقاة الروم والدخول معهم في قتال، وكانت عدة الجيش الإسلامي ثلاثيـــن ألفا، ومن الخيل عشرة آلاف فرس، واستمر النبي ﷺ في مسيرته حتـــى وصـــل إلى تبوك، فلم يلق بها كيدا، وصالحه أهلها على الجزية، وأقام بها عشـــرين ليلـــة، أتاه إليها وهو بها يحنة (يوحنا) بن رؤبه صاحب أيله، فصالحه على الجزية، كمـــا أتاه أهل جرباء وأذرح وأعلنوا ولاءهم وطاعتهم ودفعوا الجزيـــة، وقـــد كتـــب الرسول ﷺ ليوحنا وأهل الجرباء وأذرح كتب أمان واعتبرهم ذمة الله ورســـوله،

---

(١) الواقدي: ج٣، ص٩٨٩ وما بعدها.

هم ومن كان معهم من أهل الشام، ثم أرسل خالد بن الوليد إلى بعض أمراء القرى المجاورة، حتى يضمن خضوع كل منطقة شمال الحجاز والبادية للدولة العربية الإسلامية، فلا يتمكن أهلها من إعانة الروم إذا ما قدموا إلى بلاد الحجاز من هذه الناحية، وقد نفذ خالد ما أمر به وأجبر سكان هذه الأراضي على الصلح ودفع الجزية، ثم عاد الرسول ﷺ إلى المدينة بعد عشرين ليلة قضايا في تبوك، فوصل إلى المدينة في رمضان سنة تسع من الهجرة، وتعد غزوة تبوك آخر غزوة غزاها النبي بنفسه.

## عام الوفود ٩هـ:

عرف العام التاسع للهجرة بعام الوفود، كما ذكرنا، ففي هذا العام تواترت وفود العرب تعلن إذعانها للإسلام، وبدأت بوادي توحيد كل جزيرة العرب تحت راية الإسلام تظهر بعد عودة رسول الله من غزوة تبوك، فقد ذكر ابن اسحاق: "لما افتتح رسول الله ﷺ مكة، وفرغ من تبوك، وأسلمت ثقيف وبايعت، ضربت إليه الوفود من كل وجه، وعرف العرب أنه لا طاقة لهم بحرب رسول الله ﷺ ولا عداوته، فدخلوا في دين الله، كما قال عزوجل أفواجاً، يضربون إليه من كل وجه"(١).

وقد ذكرنا سابقاً أن وفد قبيلة ثقيف كان أسبق الوفود في القدوم على الرسول ﷺ، وبإسلام ثقيف غدت الحجاز بكاملها تخضع لدولة الإسلام، كما أخذت القبائل العربية الأخرى التي كانت ما تزال على الشرك تحذو حذو ثقيف وترسل بعوثا منها إلى المدينة لتعلن انطوائها تحت راية الإسلام ومبايعة

---

(١) ابن هشام: ق٢، ص٥٥٩-٥٦٠.

الرسول، وكان من الوفود التي قدمت على الرسول: وفد تميم، ووفد بني عامر، ووفد بني سعد بن بكر، ووفد عبد القيس، ووفد بني حنيفة وفيه مسيلمة ابن حبيب (الكذاب) الذي أسلم أول الأمر ثم عاد وارتد، ووفد طيء، ووفد زبيد، ووفد كندة وعلى رأسه الأشعث بن قيس، ووفد الأزد.

كما أرسل إليه ملوك حمير رسولا يعلمه بإسلامهم، وقدم عليه أيضا وفد بني فزاره، ووفد بني مرة، ووفد بني كلاب، ووفد بني قشير بن كلب، ووفد بني البكاء، ووفد بني عذرة، ووفد بلي، ووفد الداريين[١].

## توحيد جزيرة العرب:

وعلى الرغم من كثرة الوفود التي زارت المدينة مبايعة الرسول الكريم، والتي لم نذكر إلا القليل القليل منها، فإنه ظل في الجزيرة العربية فريق يحرص على دينه القديم، فلما حان موعد الحج، عهد رسول الله ﷺ إلى أبي بكر بإمارة الحج، وذلك في نهاية العام التاسع للهجرة، ثم أصدر بيان "براءة" تضمنتها سورة من سور القرآن الكريم هي سورة التوبة، وفوض إلى علي بن أبي طالب مهمة قراءتها على مشهد من جميع الحجاج بمكة، وفي هذا البيان نبذ الرسول عهوده التي كان قد عقدها مع القبائل التي وادعها والتي لم تدخل بعد بالإسلام، وألغى كل عقد أبرمه معها، وأمهل هذه القبائل أربعة أشهر لإشعار إسلامها، والدخول في ظل سيادة الدولة العربية الإسلامية، وإلا اعتبروا خارجين على نظامها ووجب على المسلمين محاربتهم، وجاء في البيان أن مكة أصبحت بحرمها إسلامية بعد أن برئت الكعبة من الأصنام، وأن الحج أصبح يجري على الطريقة الإسلامية، وأنه لا يجوز لغير المسلم أن يحج ويقرب من المسجد الحرام تنفيذا

(١) ابن هشام: ق٢، ص٥٦٠ وما بعدها. ابن سعد: ج١، ص٣٠٠ وما بعدها.

لأمره تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا، إنما المشركون نجس، فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا﴾[1]، وقد كان لهذا التهديد والإنذار أثرهما في حث من بقي على الشرك من العرب أن ينضموا للصف الإسلامي فتابعت الوفود قدمها على المدينة خلال العام العاشر للهجرة بهدف إعلان المبايعة والخضوع للدولة العربية الإسلامية.

وبعد أن اطمأن الرسول ﷺ إلى توحد جزيرة العرب تحت راية الإسلام، قرر الذهاب إلى مكة لأداء فريضة الحج، ودعا المسلمين لأداء الفريضة معه، فاستجابوا لدعوته، ووفد على المدينة عدد كبير من رجال القبائل يريدون أن يأتموا برسول الله في حجته هذه، وفي الخامس والعشرين من ذي القعدة من السنة العاشرة للهجرة غادر الرسول المدينة يصحبه عدد كبير من المهاجرين والأنصار ورجال القبائل بلغ عددهم ما يقرب الألف رجل، وأدوا جميعاً فريضة الحج، وفي يوم عرفات، ألقى الرسول خطبته الخالدة التي يعدها المسلمون منهجاً ودستوراً لهم، ثم نزلت الآية الكريم: ﴿اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا﴾، وقد تمت رسالة النبي بنزول هذه الآية، وتلاها على المسلمين حين نزولها، فكان لها بالغ الأثر في نفوسهم، من جانب آخر شهد النبي ﷺ كيف ارتفعت كلمة الإسلام في هذا العدد الضخم من الحجاج الذي بلغ ما يقرب من مائة ألف حاج من العرب ليس بينهم مشرك واحد.

وهكذا دخلت معظم قبائل العرب في الإسلام، وبدأت صفحة جديدة في تاريخ الدولة العربية الإسلامية التي ضمت كل أقسام جزيرة العرب، باستثناء

---

(١) التوبة: ٢٩.

الأقسام الشمالية، حيث يرابط الروم في جنوب بلاد الشام، فكانوا يشكلون خطرا مماثلا على الجبهة الشمالية لدولة الإسلام، وقد أدرك النبي هذه الحقيقة، فوجه همه إلى تأمين حدود بلاده الشمالية ومد سلطانه إلى مناطق التخوم حيث يخشى تسرب الروم أو عملائهم إلى مناطق التخوم من ثم إلى داخل دولته، ومن أجل ذلك، وبعد قليل من عودته من حجه أمر بتجهيز جيش لغزو أطراف الشام الجنوبية وعهد بقيادته إلى أسامه بن زيد ابن حارثة وأمره أن يوطئ الخيل تحوم البلقاء والداروم من أرض فلسطين"[١]، وقد ساء بعضهم أن يولي الرسول عليهم شابا في عمر أسامة، وبلغت الأخبار الرسول فهدأ خواطرهم وأظهر لهم هدفه من تأمير أسامة، وما في ذلك من إكرام لذكرى أبيه شهيد مؤته، ولكن لم يقدر لهذه الحملة أن تحقق مهمتها في حياة الرسول، فتأجل مسيرها إلى خلافة أبي بكر الصديق ﷺ.

وفي أواخر شهر صفر من السنة الحادية عشر للهجرة أخذت بوادر الحمى تلم بالرسول الكريم، وطال مرضه ﷺ اثني عشر يوما وقيل أربعة عشر يوما، وفي يوم الاثنين الثاني عشر من شهر ربيع الأول سنة ١١ للهجرة لحق صلوات الله عليه بالرفيق الأعلى بعد أن أكمل رسالته وأتم نعتمه على الإنسانية، وإذا كانت شعلة الحياة قد خبت في صدر محمد بن عبد الله فإنه قد أوقد مشاعل الإسلام، ومشاعل الحرية والعدالة والمساواة في أرجاء المعمورة، ويكفيه فخرا وعزة أن صوت "أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا رسول الله" ما زال يصدح في مشارق الأرض ومغاربها، وأن سيرته الشريفة ما زالت درسا بليغا في الجهاد والكفاح الذي لا يعرف النكوص أو التراجع عن المبادئ، لكل الأجيال وعبر العصور.

---

(١) ابن هشام: ق٢، ص٦٠٦.

# المصادر والمراجع


١- القرآن الكريم.

٢- ابن الأثير، الكامل في التاريخ، دار صادر، بيروت، ١٩٦٧م.

٣- أحمد أمين، فجر الإسلام، القاهرة، ١٩٤٥.

٤- الأزرقي، أخبار مكة، بيروت، ١٩٦٤م.

٥- الأصبهاني، أبو الفرج، كتاب الأغاني، بيروت، ١٩٥٦م.

٦- الأصطخري، كتاب المسالك والممالك، ليدن، ١٩٢٧.

٧- البلاذري، فتوح البلدان، القاهرة، ١٩٥٧.

٨- ابن خلدون، كتاب العبر، بيروت، ١٩٦٥.

٩- الدنيوري، أبو حنيفة، الأخبار الطوال، القاهرة، ١٩٦١.

١٠- سالم، السيد عبد العزيز، تاريخ الدولة العربية حتى سقوط الدولة الأموية، بيروت، ١٩٨٦.

١١- ابن سعد، أبو عبد الله محمد، الطبقات الكبرى، بيروت، ١٩٥٧.

١٢- السيوطي، حسن المحاضرة، القاهرة، ١٣٢٧.

١٣- ابن شرية، عبيد الجرهمي، أخبار اليمن، ملحق بكتاب التيجان، حيدر آباد الدكن، ١٣٤٧هـ.

١٤- الطبري، محمد بن جرير، تاريخ الرسل والملوك، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ١٩٦٨.

١٥- عاقل، نبيه، تاريخ العرب القديم وعصر الرسول، دار الفكر، دمشق، ١٩٨٣.

١٦- علي، جواد، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، بيروت، ١٩٦٨.

١٧- فروخ، عمر، تاريخ الجاهلية، بيروت، ١٩٦٤.

١٨- ابن قتيبة الدنيوري، أبو محمد عبد الله بن مسلم: كتاب المعارف، القاهرة، ١٣٠٠هـ.

١٩- ابن الكلبي، الأصنام، القاهرة، ١٩٦٥.

٢٠- المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق محيي الدين عبد الحميد، القاهرة، ١٩٤٨.

٢١- المقدسي، المطهر بن طاهر، كتاب البدء والتاريخ، باريس، ١٩٠٣.

٢٢- المقدسي، شمس الدين أبو عبد الله محمد، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ليدن، ١٩٠٦.

٢٣- نولدكه، ثيودور، أمراء غسان، ترجمة بندلي جوزي وقسطنطين زريق، بيروت، ١٩٣٣.

٢٤- ابن هشام، أبو محمد عبد الملك، كتاب سيرة النبي، تحقيق مصطفى السقا وآخرين.

٢٥- الهمداني، أبو محمد الحسن بن أحمد، صفة جزيرة العرب، نشرة محمد عبد الله بلهيد النجدي.

٢٦- الواقدي، أبو عبد الله محمد بن عمر، مغازي رسول الله، تحقيق مارسدن جونس.

٢٧- ياقوت الحموي، معجم البلدان، بيروت، ١٩٥٥.

٢٨- يحيى الشامي، الشرك الجاهلي وآلهة العرب المعبودة قبل الإسلام، دار الفكر، بيروت، د.ت.

٢٩- اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب، تاريخ اليعقوبي، دار صادر، بيروت، د.ت.

## الفهرس

**القسم الأول: تاريخ العرب قبل الإسلام - ٣ -**



**القسم الثاني: عصر النبوة -٢٢١-**